الأب لويس شيخو

الطّائفة المارونيّة و الرُّهبانيّة اليسوعيّة

بين القرنين السّادس عشر والسّابع عشر

منشورات دار المشرق
بيروت



الطّائفة المارونيّة
و
الرُّهبانيّة اليسوعيّة

بين القرنين السّادس عشر والسّابع عشر



الأب لويس شيخو

الطَّائفَة المارونيَّة و الرُّهبانيَّة اليَسوعيَّة

بَين القرنَين السّادس عَشر وَالسَّابع عَشر

نُشر تباعًا في مجلّة المشرق
وألحق بثلاثة فهارس

طبعة ثانية
٢٠٠٣



دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ٩٤٦ - ١١
رياض الصلح، بيروت ٢٠٦٠ ١١٠٧
لبنان
http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-1113-6

التوزيع: المكتبة الشرقيّة
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: ٤٩٢١١٢ - ٥/٤/٤٨٥٧٩٣ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ (٠١)
Email: libor@cyberia.net.lb

مقدمة الناشر

أكبّ العلّامة الأب لويس شيخو اليسوعيّ في حياته الأدبيّة الحافلة بالإنجازات، على درس تاريخ الكنيسة المارونيّة التي عاش بين ظهرانيها سنوات طويلة، فاطّلع على مآثرها وعرف أبناءها وأحبارها وخدمهم باحترام ومحبّة. ومن المؤلَّفات التي خلّفها وجاءت تكريسًا لعلاقته المميّزة هذه بالموارنة، كتاب **الطائفة المارونيّة والرهبانيّة اليسوعيّة في القرنين السادس عشر والسابع عشر**.

نشر شيخو هذا الكتاب مقالاتٍ ظهرت تباعًا في مجلّته **المشرق** بدءًا من منتصف العام ١٩١٤، ثمّ طبعها على حدة في كتاب أبصر النور العامَ ١٩٢٣ وصدّره بالعبارة التالية: «تقدمة الإكرام والولاء من الرهبانيّة اليسوعيّة إلى فخر تلامذتها القدماء غبطة مار إلياس بطرس الحويّك بطريرك أنطاكية وسائر المشرق».

واليوم، ولمناسبة انعقاد المجمع البطريركيّ المارونيّ في مطلع شهر حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، يطيب لدار المشرق، ناشرة مؤلَّفات اليسوعيّين في الشرق الأدنى، أن تعيد طبع مصنَّف الأب شيخو ليكون شاهدًا على أمجاد الكنيسة المارونيّة وسعيها المستمرّ إلى التجدّد، وعربون بقاء الرهبانيّة اليسوعيّة على وفائها لكنيسة مارون، وإنّه ليُسعدها أن ترفع بدورها هذه الطبعة «تقدمةَ إكرام وولاء من الرهبانيّة اليسوعيّة إلى فخر تلامذتها القدماء غبطة مار نصرالله بطرس صفير بطريرك أنطاكية وسائر المشرق» الحالي[1].

بيروت، في ١٥ أيّار ٢٠٠٣

(١) أعدنا تنضيد الكتاب محافظين على نصّه كاملًا، سوى أنّنا أضفنا بعض علامات الوقف لتسهيل القراءة، وصحّحنا ثلاث غلطات طباعيّة أو أربع لا تخفى على اللبيب. واضطررنا، أمانةً للدقّة العلميّة إلى ترك عبارات كانت رائجة في مطلع القرن الماضي تخدش العلاقات المسكونيّة، وقد تخطّاها الزمن اليوم والحمد لله.



تقدمة الإكرام والولاء

من الرهبانيَّة اليسوعيَّة إلى فخر تلامذتها القدماء

غبطة مار إلياس بطرس الحويك

بطريرك انطاكية وسائر المشرق

توطئة

طالما تاقت النفوس إلى معرفة أحوال الطوائف الشرقيَّة في الأجيال الغابرة لما وراء ذلك من الفوائد كشفًا للنقُب عن الحقائق التاريخيَّة ودحضًا للتُّهَمِ التي يختلقها قوم ليس لهم من العلم إلاّ قشرتُه. لكنَّ دون بلوغ المنى عقباتٍ شتَّى لِما طمستهُ كوارث الدهر من الآثار وما أبادت يد الأيّام من المصنَّفات الخطيرة.

على أنَّ كثيرين من أرباب البحث قد قاموا في هذه الأعوام الأخيرة ينقّرون عن أخبار الشرق النصرانيّ في الكتب القديمة ويقلّبون ما حوَتْهُ المكاتب من الرقوق والصكوك عسى أن يقفوا على ما تكنُّه من المعلومات عن بلادنا فيستخرجونه من مطاميرهِ.

وممَّن كلِفوا بجمع تلك الآثار بعض آباء رهبانيَّتنا اليسوعيَّة نخصُّ منهم بالذكر الأب بطرس مرتين، صاحب تاريخ لبنان، المتوفَّى سنة ١٨٨٠ والأب لويس كسافاريوس أبوجي المتوفَّى سنة ١٨٩٥، فإنَّهما كانا سعيا باستنساخ عدَّة مخطوطات وجداها في رومية في خزائن مكاتبها لا سيَّما مكتبة رهبانيَّتنا حيث تُحفظ آثار جليلة من كتابات المرسلين الأقدمين الراقية إلى القرن السادس عشر. وكانت نيَّتهما أن يصنّفا تاريخًا للشرق الكاثوليكيّ ولرسالتنا السوريّة القديمة لولا أنّ مرضًا مزمنًا حال دون رغبتهما فماتا وبقيت مجموعاتهما مدفونةً.

على أنَّ الله كان دعا إلى رهبانيَّتنا شابًّا في مقتبل العمر من أسرة كريمة

حلبيَّة نريد به فقيد رسالتنا في العام الماضي الأب أنطون ربَّاط. فهذا إذ اطَّلع قبل سيامتهِ كاهنًا على تلك الآثار الباقية تعشَّق الدروس التاريخيَّة وأخذ يسعى في توفير تلك المادَّة ليقوم بالعمل الذي عجز عنه سلفاه، وقد ساعدته على تحقيق مرغوبه العناية الإلهيَّة ورؤساء رهبانيَّته فإنَّ ما وجده فيهم من التنشيط قولًا وفعلًا وطَّأ أمامه العقبات فأخذ يكدُّ جبينه ويسهر عينه رجاء أن يحصل على ما خزنته المكاتب الدوليَّة من تلك الآثار، فلم تذهب مساعيه سدًى لأنَّه اطَّلع في مكاتب باريس وخزائن الدولة الفرنسويَّة في وزاراتها الخارجيَّة والبحريَّة والاستعماريَّة على أضابير مضبورة فيها السجلاَّت والرسائل والتقارير وتفاصيل الرِحَل للمرسلين والسفراء والقناصل كتبوها للأحبار الرومانيّين أو لملوكهم ورؤسائهم وهم لم يقصدوا من كتابتها سوى إطلاعهم على حقائق الأمور التي شهدوها بالعيان. فنقل منها كثيرًا ثمَّ باشر بنشرها في لغاتها الأصليَّة في كتابه المعنون بالآثار الخطِّيَّة لتاريخ الكنائس الشرقيَّة الذي وصفناه وصفًا واسعًا في **المشرق** سنة ١٩٠٧ (١٠: ٧٤٥-٧٥١) وبيَّنّا عظم شأنه. وقد ظهر من هذا التأليف خمسة أقسام يبلغ مجموعها نيّفًا وألف صفحة. والأمل معقود على متابعة نشر الباقي منها بهمَّة أحد آباء كلِّيَّتنا.

وكان المرحوم الأب أنطون ربَّاط يريد أن يستخلص من هذه الكتابات المتفرّقة كتبًا شتَّى ينشرها بالعربيَّة وكتب في ذلك فصلًا تمهيديًّا تحت عنوان «العلاقات بين الشرق والغرب» (في **المشرق** ١٤ [١٩١١]: ٥٤٨) فاجأته المنون قبل إتمامه. ولدينا من أثمار مساعيه عدَّة أوراق متفرّقة تدلُّ على أنَّه كان متعشِّقًا لتاريخ بلاده ينقِّب عن كلّ خفاياه ويروم رفع شؤون وطنه.

وكنَّا نحن إخوته في الرهبانيَّة ولا سيّما الفقير راقم هذه الأسطر نُنهض همَّته وندفعه إلى مواصلة أبحاثه لئلاَّ تبقى كنوزه الأدبيَّة مخفيَّة، وإذ قضى الله بفراقه لم نشأ أن تضيع تلك المآثر الجليلة فجمعناها وأضفنا إليها قسمًا كبيرًا ممّا حظينا به بتفتيشنا الشخصيّ في مكتبتنا الشرقيَّة أو في خزائن بعض الخواصّ.

ولمّا كانت هذه الآثار تستغرق صفحات عديدة بل كتبًا برمَّتها، قصرنا

الآن بحثنا على تاريخ الطائفة المارونيّة والرهبانيّة اليسوعيّة في القرنين السادس عشر والسابع عشر وهو فصل جليل من تاريخ الشرق المسيحيّ لا يزال معظمه مجهولًا.

الطائفة المارونيّة قبل القرن السادس عشر

منذ دخل الصليبيُّون أصقاعنا السوريّة فاستوطنوا السواحل ومدُّوا سيطرتهم على قسم من البلاد الداخليّة، انضمَّ إليهم الموارنة وتوثَّقت بينهم روابط الوداد المبنيّة على وحدة الدين. ومذ ذاك العهد أَلِفَ بنو مارون طريق رومية مركز الوحدة الكاثوليكيّة وصارت تدور بين الكرسيّ الرسوليّ والطائفة المارونيّة المراسلات المتبادلة والكتابات الرسميّة التي لا يزال قسم منها في سجلاَّت الدار البطريركيّة الفخيمة أو في خزائن الفاتيكان، يرقى أقدمُها عهدًا إلى إينوكنت (زخيا) الثالث الذي استدعى سنة ١٢١٣ بطريرك الموارنة إرميا العمشيتيّ (١٢٠٦-١٢٣٠) لحضور المجمع اللاترانيّ الرابع ووجَّه براءةً إلى البطريرك المذكور يمنحه مع شعبه فيها عدَّة إنعامات[١].

وتواردت بعد ذلك كتابات الأحبار الرومانيّين إلى الموارنة من إينوكنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤) في السنتين ١٢٤٣ و١٢٤٦ وبإثره من إسكندر الرابع[٢] (١٢٥٤-١٢٦١) سنة ١٢٥٦ ثمَّ انقطعت المكاتبات نحو مئتي سنة لما أصاب الشرق من البلايا بغزوات المغول ثمَّ باستيلاء الدول المصريّة على الشام. وكذلك الكرسيّ الرسوليّ بقي عدَّة سنين مبتلًى بِمِحَن شتَّى لانتقال الباباوات إلى فرنسا ولانقسام الممالك المسيحيّة في طاعتها لحبرَين أعظمين لم يُعرَف أيُّهما الشرعيّ.

ثمَّ استؤنفت المخابرات بين الطائفة المارونيّة والأحبار الرومانيّين بواسطة المرسلين الفرنسيسيِّين حافظي الأراضي المقدّسة كفرا جوان وفراغريفون ثمّ

(١) أطلب مجموع البولات المارونيّة الذي نشره باللاتينيّة حضرة القسّ طوبيّا العنيسيّ (*Ballarium Maronitarum*, p. 1-9).

(٢) وفي تاريخ الدويهيّ (ص ١١١) يدعى «إسكندر السادس» وذلك غلط طبعيّ واضح.

فرا سوريانوس[٣]، وذلك على عهد أوجانيوس الرابع في كتابٍ تاريخُه سنة ١٤٣٩ إلى البطريرك يوحنًا الجاجيّ ذكره الدويهيّ في تاريخه ولم نجد صورته في مجموع البولاَّت. ثمَّ توالت البراءات الرومانيَّة إلى بطاركة الموارنة الأجلاَّء بعد أوجانيوس الرابع من خلفائه نيقولا الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥) وكالِشطوس الثالث (١٤٥٥-١٤٥٨) في السنتين ١٤٤٧ و١٤٥٥ إلى البطريرك يعقوب الحدثيّ[٤]. ثمَّ بولس الثاني (١٤٦٤-١٤٧١) سنة ١٤٦٩[٥]، وسكسطوس الرابع (١٤٧١-١٤٨٤) سنة ١٤٧٥ إلى البطريرك بطرس بن حسَّان. وهي آخر البراءات الحبريَّة في القرن الخامس عشر. أمَّا في القرن السادس عشر فتوفَّرت تلك المناشير البابويَّة فأحصى منها جامع البولاَّت المارونيَّة عشرين براءة من لاون العاشر إلى غريغوريوس الثالث عشر الذي أوَّل كلامنا عنه في مقالاتنا، وكلُّها إلى البطريركَيْن شمعون بن حسَّان ابن أخي البطريرك بطرس وخلفه (١٤٩٢-١٥٢٤) ثمَّ موسى بن سعادة العكَّاري (١٥٢٤-١٥٦٧).

على أنَّ هذه البراءات التي تدلُّ كلُّها على سبق الموارنة في خضوعهم لخلفاء هامة الرسل، لا تدور غالبًا إلاَّ على التماس درع التثبيت من الأحبار الأعظمين، وإنَّما تبيَّن رغبة الشعب المارونيّ إلى مَن يسعى في شؤونهم الروحيَّة ويصونهم من البدع المحدقة بهم لئلاَّ تخنق تلك الوردةَ العطرة أشواكُ الأضاليل. فيظهر من أجوبة الكرسيّ الرسوليّ انعطاف رؤساء الكنيسة نحو أولئك الأبناء الأحباب. فتارةً يمنحون السادة البطاركة الإنعامات الخاصَّة وتارةً يؤازرونهم بالقصَّاد الرسوليِّين للاهتمام بأمورهم وإصلاح ما لعلَّه طرأ عليهم من الخلل كما يلوح من براءة لاون العاشر بخصوص الميرون (مجموع البولاَّت ص ٤٧). وحينًا يحلّون مشاكلهم التي عرضوها عليهم في المعتقدات الدينيَّة كما ترى في براءة بولس الثاني إلى بطرس بن حسَّان حيث

---

(٣) راجع في المشرق (١٢ [١٩٠٩]: ٨) مقالتنا عن تاريخ القصادة الرسوليَّة في سورية.

(٤) وهو يدعى في مجموع البولاَّت (*Bull. Maronit.*, 17 et 18) باسم بطرس أو يعقوب بطرس لأنَّ اسم بطرس كان يعمُّ كلّ البطاركة.

(٥) كذا في مجموع البولاَّت (ص ٢٥) وهو الصواب وفي الدويهيّ «سنة ١٤٦٤».

يوضح له دستور الإيمان الكاثوليكيّ بخصوص الثالوث الأقدس وأقنوم السيّد المسيح وطبيعته ومشيئته مؤيِّدًا كلامه بآيات الإنجيل ونصوص الآباء الأقدمين (مجموع البولأت ص ٢٢). بيد أنَّ الأحبار الرومانيِّين ومثلهم البطاركة المارونيُّون كانوا يودُّون لو تكون العلاقات بين رومية ولبنان أوثق فينال الموارنة من معين الكنيسة الرومانيَّة زيادة نموّ ورقيّ، لولا أنَّ المخاطر العديدة التي تواترت في ذلك الزمان كالحروب المتوالية بين الأتراك ودول الفرنج وتجوُّل القرصان في البحر المتوسّط كانت تعوقهم عن تحقيق أمانيهم، حتّى إنَّ الذين كانوا يرسلون إلى رومية ليطلبوا للبطاركة الجدد درع الرئاسة لم يمكنهم العود إلى الشام إلاَّ بعد سنتين وأكثر. فكان يحصل بسبب هذه العوائق عدَّة أضرار تتفاقم بطول الزمان فيصعب بعد ذلك تلافيها ولا سيَّما أنَّ الموارنة كانوا يجهلون اللغة اللاتينيَّة لغة رومية الرسميَّة فيحتاجون إلى تراجمة وربَّما وقع بذلك سوء تفاهم. ومن ثمَّ كان يرى بطاركة الموارنة حاجة الطائفة إلى معلِّمين يدرّسون اللغات الأوروبيَّة وقد أرادوا سدَّ ذلك الخلل بإرسال بعض الأحداث إلى رومية ليتعلّموا هناك ثمَّ يعودون إلى وطنهم فيهذّبون أبناء جلدتهم كما صنع البطريرك شمعون الحدثي إذ أرسل سنة ١٥١٥ راهبين إلى رومية ليتعلَّما اللغة اللاتينيَّة فلم ينجحا، وكذلك البطريرك موسى العكَّاري طلب من البابا بولس الثالث ستَّة من الرهبان الفرنسيسيِّين ليعلّموا في لبنان اللغة اللاتينيَّة لبعض أحداث الموارنة فلم يتمّ مرغوبه.

الرهبانيَّة اليسوعيَّة والشرق

إلاَّ أنَّ الله في تلك الأثناء كان أرسل إلى كنيسته عضدًا جديدًا بإنشاء الرهبانيَّة اليسوعيَّة على يد شهم من أبناء الدولة الإسبانيَّة اسمه إغناطيوس دي لويلا. فهذا الرجل العظيم، إذْ كشف له الربّ بطلان المجد العالميّ، وقف نفسه لخدمة الكنيسة لا سيَّما أبناء الكنائس الشرقيَّة، ولمَّا جمع أوَّل رفقته العشرة ليسعوا معه في خلاص النفوس دعاهم إلى السفر معه إلى بلاد الشام والأراضي المقدّسة، لكنَّ حرب البنادقة مع الأتراك حالت دون رغائبهم وبقوا في إيطاليا متطوّعين في خدمة أهلها تحت رعاية رؤساء الكنيسة مترقّبين

الفرصة لإخراج نيّتهم إلى حيّز الوجود.

وما لبث الحبر الأعظم بولس الثالث أن انتدبهم إلى مساعدة الشرقيّين وردّ الضالّين منهم إلى الحظيرة البطرسيّة فأرسل أوّلًا فرنسيس كسافاريوس إلى الهند واليابان والصين فكان أوّل رسول الشرق الأقصى (١٥٤١-١٥٥٢). ثمّ عهد البابا عينه رسالة الحبشة إلى جمعيّة يسوع سنة ١٥٤٧ فدخلها المرسلون وتتابعوا فيها مدّة نحو مائتي سنة يبشّرون فيها بالإيمان الكاثوليكيّ ويبذلون في ارتداد أهلها إلى وحدة الكنيسة كلّ عزيز حتّى مات منهم كثيرون صبرًا واستشهد غيرهم ومن جملتهم أحد أبناء وطننا وهو المكرَّم المارونيّ الأب إبراهيم جرجس اليسوعيّ تلميذ مدرسة الموارنة في رومية كما سترى. ولا جرم أنّ ازدهار الكثلكة في أيّامنا بين الحبشة يُحسب كثمرة دماء أولئك الشهداء الأبطال.

ثمّ قام بعد بولس الثالث خلفه يوليوس الثالث فرأى ما كان عليه الشرق الأدنى من الحاجة إلى غيرة المرسلين ومساعدة المسيحيّين وعلم أنّ أقرب طريقة إلى ذلك إنشاء المدارس في تلك الجهات فحرَّر براءة تاريخها ٣ تمُّوز سنة ١٥٥٣ أوّلها «Cum præsertim» أعلن بموجبها أمره للرهبانيّة اليسوعيّة بأن تفتح ثلاث مدارس في الشرق، أولاها في أورشليم والثانية في القسطنطينيّة والثالثة في قبرس وذلك كما يقول الحبر الأعظم «لترميم جدران الكنائس الشرقيّة وإعادة رونقها القديم»[1]. لكنّ موانع كثيرة اعترضت لمقاصد يوليوس الثالث، أخصُّها ما في إقامة مدرسة في القدس من المخالفة لإنعامات سابقة كان الكرسيّ الرسوليّ خوّلها رهبان القدّيس فرنسيس، منها ألاّ يقيم غيرهم في الأراضي المقدَّسة.

على أنّ الله لم يسمح بوفاة القدّيس إغناطيوس إلاّ بعد أن متّع أبصاره برؤية أحد أبناء الشرق الذي كان الله أعدّه لينوب عنه في خدمة الطوائف

(١) وهذه البراءة كانت أخذتها يد الضياع فوجدها الأب هـ. لامنس في مكتبة الكونت روسّي الشهيرة في فيّنا عاصمة النمسا فنشرها في مجلّة الأبحاث (*Etudes*, 1897, janvier).

الشرقيَّة ولا سيّما الموارنة الذين استحقَّ بأن يدعى برسولهم في ذلك القرن، نريد به الأب يوحنَّا المعمدان إليانو المعروف عند الشرقيِّين بالأب جوان باطشتا. ولا بدَّ لنا قبل الخوض في موضوعنا من تعريفه وتلخيص ترجمته.

الأب يوحنّا إليانو أوّل مرسل يسوعيّ إلى الموارنة

وُلد الأب يوحنَّا إليانو سنة ١٥٣٠ في الإسكندريَّة[١] من أبوين كريمي النسب من الجنس اليهوديّ. وكان أبوه تاجرًا إسبانيًّا استوطن الصقع المصريّ واقترن بفتاة كانت ابنةً لأحد مشاهير علماء اليهود في عصره يدعى إلياس اللاويّ (Elijah Levita) الذي وُلد في نوشتات (Neustadt) سنة ١٤٦٨ وتوفِّي في البندقيَّة سنة ١٥٤٧ بعد أن اشتهر بالتعليم والتأليف حتّى لقِّب بالمتبحِّر (אליה הבחור) والنحويّ (המדקדק) واللغويّ (התשבי). قال فيه ريشار سيمون[٢]: «إلياس اللاويّ أعظم الكتَّاب المتقدين بين اليهود برَّز عليهم جميعًا في علم اللغة». وقال سكاليجر معاصره (Scaliger, *Epist. 62*)، «إلياس اللاويّ وحيد هذا العصر وسيِّد العلماء الباحثين». وقال رينان[٣]: «قد فاق إلياس اللاويّ على العلماء الملقَّبين بالكمخي وأنْسَت شهرتُه شهرتَهم لأنَّه بلَّغ الآداب العبرانيَّة والتلموديَّة أقصى درجات الرقيّ في زمانه وعنه أخذ كثيرون من النصارى علم العبرانيَّة».

وكان إلياس اللاويّ مع علمه وسعة معارفه كريم الأخلاق منزَّهًا عن التعصُّب طالبًا للعلم الصحيح ومن ثمَّ ألقى عن عاتقه كثيرًا من التقاليد الصبيانيَّة الرائجة في كتاب التلمود وبعض أسفار اليهود ولذلك أصبح صديقًا لكثير من المسيحيِّين ووكل إليه أصحاب الرتب الكنسيَّة تعليم اللغات الشرقيَّة فدرَّسها في بادوة وروميه وفي إسني من أعمال صوابيا وفي البندقيَّة حيث توفِّي[٤]. ولتقرُّبه

---

(١) أطلب دائرة المعارف اليهوديَّة (*The Jewish Encyclopedia* II, 501).

(٢) في كتاب نقد العهد العتيق (Richard Simon: *Hist. Critique* du N.T., p. 177).

(٣) في كتاب تاريخ اللغات السامية (Renan: *Hist. des langues sémitiques*, 1863, p. 174).

(٤) راجع دائرة المعارف اليهوديَّة *The Jewish Encyclopedia* VII, 46-49، ثمَّ تاريخ المؤلّفين=

من النصارى عزاه قوم من آل نحلته إلى المروق من دينه بل ذهب المؤرِّخ أَلْستِد (Alsted) إلى أنّه مات نصرانيًا، والله أعلم.

ودُعي الأب إليانو باسم جدّه إلياس ولمّا مات أبوه وهو صغير أخذه جدُّه إلياس اللاويّ وعُني بتربيته وتربية أخيه الكبير متعزّيًا بتثقيفهما عن فقده لأولاده. وإذ وجد حفيده إلياس متوقّد الذهن راغبًا في العلوم، أقبل على تعليمه آملًا أن يكون يومًا شرفًا لعائلته وفخرًا لملّته الإسرائيليّة، فتجوَّل معه في كثير من البلاد كإيطاليا وألمانيا فتعلَّم الشابّ عدَّة لغات كالإسبانيَّة والطليانيَّة واللاتينيَّة والألمانيَّة ولا سيّما العبرانيَّة التي برع فيها حتّى استظهر الكتاب المقدَّس في أصله العبرانيّ. وقد سهَّلت له معرفته للغة أجداده درس اللغتين السريانيَّة والعربيَّة حتّى تمكّن كما سنرى من قراءة كتب العرب والسريان والأقباط دون صعوبة.

ولمّا كانت سنة ١٥٥٧ عاد إلياس اللاويّ إلى البندقيَّة فاستأذنه حفيده في الذهاب إلى مصر ليرى أقاربه ثمَّ يزور القدس الشريف وبعض البلاد الشرقيَّة فسمح له جدُّه بذلك وعاد الشابّ إلى أهله وسكن بينهم سنتين فدرس اللغة العربيَّة وتكلَّم بها بين مواطنيه ثمَّ طاف بلاد فلسطين وعاين هناك زوَّار النصارى للقدس الشريف الذين كانوا يقدمون من سائر أقطار العالم ليعفّروا جباههم في ثرى الأراضي المقدّسة بحياة وموت يسوع الناصريّ. فكان إلياس يعدُّ فعلهم هذا حمقًا فلا يرى في يسوع إلاَّ مسيحًا دجّالًا.

وبينما هو يتجوَّل هناك إذ وردت عليه رسائل من أهله ومن المجمع الإسرائيليّ في مصر تعلمه بتنصُّر أخيه البكر في البندقيّة وتحضُّه على السير إلى تلك المدينة ليردَّه إلى دين آبائه. فامتعض الشابّ إلياس لهذا الخبر وأبحر إلى إيطاليا على طريق القسطنطينيَّة فاجتمع بأحد أعمامه وهو الطبيب سلمون الأشكنازيّ[٥]. ثمَّ ركب السفينة من الآستانة إلى البندقيَّة.

=العبرانيّين (Rossi: *Dizion. Stor. degli Autori Ebrei*, I, 108).

(٥) راجع تاريخ الدولة العثمانيَّة لهامّر (B^on de Hammer: *Hist. Ottom.* II. 279). ونظنّ أنَّ أصحاب دائرة المعارف اليهوديَّة (*The Jewish Encycl.*, II, 500) نسبوا الأب إليانو إلى سَلْمون هذا فدعوه (Giovanni Baptista Salomo Romano Eliano).

فلمّا رأى أخاه حاول أن يقنعه بكلّ ما لديه من الحجج ببطلان النصرانيّة لكنَّ الصائد أصبح مصيدًا بعد قليل لأنَّ ڤيتّوريو (وهو اسم الأخ بعد معموديَّته) زيَّف كلّ حججه وأثبت له بالأدلّة النيّرة صحّة الدين النصرانيّ. وإذ كان إلياس مستقيم النيَّة يطلب الحقيقة بلا مكابرة، عمل فيه كلام شقيقه وأخذ يدرس العقائد النصرانيَّة ويقابلها بنصوص الأسفار المقدّسة ونبوَّات الأنبياء.
وكان وقتئذ رئيسًا على دير البندقيَّة أحدُ مشاهير الرهبان اليسوعيّين وهو يعظ في كنائسها الكبرى فيتقاطر الناس لاستماع كلامه اسمه الأب أندراوس فروزيوس من تلامذة القدّيس إغناطيوس، وكان عالمًا باللغة العبرانيَّة فأخذ ڤيتّوريو أخاه إلياس إلى الرئيس المذكور الذي رحَّب به وطيَّب قلبه وقد ذكر إلياس عن ذاته أنَّه لقِي به ملاكًا لا إنسانًا لما وجده فيه من التقى والعفاف واللطف، فعرض عليه كلّ ما كان يعنُّ له من المشاكل الدينيَّة فكان الرئيس يحلُّها بما لا يدع له مجالًا للاعتراض. وتردّد عليه إلياس عدَّة أسابيع حتّى حصحص له نور الحقّ بكلّ جلاء وزهق الباطل.

على أنَّ إلياس لم يشأ أن يتنصَّر لخوفه من شرّ اليهود البنادقة ومن سخط أهله ومكايد الربَّانيّين، لكنَّ ضميره كان يبكّته على تأجيل معموديَّته وعرف أسقف المدينة بحالته فسعى بأن يدخله في دير الآباء اليسوعيّين وكتب الأب فروزيوس إلى القدّيس إغناطيوس فسمح بأن يُقبل إلياس في الدير بصفة ضيف. وبعد شهرين قضاهما في الصلاة والدرس والمناظرة مع الأب فروزيوس طلب بإلحاح أن يُصْبَغ بماء المعموديَّة فحظي بمرغوبه يوم عيد القدّيس متّى الرسول (٢١ أيلول سنة ١٥٥١) بحضور جمع غفير من أشراف البندقيَّة يتقدَّمهم أخوه ڤيتّوريو. فأثَّرت هذه الحفلة في قلب إلياس أيَّ تأثير فكان يقول إنَّ أبواب السماء فُتحت له وإنَّه يشعر بشيء من سعادة الأرواح السماويَّة. ولاضطرام غيرته كان يريد أن يذهب إلى مجمع الإسرائيليّين في البندقيَّة ويبشّرهم بالمسيح ويدحض أكاذيبهم لولا أنَّ الأب فروزيوس أشار عليه أن يعمل بالتؤدة والفطنة. وقد أبدل إلياس اسمه يوم معموديَّته فتسمَّى مذ ذاك باسم يوحنّا المعمدان (جوان باطشتا) وأشار إلى أصله القديم بلقب إليانو

ونوَّه أيضًا بتنصّره بنسبته نفسه إلى رومية فدُعي رومانو.

وكانت تُقرأ وقتئذٍ على مائدة الرهبان اليسوعيّين رسائل المرسلين في الهند واليابان والحبشة فكان يسمعها الشابّ المتنصّر فتثير في قلبه الرغبة في التبشير باسم المسيح في أصقاع الشرق وذلك ما دعاه إلى أن يطلب الانضمام إلى الرهبانيَّة اليسوعيَّة بعد قليل. فعاد الأب فروزيوس وكتب إلى القدّيس إغناطيوس ليستطلع رأيه في ذلك. وممَّا قاله في رسالته المحفوظة إلى يومنا إنَّ الشابّ المتنصّر مجمَّل بصفات فريدة وبارع في العلوم ويعرف ما خلا العبرانيَّة اللغات الطليانيَّة والإسبانيَّة والألمانيَّة والعربيَّة والتركيَّة وإنَّه سكن مدَّة في القاهرة ورحل إلى أورشليم. فأجابه القدّيس بأن ينظّم الشابّ في سلك الرهبان بعد امتحان دعوته وثباته. ففعل الأب فروزيوس ولمَّا تحقَّق أنَّ دعوته من الله لم يمازجها شيء من الغايات البشريَّة ضمَّه إلى رهبانه[٦].

فانضوى جوان باطشتا تحت راية إغناطيوس بفرح عظيم وباشر امتحانات الطالبين بكلّ غيرة ليطبع في قلبه الفضائل الرهبانيَّة تحت نظارة رئيسه الأب فروزيوس الذي أطرأه بكتاباته مؤمّلًا أنَّه سيصير يومًا عاملًا نشيطًا في كرم الربّ. ومن آثار فضله في تلك المدَّة سعيه في إنارة اليهود الذين عرفهم سابقًا وكان السيّد ليبومانو أسقف المدينة يتَّخذه رفيقًا في تبشيره للإسرائيليّين فردَّ بعضهم ونصَّرهم.

وفي ١٧ أيلول من السنة ١٥٥٢ استدعى القدّيس إغناطيوس إلى رومية الأب فروزيوس ليجعله رئيسًا على المدرسة الألمانيّة المنشأة حديثًا، فسافر واستصحب معه يوحنَّا إليانو ليدرس في رومية العلوم الفلسفيَّة واللاهوتيَّة فانكبَّ عليها عدَّة سنوات وفي نهايتها رُقّي إلى درجة الكهنوت نحو السنة ١٥٦٠، وكان مدَّة دروسه في رومية لم يهمل أبناء جلدته الموسويّين بل كان يتردَّد إليهم ويعود مرضاهم ويحسن إلى المحتاجين منهم وقد أسعده الحظّ على ردّ قوم منهم إلى الإيمان المستقيم.

---

(٦) إنَّ بين قوانين الرهبانيَّة اليسوعيَّة بندًا يمنع دخول اليهود المتنصّرين بين أبنائها. إلاَّ أنَّ هذا القانون وضعته الرهبانيَّة بعد وفاة القدّيس إغناطيوس.

وكان أخوه ڤيتّوريو إليانو دخل أيضًا في سلك الكهنة العلمانيّين وصار قانونيًّا وعهدت إليه السلطة الكنسيَّة بفحص الكتب التي تُطبع في اللغة العبرانيَّة في كريمونا والبندقيَّة سنة ١٥٦٧ فرخَّص بنشر كتابين عبرانيّين يدعى أحدهما كتاب الزُهَر والآخر كتاب الطور. وبهمَّته جمع ديوان التفتيش الرومانيّ نُسَخ التلمود وأحرقها لمضامينها الباطلة في ٧ نيسان سنة ١٥٥٩ فنقم عليه اليهود بسبب ذلك.

أمّا الأب يوحنّا فبعد كهنوته أخذ يستعدّ لخدمة النفوس وعهد إليه رؤساؤه تدريس اللغات الشرقيَّة في المدرسة الرومانيَّة، لكنَّ الكرسيّ الرسوليّ ما لبث أن استدعاه لخدمة الكنيسة فأرسله برفقة الأب كرستوفور رودريغس إلى بطريرك الأقباط جبرائيل السابع (١٥٢٦-١٥٦٩) الذي كان بلَّغ الحبرَ الأعظم بنيَّته في الخضوع لسلطانه الشرعيّ. فسافر الأبوان في ٢ تمّوز سنة ١٥٦١ ولم يعودا إلى رومية إلاّ بعد سنتين. وقد كابد كلاهما من المشاقّ ما يطول شرحه وكاد الأب يوحنّا إليانو يذهب ضحيَّة بعض يهود مصر الذين سعوا بإغراء أمّه أن يقتلوه بحكم الوالي المسلم فلم ينجُ من أيديهم إلاّ بعد شقّ النفس بوساطة قنصل البندقيَّة وقوم من التجّار الذين دفعوا لخلاصه مبالغ طائلة وأركبوه سفينة سارت به إلى قبرس وكادت تغرق، فنجا الركّاب بعد نذرٍ نذره الأب إليانو ووعد بعض الركّاب أن يتنصَّروا على يده إذا وصلوا إلى قبرس سالمين فرحمهم الله وأنقذهم من الموت واعتمد غير المؤمنين وبعد قليل أبحر الأب إليانو إلى إيطاليا[٧].

ومن السنة ١٥٦٣ إلى ١٥٧٧ عهد الرؤساء إلى الأب إليانو بتدريس اللغتين العبرانيَّة والعربيَّة في المدرسة الرومانيَّة مع خدمة النفوس في عاصمة الكثلكة بالوعظ وتوزيع الأسرار، وعُني خصوصًا باليهود المقيمين هناك فأنار بعضهم بنور الإيمان، من جملتهم أحد مشاهير ملَّته إلياس كركوسي الذي

(٧) ويغنينا عن رواية أعمال الأب إليانو ورفيقه عند الأقباط ما نشره في ذلك المرحوم الأب أنطون ربّاط في تأليفه الآثار الكتابيَّة في الكنائس الشرقيَّة وهو ينيف على مئة صفحة (ج١ ص ٢٠٨-٢١٤).

عُرف بعد ذلك باسم ميشال غسلاري (Michel Ghisleri) فسعى الأب إليانو مع الكردينال ألكسندريني الذي صار حبرًا أعظم باسم بيّوس الخامس بتنصير هذا الرجل بعد فكّ مشكلاته وقد حصل لليسوعيّ بسبب ذلك سمعة واسعة وكان أعيان رومية يُسَرُّون بمصادقته.

وفي تلك الأثناء عزم البابا غريغوريوس الثالث عشر على أن يجدّد العلاقات الوديّة بين الكرسيّ الرسوليّ والموارنة، فأراد أن يوجّه إلى لبنان قاصدًا رسوليًّا يوقفه على كلّ أحوال الطائفة المارونيّة وحاجاتها فلم يرَ لذلك رجلًا أجدر بهذه المهمّة من الأب يوحنّا إليانو فاختاره لهذه السفارة وعزّزه بالتعليمات الضافية لهذا الشأن وكذا فعل الكردينال كرافًا محامي الطائفة المارونيّة، وعيَّن له رئيس الرهبانيّة اليسوعيّة كرفيق رحلته الأب توما راجيو وآزرهما بالإرشادات ليحسنا القيام في عملهما بما أمكنهما من الحكمة.

فاستعدّ الأب إليانو لتلك المهمّة بما استطاع من النشاط. وكانت سفارته السابقة إلى بطريرك الأقباط قد حنّكته وأوقفته على أحوال النصارى الشرقيّين. وكان بعد رجوعه من تلك الرحلة لم يزل يكاتب معارفه في الشرق ويتردَّد على مَن يسكن رومية أو يزورها من أهل الشرق فيعدُّونه كأحد مواطنيهم ويلتجئون إليه في حاجتهم.

وكان أيضًا قد زاد تضلُّعه باللغة العربيّة إذ كان رؤساء الرهبانيّة اليسوعيّة العامُّون كالأب جاك لَيْنِس خلف القدّيس إغناطيوس (١٥٥٦-١٥٦٦) ثمَّ القدّيس فرنسيس دي بورجيا (١٥٦٦-١٥٧٢) ثمَّ إفَرَرْد مركوريان (١٥٧٣-١٥٨٠) انتدبوه إلى تدريس العبرانيّة والعربيّة في المدرسة الرومانيّة اليسوعيّة التي كان أنشأها القدّيس إغناطيوس دي لويلا سنة ١٥٥١، فأصبحت بعد عشر سنوات سيّدة مدارس رومية يناهز عدد تلامذتها الألف عدًّا كانوا يقصدونها من جميع ممالك أوروبّا، وكان يعلّم فيها وقتئذٍ أماثل الرجال كبلّرمينوس الذائع الشهرة وملدونات العلاَّمة المفسّر للكتب المقدّسة والكردينال طوليت اللاهوتيّ وپرپنيان البيانيّ وكلاڤيوس الفلكيّ، فبقي الأب إليانو بينهم معلّمًا للغات الشرقيّة يكاد يجاريهم شهرةً وعلمًا، من السنة ١٥٦٥ إلى ١٥٧٧.

ومن آثاره في تلك الحقبة بعض تآليف عرَّبها أو نشرها لإفادة نصارى الشرق يعدُّونها اليوم من أعزّ المآثر الطبعيَّة إذ لم يسبقها في تاريخ الطباعة العربيَّة سوى كتابَيْن كتاب **صلاة السواعي** المطبوع في فانو من أعمال إيطاليا سنة ١٥١٤ بأمر البابا لاون العاشر وكتاب **الأصول العربيَّة في اللغة اللاتينيَّة** لغليوم بوستل في باريس سنة ١٥٣٨. فلمَّا أُنشئت المدرسة الرومانيَّة وترتَّب فيها درس اللغة العربيَّة سعى اليسوعيّون في إنشاء مطبعة صغيرة لنشر بعض نصوص عربيَّة استخرجها أو عُني بطبعها الأب يوحنّا إليانو، أوَّلها **اعتقاد الأمانة الأرثوذكسيَّة** كما تعلّمها كنيسة رومية طُبع بأمر قداسة البابا بيّوس الخامس سنة ١٥٦٦[٨]. والكتاب على قطع الثمن في ٣٣ صفحة وفي كلّ صفحة ١٨ سطرًا. والثاني كتاب لهداية المسلمين طبع بلا تاريخ في المطبعة الرومانيَّة بالحرف ذاته، هذا عنوانه **هذا مصاحبت (هذه مصاحبة) روحانيَّة بين العالمين واسم الواحد منهما شيخ سينان (سنان) واسم الآخر أحمد العالم التي كانت في رجوعهما من الكعبة. نافعةً لكلّ مسلم ومسلمةً** وهو كتاب منه في المكاتب الأوروبيَّة عدَّة نسخ مخطوطة تاريخ تأليفه سنة ٩٤٠هـ (١٥٣٣م) والمرجَّح أنَّ الأب إليانو كان وجد هذا الكتاب في رحلته إلى مصر فجاء به إلى رومية ونشره. وطبع أيضًا قوانين المجمع التريدنتينيّ بعد تعريبها. كما أنَّه نقل إلى اللاتينيَّة الثمانين قانونًا عربيًّا الملحقة بقوانين المجمع النيقويّ وكان استنسخها في مصر إذ رأى الأقباط يستندون إليها ويعدُّونها كقوانين شرعيَّة ثابتة. فكان الأب إليانو أوَّل مَن عرَّفها علماء أوروبّا فجرت بسببها أبحاث واسعة لتأييد صحَّتها أو نفيها، وكان استعان بنقل هذه القوانين بأسقف الشام المارونيّ جرجس البسلوقيتيّ الذي كان قدم رومية سنة ١٥٧٧ مع الخوري إقليميس الأهدنيّ ليطلبا من الكرسيّ الرسوليّ درع الرئاسة للبطريرك ميخائيل الرزّي.

---

(٨) والعنوان هناك بالعربيَّة واللاتينيَّة. وهذا النصُّ اللاتينيّ كما ورد في المكتبة العربيَّة لشنورر:
Fidei Orthodoxæ brevis et explicata confessio quam Sacrosancta et Romana Ecclesia docet... Romæ, jussu Sanctissimi D. N. Pii V in Collegio Societatis Jesu, anno MDLXVI (Schnurrer: Bibl. Arabica., p. 236).

سفارة الأب إليانو الأولى إلى لبنان (١٥٧٨-١٥٧٩)

فكانت هذه الأشغال قد أهّلت الأب يوحنّا للاختلاط بالشرقيّين وللوقوف على حقيقة أمورهم. فلمّا بلغه أمر الكرسيّ الرسوليّ بأن يتفقّد شؤون الموارنة في لبنان، قَبِل ذلك بكلّ خضوع واستصحب التعليمات التي أعطاها الكردينال كرافّا محامي الموارنة له ولرفيقه الأب توما راجيو (T. Reggio)[١] باسم الحبر الأعظم ليُحسنا التصرُّف في مهمَّتهما، وقد فصّل الكردينال تلك التعليمات في ٢٣ بندًا تُقدَّم إلى القاصدَين بأن يَجريا عليها ويتحقَّقاها بالعيان ويفيدا عنها الكرسيّ الرسوليّ لتكون رومية على العلم التامّ بخصوص معتقدات الموارنة وطقوسهم في تقدمة الأسرار وتوزيعها وآدابهم وكتبهم الدينيّة لئلاّ يكون اندسّ إليها شيء من الأضاليل جهلًا أو بمكر بعض المبتدعين[٢]. وهذه التعليمات تاريخها ٣ آذار سنة ١٥٧٨ وهي في اللغة الإيطاليّة نشرها المرحوم الأب أنطون ربّاط عن نسخة مصونة في سجلاّت الرهبانيّة اليسوعيّة.

وكان سفر الأبوين يوحنّا إليانو وتوما راجيو من رومية في أواخر آذار من السنة ١٥٧٨ مع أخ مساعد يدعى ماريو أماتو (Mario Amato) وكانوا في رفقة الأسقف جرجس والخوري إقليميس المذكورين اللذين اشترطوا عليهما بعض الشروط لقبول درع الرئاسة وإنّما نالا من فضل رومية هدايا ثمينة للسيّد البطريرك مع رسالة من قداسة البابا لغبطته. وركبوا البحر في البندقيّة على مركب شراعيّ للبنادقة في تاريخ ١٦ نيسان وكان سفرهم ميمونًا فقطعوا البحر الأدرياتيك ووصلوا في غرّة شهر أيّار إلى جزيرة كورفو حيث استقامت السفينة عشرين يومًا فأقلعت منها في ٢٢ أيّار إلى زانتي إحدى جزائر اليونان

---

(١) ورد اسمه مصحّفًا في تاريخ الطائفة المارونيّة (للدويهي) (ص ٤٤٢) حيث دُعي توما راديوس.

(٢) قال العلاّمة الدويهيّ (ص ٤٤٢ من تاريخ (الطائفة المارونيّة) عن القاصدين الرسوليين: «وأمرهما (البابا) بفحص ديانة الموارنة والبحث عن صدق طاعتهم وكتبهم ومشاهدة رتبهم وعوائدهم وكهنوتهم وعبادتهم وكان الاعتماد على القسّ جوان باطيشتا لأنّه كان رجلًا ذا مكارم وفضل وحكمة خبيرًا بالعلوم الإلهيّة والطبيعيّة ماهرًا في اللغة الروميّة واليونانيّة عارفًا بالعربيّة والكرشونيّة».

ومنها سارت إلى قبرص.

وكانت قبرس لم تزل مثخنةً بجراح الفتح التركيّ فإنَّ السلطان سليم الثاني كان عهد إلى مصطفى باشا بحصارها وضربها فظفر بها وأخذها من أهل البندقيَّة، ورغمًا عن وعده بالأمان قتل من أهلها في ألماغوصة نحو خمسين ألفًا بينهم نحو ١٨,٠٠٠ مارونيّ على ما روى الدويهيّ في تاريخه (ص ١٧٣) ونحو ٣٠,٠٠٠ على رواية البطريرك بولس مسعد في **الدرّ المنظوم** (ص ١٦٥).

فبعد ساعات قليلة أرست السفينة عند قبرس ثمَّ توجَّهت إلى طرابلس في أواسط حزيران ١٥٧٨. وكانت طرابلس إذ ذاك الثغر البحريّ المهمّ في سواحل الشام، عنده كانت ترسو السفن الأوروبيَّة القادمة من البندقيَّة ومن مرسيليا وكان يقيم فيها قنصلان من دولتَي فرنسا والبندقيَّة فتحفَّى كلاهما بالمرسلين إذ وقفا على رسائل خاصَّة توصي بهم فاستراح الأب إليانو ورفيقاه مدَّةً هناك.

وفي تلك الأثناء كان السيّد جرجس البسلوقيتيّ والخوري إقليميس الأهدنيّ صعدا إلى قنّوبين حيث كان المقام البطريركيّ وأخبرا عمدة الطائفة بما لقياه من الحفاوة لدى الكرسيّ الرسوليّ وسلّما السيّد البطريرك الهدايا الثمينة التي تكرَّم بها قداسته والكردينال كرافّا على الطائفة فوقع ذلك في قلوب الجميع أحسن وقع فاستعدُّوا لاستقبال الوفد البابويّ بما أمكنهم من العزّ والإكرام.

نظر في أحوال الشام عند قدوم الأب إليانو إلى لبنان

ويحسن بنا أن نذكر بالإيجاز شيئًا عن حالة القطر السوريّ عند وصول الآباء اليسوعيّين إليه أوّل مرَّة. كانت سورية في بدء القرن السادس عشر داخلة في ضمن الدولة المصريَّة فيحكم عليها الحكّام باسم مماليك مصر. لكنَّ السلطان سليمًا الأوَّل ملك الأتراك، بعد انتصاره من إسماعيل شاه ملك العجم، زحف على بلاد الشام فاستولى عليها إثر كسره للجيوش المصريَّة في

مرج دابق شماليّ حلب سنة ١٥١٦. ثمَّ أخذ السلطان بتنظيم سورية فجعلها أقسامًا أو ولايات كان يعيّن عمّالها ليسوسوا أهلها. وتبع خلفاؤه خطَّته إلى عهدنا. على أنَّ بُعد ولايات سورية من الحاضرة كان يثير في قلوب الولاة روح الاستبداد فكانوا يتصرَّفون بالرعاة تصرُّف السيّد بالعبد وربَّما حارب بعضهم بعضًا فجعلوا بلاد الشام دار حرب وقتال.

وقد شعر لبنان بهذه الفوضى وقاسى أهله شدائد لا يزالون يذكرونها بالأسف والكآبة. لكنَّ الجبل لم يخضع رأسًا لولاة الباب العالي وإنَّما كان يحكم عليه أمراء مسلمون أو دروز فيخفّفون نوعًا على عاتق أهله نير السلطة المطلقة. فكان الحكم في جنوبيّه للدروز من بيت معن إذ نصَّب السلطان سليم على جنوبيّ لبنان الأمير فخر الدين الذي كان أنجده في حربه لدولة المماليك المصريّين، فحكم من السنة ١٥١٦ إلى ١٥٤٤ حكمًا عادلًا فأحبَّه اللبنانيّون وجرى على خطَّته ابنه الأمير قرقماز (١٥٤٤-١٥٨٤) وحفيده فخر الدين الثاني المعروف بالكبير (١٥٨٤-١٦٣٥). وفي عهد هذين الأخيرين قدم اليسوعيّون الأوَّلون إلى لبنان كقصَّاد الحبر الأعظم. وكان تحت سيطرة بني معن أمراء غيرهم كبني تنوخ الذين حكموا زمنًا طويلًا معاملة الشوف وجِهات وادي التيم وكان نجمهم قد كاد يأفل، وكبني شهاب الذين خلفوا بني معن فضبطوا بعدهم أزِمَّة الأمر.

أمّا شماليّ لبنان من حدود نهر الكلب إلى جهات حمص وحماة فكان الحكم فيه لبني عسّاف من عنصر التركمان، بسطوا عليه سيطرتهم إلى السنة ١٥٩٠ التي فيها قُتل أميرهم الأكبر محمَّد عسّاف بمكيدة يوسف باشا سَيفا الذي عضدته الدولة فصار التدبير إليه وإلى ذريّته من بني سيفا الأكراد واستولوا على المقاطعات التي كانت لبني عسّاف من نهر الكلب إلى عرقا وجعلوا مركز ولايتهم في غزير.

وكان معظم الطائفة المارونيَّة في ذاك القسم الشماليّ من لبنان يقطنون سواحله من جونية إلى شماليّ طرابلس ومنعطفاته الشرقيَّة وأواسطه إلى مشارفه لا سيّما مقاطعات الزاوية والجبَّة والضنيَّة ونواحي عكّار، ويجعل

عدَدهم كتبةُ ذاك الجيل أقلّ من مائة ألف وكان لهم مقدَّمون من دينهم يحكمون عليهم باسم الدولة ويجبون الجبايات المفروضة عليهم كرعاياها.

وممَّن أخذوا يصيبون بعض الشهرة في ذلك العهد مشايخ بيت حُبَيش وبيت الخازن، يُعزى أصل الأوَّلين إلى حُبيش بن موسى وسيأتي ذكر ابنه أبي منصور يوسف في أخبار القصّاد اليسوعيّين. ويُنسَب الآخرون إلى الشدياق سركيس الخازن الذي توفّي سنة ١٥٧٠ قبل مجيء اليسوعيّين بثماني سنوات ولعلَّه أوَّل مَن سكن كسروان من النصارى، انتقل إلى تلك المقاطعة واثقًا بالعدل الذي كان نشره الأمير منصور العسّافيّ.

أمّا بطريرك الطائفة المارونيّة الأنطاكيّ فكان مركزه في دير سيّدة قنّوبين شرقيّ طرابلس في وادٍ عميق بين جبال عالية صعبة المرتقى يُعرف بوادي قاديشا. والدير في أعماقه بين الصخور والأغوار كان قسم منه منقورًا في الصخر الأصمّ يرقّون عهده إلى أوائل القرن الخامس للمسيح إذ تنسَّك هناك قوم من الحبساء[١]. وكنيسته على اسم السيّدة قديمة العهد وهي على شبه مغارة كلّها منقورة في الصخر. وهناك قبور بعض بطاركة الطائفة. وكان أوَّل مَن سكن هذا الدير البطريرك يوحنّا الجاجيّ انتقل إليه من دير ميفوق فاحتلَّه إلى وفاته (+ ١٤٤٥) وسكنه البطاركة من بعده نيّفًا ومائتي سنة.

أمّا البطريرك الذي كان جالسًا وقتئذٍ على الكرسيّ المارونيّ الأنطاكيّ فكان اسمه ميخائيل الرزّيّ وكان قبل ارتقائه حبيسًا فلمّا مات البطريرك موسى العكّاريّ (١٥٢٤-١٥٦٧) عُهدت إليه رئاسة طائفته وإليه أوفد الكرسيّ الرسوليّ الأبوَين يوحنّا إليانو وتوما راجيو.

فبعد أن قضى المرسلان أيّامًا قليلة في طرابلس واستطلعا أحوال البلاد لدى القنصلَين تأهّبا لمواجهة السيّد البطريرك فصعدا إلى قنُّوبين. وقد أخبر الأب إليانو في رسائله إلى الكردينال كرافًا وإلى رؤسائه أنَّ البطريرك ميخائيل

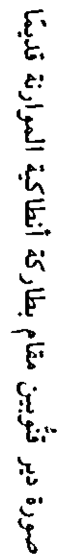
(١) راجع ما كتبه حضرة الأب هـ. لامنس عن هذا الدير وأصله في كتاب تسريح الأبصار (ج١ ص ١١١).

لمّا بلغه خبر مجيء المرسلين خرج مع إكليروس طائفته وجمهور الشعب إلى ملاقاتهما فرحَّب بهما وقدَّم له الأبوان آيات الإكرام والتجلّة فشمل الفرح قلوب كلّ الحضور فكان ذلك اليوم كعيد بهيج توثّقت فيه روابط الحبّ بين الكنيسة الرومانيّة وبين بني مارون.

ولمّا جمعهم النادي البطريركيّ جعل البطريرك ميخائيل يشكر الحبر الأعظم على انعطافه الأبويّ نحو الموارنة ويثني على قداسته وعلى الكردينال كرافّا مطريًا ما وهباه من الألطاف والهدايا الثمينة التي أتى بها المطران جرجس.

ثمَّ تقدَّم الأب إليانو ووضع بين يدي السيّد البطريرك البراءة التي وجَّهها إليه قداسة البابا غريغوريوس الثالث عشر فأخذها وجعلها على رأسه إجلالًا وألحّ على الأب أن يعرّبها له ليفهم مضمونها وأبدى أسفه على عدم وجود تراجمة يمكنهم أن يوقفوه على محتويات البراءات المرسلة إليه. فأجاب الأب يوحنّا من وقته إلى طلبة السيّد البطريرك وفسَّر له البراءات الرسوليّة التي أتى بها المطران جرجس ورفيقه الخوري إقليميس وهي التي أثبتها القسّ طوبيّا العنيسيّ في مجموعة البولاّت المارونيّة (*Bullarium Maronitarum, p. 70-72*) وتاريخها ١٧ آذار من السنة ١٥٧٧ أعني قبل تعيين الأبوَيْن اليسوعيَّين لسفارتهما ببضعة أشهر.

وفي هذه البراءة يشكر الحبر الأعظم غبطة البطريرك على ما صرَّح به من إيمان الموارنة وتشبّثهم بالكرسيّ الرسوليّ في كتابه المرسل على يد المطران جرجس والخوري إقليميس ويؤكّد له أنّه يجعل الطائفة المارونيّة في حمى الكنيسة الرومانيّة والقدّيسين الرسولين بطرس وبولس ثمَّ يحرّض السيّد البطريرك على القيام بالأوامر التي أرسلها الأحبار الرومانيّون إينوكنت الثالث وأوجانيوس الرابع ولاون العاشر إلى أسلافه ولا سيّما بخصوص صلاة التقديس المثلَّث (Trisagion) وتكريس الميرون ورتبة سرّ التثبيت ومناولة الأطفال قبل بلوغهم رشدهم والزواج بين الأقارب. فبخصوص التقديس المثلَّث يحتّم الحبر الأعظم أن يُحذف من آخر هذه الصلاة ذكر الصلب كما



صورة دير قنّوبين مقام بطاركة أنطاكية الموارنة قديمًا

كان يفعل بطرس القصّار لئلاً يُظَن أنَّ الصلب وقع على الجوهر الإلهيّ المثلَّث الأقانيم. وبخصوص تكريس الميرون يريد الحبر الأعظم كما أمر خلفاؤه لاحقًا أن يُصطنع الميرون من الزيت والبلسم فقط ولا يخلطوه بموادّ أخرى كما جرت العادة[٢]. وكذلك سرّ التثبيت يحتّم الحبر الأعظم بأن يمنحه الأساقفة وحدهم ويُفرز عن ميرون سرّ العماد. أمّا الزواج فيعيّن البابا درجات القرابة التي لا يجوز فيها الاقتران لطالبي الزواج.

ثمَّ قدَّم الأب يوحنّا إليانو لغبطة البطريرك رسالتين أخريين الواحدة من يد قداسة البابا غريغوريوس الثالث عشر تاريخها ١٩ شباط ١٥٧٨ والأخرى من الكردينال كرافًا. ففي الأولى[٣] يذكر الحبر الأعظم رسالته السابق ذكرها ويثبتها ثمَّ يُعلم السيِّد البطريرك بأنَّه يوفد الأبوَيْن يوحنّا إليانو وتوما راجيو ليبلغا غبطته نيّات الحبر الرومانيّ ويوصيه بهما ويثني على فضلهما. أمّا رسالة الكردينال[٤] فكانت تتضمَّن عبارات الولاء والوداد لغبطته ويبيِّن له سبب تأخُّر إرسال درع الرئاسة على يد رئيس الأراضي المقدّسة بسبب ما جرى من الحروب ثمَّ يحضّ غبطته على أن يرسل إلى الحبر الأعظم كتابًا جديدًا يوقّعه الأساقفة ووجوه الطائفة وينفذه إليه هو الكردينال فيعرضه على قداسته فيصير تثبيت البطريرك قانونيًّا. وممّا قاله الكردينال كرافًا في تلك الرسالة إنَّ البابا يرغب في أن يرسل البطريرك إلى رومية ستَّة أولاد من الموارنة ليتعلّموا هناك ثمَّ يعودوا إلى وطنهم، وكذلك يشكر غبطته على أهدائه للحبر الأعظم أخشاب الأرز اللبنانيّ التي سُرَّ بها سرورًا عظيمًا.

وفي هذا الكتاب نفسه يشير الكردينال إلى بعض رهبان وأساقفة الطائفة

---

(٢) قد علّق المرحوم رشيد الشرتونيّ حاشيةً على كتاب سلسلة بطاركة الطائفة المارونيّة للدويهيّ الذي نشره في أعداد السنة الأولى من المشرق ثمَّ طبعه على حدة (ص ١٤) يؤخذ منها سبب تأخُّر الموارنة عن الإذعان لأمر الباباوات بهذا الصدد.

(٣) تجد هذه الرسالة في مجموع البولاّت المارونيّة (Anaissi, *BM*, 73-74) وقد تصحَّف هناك اسم الأب راجيو فدعاه (Thomam Beguiml) وفي تاريخ الدويهيّ (ص ٤٤٢) دُعي راديوس وهو تصحيف أيضًا.

(٤) وهي موجودة بين سجلاّت الرهبانيّة اليسوعيّة في رومية.

الذين كان السيِّد البطريرك تشكّى إلى الكرسيّ الرسوليّ من سوء تصرُّفهم وتسقيفهم غير القانونيّ فيقول لغبطته بأنَّه يجب ضربهم بالحرم إن لم يرعووا ويتوبوا[٥].

فسُرَّ البطريرك من الوقوف على مضامين تلك الرسالات ولا سيّما البراءة البابويَّة فصرخ عند سماعها: «ليحيَ الحبر الأعظم الذي يخال لي أنّي أراه وأسمع صوته من خلال هذه البراءة» ثمَّ صرَّح برغبته في الإذعان إلى كافّة أوامر الكرسيّ الرسوليّ وأبدى للأبوَيْن كلّ شارات الإكرام ورحَّب خصوصًا بالأب إليانو لمعرفته باللغة العربيَّة تمامًا ولقراءته الكتابة الكرشونيَّة وفهمه السريانيَّة[٦].

وما لبث القاصدان أن تفرَّغا لما كان عهد إليهما الأب الأقدس أعني البحث المدقِّق عن أحوال الموارنة وإيمانهم وكتبهم وطقوسهم وتصرّفهم في توزيع الأسرار فقضيا في تلك المهمَّة اثني عشر يومًا. لكنّهما رأيا بعد قليل أنَّ ذلك الفحص يحتاج إلى معلومات لا يمكن الحصول عليها إلاَّ بعد بضعة أسابيع فاضطرَّا إلى أن ينتظراها ريثما تتهيَّأ ليواصل المرسلان عملهما.

فأحبَّ الأب إليانو ورفيقاه الأب راجيو والأخ أماتو أن يقدّسوا تلك الفسحة بزيارة الأراضي المقدّسة ليستمطروا نعمه تعالى على مشروعهم وبعد اتّفاقهم مع غبطة البطريرك أبحروا في أواخر تمّوز من طرابلس إلى يافا. فكان وصولهم إلى القدس الشريف في الليلة المسفرة عن صباح العاشر من آب ١٥٧٨ فزاروا تلك الأماكن التي قدَّسها ابن الله بحياته وموته بكلّ خشوع وتُقى وكان الأب يوحنّا أحسنَ دليل لرفيقيه بعد مجيئه السابق إلى أورشليم إذ كان يهوديّ النحلة.

صرف الزوّار شهرًا في تلك الرحلة القدسيَّة ساعين طاقتهم في التبرُّك بآثار

---

(٥) تجد تفاصيل أخبار هؤلاء العصاة في تاريخ الطائفة للدويهيّ (ص ١٧٥).

(٦) راجع تاريخ الرهبانيَّة اليسوعيَّة للمؤرِّخ المدقِّق الأب سكّيني: F. Sacchini *Hist. Societatis Jesu*, Pars 4ª, L, VIII.

السيِّد المسيح على الأرض. ثمَّ أقفلوا راجعين إلى لبنان فرجع الأب يوحنّا باطشتا بحرًا من يافا إلى طرابلس أمّا رفيقاه فعادا إلى طرابلس برًّا بعد أن زارا نواحي الجليل واجتازا في دمشق. وكان في تاريخ مرورهما يسكن الفيحاء كاهن مارونيّ اسمه الخوري سابا ابن الشمّاس يوسف المعروف بابن حليب من قرية العاقورة كما أثبت ذلك حضرة المرسل اللبنانيّ الخوري إبراهيم حرفوش في وصف بعض مخطوطات مار شلّيطا في المشرق سنة ١٩٠٣ (٦ : ١١٩).

أمّا الأب يوحنّا إليانو فإنَّه كان وجد له شمّاسًا عارفًا باللغات العربيَّة والسريانيَّة والإيطاليَّة فأنس به لورعه وتقاه لكنَّه لم يذكر اسمه في رسائله. وعلى رأي المرحوم الأب أنطون ربّاط اليسوعيّ أنَّه الحلبيّ المولد المارونيّ الطائفة المكرَّم إبراهيم جرجس الذي انتظم بعد ذلك بقليل في سلك الرهبانيَّة اليسوعيَّة ومات شهيد الإيمان في مصوَّع سنة ١٥٩٥، لكنّنا لم نجد سندًا لهذا الزعم والمرجَّح عندنا أنَّ الأب إليانو عرف الشابّ إبراهيم جرجس سنة رحلته إلى حلب في سفارته الثانية (١٥٨١). أمّا الشمّاس المذكور هنا فقد استصحبه الأب إليانو ليستعين به في أشغاله وحلّ مشكلاته الماديّة وإتقان اللغات الوطنيَّة وجعله كاتبًا لأسراره ومدوّنًا لملحوظاته ووسيطًا له في أشغاله مع الأهلين.

فعند بلوغ الرسولين إلى طرابلس أخذ الأب يوحنّا يستعلم عن أحوال المدينة هل يمكن إنشاء مدرسةٍ فيها لتهذيب الشبيبة المارونيَّة كما كان فكَّر في ذلك قداسة البابا غريغوريوس الثالث عشر. لكنّه تأكّد بعد قليل أنَّ هذا المشروع لا يُستطاع إخراجه إلى حيّز العمل لسوء أحوال النصارى وقتئذٍ في مدن الساحل حيث كان أعداؤهم يسومونهم الخسف ولا يرعون لهم جانبًا. فتحقَّق أنَّ أفضل مكان لتثقيف الأحداث من الموارنة وتعليمهم العلوم الإكليريكيَّة إنَّما هو عاصمة العالم الكاثوليكيّ أي رومية العظمى.

ثمَّ رأى الأب إليانو الوقت مناسبًا لمواصلة عمله لدى السيِّد البطريرك لكنَّه وجد الأوفق أن يبقى الأب توما راجيو في طرابلس فيهتمَّ هناك بأمور

تجّار الفرنج الروحيَّة ويدرس أخلاق الموارنة وخدمتهم وأبقى معه الأخ أماتو. أمّا هو فعاد إلى قنُّوبين وبعد أيّام قليلة تبعه رفيقه الشمّاس الذي سبق ذكره.

ثمّ أسرع القاصد الرسوليّ إلى مباشرة العمل وابتدأ بفحص المخطوطات الطقسيَّة التي يتداولها الموارنة كالأناجيل وتفاسيرها والنوافير وغيرها من الكتب الدينيَّة، فكان يطالع الكتب فردًا فردًا وإذا وجد أشياء مخلَّة بخصوص المعتقدات أو الرسوم والعادات المألوفة في الكنيسة نصَّ عليها وأفرزها عن سواها، ثمَّ كان يعرضها على السيِّد البطريرك والأساقفة الذين عنده فيبيّن لهم وجوه الخلل ثمَّ يتَّفقون إمّا على إصلاح ما يمكن إصلاحه بإبدال بعض صفحات من تلك المخطوطات وإمّا بحرقها إن كانت كثيرة الأغلاط وهكذا حرقوا جانبًا من الكتب بحضرة الإكليروس والشعب وإنَّما صار ذلك برضى الجميع وهم لا يرغبون سوى موافقة رومية في أيمانهم.

ولا نجهل أنّ بعض المستشرقين آخذوا الأب إليانو في حرق هذه التآليف مع فوائدها لدرس الآثار القديمة في الكنائس السريانيَّة إلاَّ أنّ المرسل الرسوليّ كان يؤثر الطاعة لرئيسه الحبر الأعظم الذي كان تقدَّم إليه بذلك مع علمه بأنّ تلك المصنَّفات لو بقيت لأضحت عثرةً في سبيل المؤمنين ثمَّ تتوفّر بالنسخ.

وقد ظنّ البعض أنّ القاصد الرسوليّ قد أتلف قسمًا من تلك المخطوطات دون أن يفهم معناها. وهي تهمة باطلة لأنّ الأب المذكور كان يعرف العربيَّة حقّ المعرفة ويلمُّ بالسريانيَّة كما يظهر من تآليفه ومن رسائله التي سنوردها وهي شبيهة بكتابات نصارى ذاك العهد ليست دونها بشيء. وقد صرّح الدويهيّ نفسه بذلك في تاريخه كما مرَّ. وفي رسائل الأب إليانو إلى الحبر الأعظم يذكر بعض تلك النصوص التي رآها مخالفة للمعتقد القويم مع تعريف الكتب وصفحاتها.

على أنّ الأب إليانو لا يحمل هذه الأغلاط على سوء نيَّة بل على جهل

النسّاخ أو على دسائس بعض المبتدعين الذين كانوا اختلطوا بالموارنة فزرعوا الزؤان بالحنطة على مثال الرجل العدوّ الذي يذكره الإنجيل. وقد لحظ الطيّب الذكر السيّد الدويهيّ هذه الدسائس حيث قال (ص ٤١٥):

وكان بثُّ البدعة بجبل لبنان أمرًا في غاية السهولة. أوّلًا لأنَّ اللغة واحدة ورتب أسرار البيعة عندنا وعند اليعاقبة ليست بمختلفة إلاَّ يسيرًا. ثانيًا لأنَّ الناحية طيّبة الهواء والعيش متَّسع فيها لأهل الدنيا ومتسهّل (ص ٤١٦) للمتفرّغين لخدمة الله والمتنسّكين في الأودية والجبال. وثالثًا لأنَّ المتولّي حكمها كان يكرم المتمسّكين بطبيعة واحدة ويأذن لهم في السكنى حيث شاؤوا. فلمّا انكشف ذلك وتبيَّن عند العلماء ورؤساء الكهنة كثر السجس والانشقاق في البلاد وصار البعض يحتجُّون لرأي الطبيعة الواحدة وآخرون يتصرون لرأي الطبيعتين...

فكفى بهذا دليلًا على وقوع التصحيف في بعض الكتب كما قال الأب يوحنّا إليانو وعلى اهتمام هذا الرجل الغيور بقلع ذاك الزؤان قبل أن يخنق الزرع الجيّد.

ولمّا أنهى الأب اليسوعيّ عمله في الدار البطريركيّة رأى من الواجب أن يطوف لبنان ويتفقَّد كنائسه وأديرته ليستطيع أن يُطلع الحبر الرومانيّ على كافّة شؤون الطائفة المارونيَّة لتجعل رومية نظرها عليها وتُعنى بمهامّها. قال الدويهيّ يصف أعمال القاصد الرسوليّ في أنحاء الجبل بما حرفه وهو أحسن جواب على مَن اتّهم الأب إليانو بغايات باطلة كان يبعد عنها مناط الثريّا (ص ٤٤٢):

وعقيب إنفاذ تلك الكتب استأذن جوان باطيشتا غبطة البطريرك في أن يطوف بلاد الموارنة ويفحص كتبهم وعوائدهم فسرَّ بذلك البطرك ميخائيل وبعث معه رسالة بخطّ يده إلى الأساقفة ورؤساء الأديرة وسائر الشعب لكي يقابلوه بما يليق من الإكرام ويقدّموا له كلّ ما يطلبه من الكتب وأمر أخاه الأسقف سركيس والقسّ جرجس بن يونان من إيليج أن يسيرا في صحبته واستمرَّ نحو سنة يطوف الأديرة والكنائس ويطّلع على الرتب والكتب وكان صنع له ثلاثة دفاتر يقيد بالأوّل ما يراه من الأغلاط ويرقم في الثاني ما ينبغي استشارة البابا فيه وفي الثالث يكتب ما يلتزم الكهنة والعوام تحفظه... وكان البطرك ميخائيل وأخوه

يحبّان جوان باطيشتا محبّة شديدة لأجل غيرته وطول أناته.

فاستغرقت تلك الزيارة الرسوليّة أشهرًا لم يدع فيها الأب إليانو صغيرة أو كبيرة من أحوال الطائفة المارونيّة إلاّ عرفها ثمّ عاد إلى قنُّوبين وشكر السيّد البطريرك على ما أبداه من العناية تسهيلًا للقيام بوظيفته. ثمّ عرض على غبطته وعلى رؤساء الطائفة أن يوقّعوا بإمضائهم قبولهم بأوامر البابا بخصوص الأمور التي ذكرها قداسته في براءته ففعلوا. وهذا تقريرهم بحرفه عن نسخة مصونة في سجلاّت رهبانيّتنا:

تذكرة في ما أرسل لنّا قصّاد سيّدنا البابا الذين حضروا عند حقارتنا في شهر حزيران سنة ١٥٧٨ للتجسّد الإلهيّ ونحن نكون حافظين ذلك بغير تهاون بمعونة الله:

أوّلًا أن يعمّدوا الصغار بعد ثمانية أيّام من ميلادهم وبالضرورة قبل ثمانية أيّام ولا يؤخّروا العماد إلى بعد الأربعين كحسب عادتهم القديمة.

ثانيًا تثبيت الإيمان بالميرون بعد ثمانية أم عشر سنين يرشمه البطرك أم الأسقف لا غير في جبهته فقط ولا يكون رشمه في اللبّات مثل عاداتهم القديمة في المعموديّة على يد قسّ.

ثالثًا تكريس الميرون المقدّس يكون على يد البطرك أم الأسقف ويكون ذلك في يوم الخميس الكبير وتركيبه من زيت زيتون نقيّ وبلسم لا غير ويجدّدوه في كلّ سنة وأيش ما فضل من العتيق يُحرق.

رابعًا لا يعطوا الأطفال القربان عند العماد كعادتهم القديمة لكن يعطوا القربان إذا كمل سنّهم ويعترفون لمعلّم (أي معلّم الذمّة وهو الكاهن) قبل أخذه.

خامسًا عند التقديسات تقال: قدّوس الله قدّوس القويّ قدّوس الذي لا يموت ارحمنا ولا يزيدون عليها شيئًا ولا يقولون: يا مَن صُلب ولا قام ولا صعد ولا غيره.

سادسًا الإكليروس أعني البطرك أو المطران والأسقف والخوري والقسّ والشمّاس والشدياق يلزمهم السبع صلوات كلّ يوم.

سابعًا ومَن وجد امرأته في زنا لا يطلّقها ويأخذ غيرها ولا المرأة تأخذ غيره كعادتهم القديمة بل يفترقون الواحد عن الآخر في مجامعة الفراش وإن ندمت المرأة وتابت يقدرون يرجعون كما الأوّل. وفي غير ذلك نكون مستعدّين

حريصين على تكميل الأوامر والله تعالى يعيننا ويساعدنا على تكميل ما رسم الأب المقدّس البابا غريغوريوس الثالث عشر والآتين بعده خلفًا بعد سلف كأولاد الطاعة الطائعين لآبائهم وهذا خطّ بيدي أنا الحقير مع المجتمعين معي.

أنا الحقير البطريرك بطرس في دير قنّوبين بطرك الموارنة أنا أصدّق وأثبت جميع ما أمر السيّد البابا بمثل ما ذكرنا أعلاه.

أنا الحقير مطران سركيس   أنا الحقير أسقف جرجس   أنا الحقير خوري يوحنّا

أنا الحقير خوري موسى

وكان الزائر الرسوليّ في أوقات الفراغ يشتغل بتعريب صورة رتبة الميرون وقوانين المجمع التريدنتينيّ والتعليم الصغير الذي صنَّفه الطوباويّ بطرس كانيزيوس اليسوعيّ وكتاب المرشد المسيحيّ للأب لِدِشما وكتاب الاعتراف والمناولة للأب لويس الغرناطيّ وصلوات أخرى جزيلة الفائدة.

ثمَّ جعل يفكّر في جلب الأساقفة والرهبان العصاة إلى الخضوع للسيّد البطريرك فلم يرَ طريقًا لذلك أقرب من عقد مجمع ملّيّ تُعرض فيه كلّ المشاكل لتنظيم أحوال الطائفة نظريًّا وعمليًّا فأقنع بذلك البطريرك ميخائيل وابتدأ يُعدّ الموادّ التي يُقضى التباحث فيها في ذاك المجمع.

وكان مع ذلك لا يزال الأب إليانو يكاتب الكردينال كرافًا ورئيسه العامّ الأب مركوريان ويعلمهما بنتيجة أعمال السفارة. ومن جملة ما أرسله مكاتيب من غبطة البطريرك إلى الحبر الأعظم وإلى الكردينال كرافًا أرسلها بنصّها العربيّ مع ترجمتها في تمّوز من تلك السنة مع تجّار أبحروا إلى البندقيَّة فسُرَّ قداسة البابا بتلك المعلومات وأرسل يثني على همّة قاصده.

وبينما كان الأبوان إليانو وراجيو يفرغان المجهود في تحقيق نيّات رئيس الكنيسة إذ فشا الطاعون في سواحل الشام فما لبث أن انتشر انتشارًا عظيمًا فبقي المرسلان في ريب عمَّا يجب عليهما فعله أيعودان إلى رومية فيبلّغان شفاهيًّا الحبر الأعظم ما جرى لهما أم يواصلان عملهما رغمًا عن الوباء وكان السيّد البطريرك يحضُّهما على الرجوع لأوروبّا لئلاّ تصيبهما العدوى فتضيع فائدة رسالتهما. لكنّهما لم يريدا أن يسرعا قبل ورود أوامر من رومية

في ذلك. وهكذا جرى فإنّ رئيس الرهبانيَّة اليسوعيَّة العامّ الأب مركوريان أرسل إليهما الأمر ليعودا إلى عاصمة الكثلكة.

عودة الأب يوحنّا إليانو إلى رومية وتعيينه لقصادة ثانية

بلغ كتاب الأب مركوريان رئيس الرهبانيَّة اليسوعيَّة العامّ إلى الأب يوحنّا إليانو ورفيقَيْه في أواخر تشرين الثاني من السنة ١٥٧٨. فأحبَّ القاصد الرسوليّ قبل رجوعه إلى رومية أن يرسل إلى قداسة الحبر الأعظم تقريرًا مطوّلًا يلخِّص فيه مجمل أعمال قصادته لدى الموارنة ونجاحها التامّ مع ما أظهره غبطة البطريرك ميخائيل الرزّي وسائر الأساقفة والشعب من الانقياد إلى أوامر الكرسيّ الرسوليّ فحرَّره وختم رسالته طالبًا من قداسته أن يحكم ما الأوفق أن يواصل أعمال القصادة رغمًا من فشوّ الطاعون أو يرجع مع رفيقَيْه إلى روما.

وكان المرسلون يظنُّون أنَّ جواب البابا غريغوريوس لا يتأخَّر أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر لكنَّ الأمر جرى على خلاف ظنّهم لأنَّ رسائلهم لم تبلغ إلى عاصمة الكثلكة قبل أواخر شباط. فلمّا تصفَّحها الحبر الرومانيّ سُرَّ بها غاية السرور وأوعز إلى الرئيس العامّ بأن يكتب للأب إليانو أن يبقى في لبنان وينجز الأعمال التي باشر بها.

فأسرع الرئيس الأب مركوريان وبلَّغ الأب إليانو رغبة الحبر الأعظم في مواصلته مشاريعه الطيّبة ريثما ينتهي منها. لكنَّ هذا الأمر المستأنف تأخّر موعده وإذ رأى القاصد ورفيقاه أنَّ ثلاث سفنٍ قدمت تباعًا من البندقيَّة إلى طرابلس دون جواب عوَّلوا على ركوب البحر في أواسط آذار من السنة ١٥٧٩. وكان السيّد البطريرك يحضّهم على السفر ليس فقط صونًا لهم من غارات الطاعون بل خوفًا أيضًا من رهبانه وأساقفته العُصاة لئلاً يسعوا به وبطائفته لدى الأتراك وينسبوهم إلى المؤامرة على الدولة مع الأجانب فينالهم بسبب تلك التهم أذًى ومصادرات شتّى.

فلمّا حان وقت السفر ودَّع القاصد الرسوليّ غبطة البطريرك وسلَّمه قبل أن

يفارقه مذكّرةً أودعها خلاصة ما صار الاتّفاق عليه لخير الطائفة وخصوصًا صورة نصوص من الكتب الطقسيَّة التي نفذ فيها شيء من أضاليل المبتدعين[١]. وكذلك أعطاه كتابًا فيه وصف تكريس الميرون. وممّا أخذه معه نسخة من ترجمة الكتاب المقدَّس العربيَّة مؤمّلًا بطبعها لمنفعة الشرقيّين كما كان أوصاه الحبر الأعظم.

ثمَّ إنّ المرسلين ألحُّوا على رؤساء الطائفة، قيامًا برغبة قداسة البابا وأمر الكردينال كرافًا، بأن يعيّنوا ستَّة أولاد يتخرَّجون في رومية بالعلوم الدينيَّة ويترشّحون للكهنوت فيعودون إلى لبنان ويساعدون بالروحيّات مواطنيهم. لكنَّ طلبتهم هذه صادفت عدَّة موانع حالت دون إتمامها سواء خاف الأهلون على أولادهم من ذاك السفر الطويل أم هالهم قرصان البحر الذين كانوا يترصَّدون سفن الفرنج ليأسروا ركّابها ويستعبدوهم. وإنَّما رضي بمرافقة المرسلين ولدان فقط الواحد من لبنان وهو جبرائيل الأدنيتيّ والآخر من قبرس يدعى كسبار. وقد أوقفنا حضرة الأب كيرلّس شارون نزيل رومية على قائمة لاتينيَّة وجدها في سجلاّت مجمع انتشار الإيمان تحتوي أسماء أوَّل تلامذة المدرسة المارونيَّة في رومية تاريخها سنة ١٥٨٤ وهي مفتتحة باسم جبرائيل وكسبار المذكورين وتزيدنا عنهما إفادةً بقولها عن جبرائيل المذكور أنَّه ابن سعيد (Gabriel Felicis) وأنَّ أصله من بان من أبرشيَّة سيّدة قنّوبين في لبنان (وهي الأبرشيَّة البطريركيَّة) وكان عمره إذ ذاك ١٥ سنة. أمّا كسبار فيقال إنَّه مولود في أفقوسية مدينة قبرس وأنّه من أبرشيَّة شدرا المارونيَّة وكان عمره عند وصوله سبع عشرة سنة. وممَّا أفادنا الدويهيّ في تاريخه (ص ٤٤٣) أنَّ الشدياق عازر القبرصيّ رافقهما موكَّلًا بهما.

وكان خروج الأب إليانو من قنّوبين في ٢٥ شباط سنة ١٥٧٩ وقد أصحبه السيّد البطريرك ميخائيل وأخوه المطران سركيس الرزّي برسائل إلى الحبر

(١) وفي رسالة السيّد البطريرك ميخائيل إلى البابا التي اختصرها العلأمة الدويهيّ (ص ٤٤٣) كلام صريح في تشويه هذه الكتب «بأغلاط سرت إليها من كتب غريبة» وبه يتّضح أنّ الأب إليانو بذكره تلك الأضاليل لم يختلق شيئًا بل قام بتصريحه عنها بواجب الضمير.

الأعظم وإلى الكردينال كرافًا أبديا فيها أسفهما على مفارقة القاصد الرسوليّ قائلين «إنَّه قد صحّ فيهما مثل ذلك الذي بدأ ببناء البرج ولم يتمّمه وإنَّهما يؤمّلان من شفقة الأب الأقدس الأبويَّة أن يردَّه مرَّة ثانية إلى لبنان». هذا ما قاله الدويهيّ في تاريخه وزاد هناك (ص ٤٤٣) ما رويناه عن محبَّة البطريرك ميخائيل وأخيه للأب جوان باطشتا لأجل غيرته وطول أناته ما ينفي تُهم بعض الكتبة في حقّ ذلك القاصد الرسوليّ.

فلحق الأب إليانو برفيقَيْه في طرابلس وبعد أيّام قضوها ريثما تُبحر السفينة البندقيَّة الراسية في مرفأها، ركبوا البحر في ٢٢ آذار من السنة ١٥٧٩ فأقلع المركب متوجّهًا إلى قبرس حيث أوسق شحنًا للبندقيَّة فنزل المرسلون إلى البرّ وزاروا نصارى الجزيرة الذين كانوا في أسوإ حال منذ فتح الأتراك لمدينتهم فعزّوهم في محنتهم وثبّتوهم في إيمانهم وساعدوهم في حاجتهم ثمَّ يمَّمت السفينة إلى سواحل إيطاليا وكان وصولها بسلام إلى البندقيَّة في أوائل شهر أيّار. فأخذ الركّاب نصيبًا من الراحة بعد ذاك السفر الطويل لدى إخوتهم اليسوعيّين في تلك الحاضرة فرحَّب الجميع بالقاصد الرسوليّ الذي كانت مدينتهم تشرَّفت باهتدائه ونالت قَبْل غيرها من ثمار غيرته، ثمَّ خرج مع رفقته قاصدًا أمّ المدائن الكاثوليكيَّة فبلغوها في اليوم الثامن من شهر حزيران من السنة. وقد اختصر العلاّمة الدويهيّ في تاريخ الموارنة ما جرى للوفد عند بلوغه إلى رومية قال (ص ٤٤٣):

> «فلمّا وصل جوان باطيشتا إلى رومية ومثل بحضرة الحبر الأعظم قدَّم له رسالة البطريرك وأخبره عن أحواله وأحوال طائفته وأثنى على عبادتهم وطاعتهم لكرسيّ رومية واعتبارهم لرؤسائه وإكرامهم لقصّاده وقبولهم تعليم الإيمان بكلّ فرح. ثمّ قال إنَّه بسبب اختلاطهم بأهل البدع واشتداد الظلم عليهم اندسَّ بينهم بعض أغلاط سرت إليهم من كتب غريبة وسلكوا بعض عوائد غير ممدوحة وأنَّهم يقيمون القدّاس بكاسات[٢] وحلل غير لائقة، وفي آخر الأمر طلب من

(٢) كانوا يقدّسون بكؤوس من خشب وقد رأينا في دير قنُّوبين كأسًا قديمة من هذا الصنف في رحلتنا الأخيرة إلى ذاك الدير المقدَّس في أوائل تشرين الأوّل ١٩١٣. وهذه الكأس تُحفظ في موفه الكنيسة القديمة المنقورة في الصخر.

قداسته أن يقيم لهم مدرسة برومية يتعلّم فيها أولادهم حتّى إذا رجعوا يعلّمون بني جنسهم وأن يطبع في لغتهم كتبًا تتضمّن قواعد الإيمان ويتفضّل عليهم ببعض حلل وكاسات لإقامة القدّاس. فابتهج الحبر الأعظم وحمد الله سبحانه وتعالى على أحكامه الغامضة وحسن عنايته لأنّه شاء أن تبقى أمانته المقدّسة مصونة في بلاد بعيدة عنهم بعدًا عظيمًا برًّا وبحرًا وبين قوم لا يفهمون لغاتهم ولا يعرفون عوائدهم. ثمّ أمر بإحضار الولدين فباركهما وسُرَّ بهما كثيرًا وطلب من الله أن يجعلهما غرسة مباركة وافتتاحًا مقدّسًا لتمجيد اسمه وانتشار أمانته في أصقاع المشرق. وأمر بأن يُقيما أوّلًا في مدرسة الأحداث (Collegio dei Neofiti) إلى أن يتمّ بناء مدرسة خصوصيّة للموارنة».

هذا ما رواه السيّد البطريرك مؤرّخ طائفته. ولنا في تواريخ الرهبانيّة اليسوعيّة وسجلّات الڤاتيكان ما يفيدنا غير ذلك. فإنّ الحبر الأعظم إذ علم بقدوم الآباء من لبنان أخذه العجب من أمرهم بعد أن كان أمر رئيس الرهبانيّة اليسوعيّة بأن يوعز إلى المرسلين بالبقاء بين الموارنة إلى حين إنجاز أشغالهم. لكنّه بعد أن مثلوا أمامه وأخبروه شفاهًا بكلّ ما جرى لهم وشرحوا له بالتفصيل عن أحوال الطائفة المارونيّة مع تأخُّر جواب قداسته الذي لم يبلغ إلى أيديهم رأى رجوعهم تدبيرًا خصوصيًّا من العناية الإلهيّة لمجده تعالى وخير الطائفة المارونيّة. وهذا ما أعرب عنه الكردينال كرافًا في مكتوبٍ تاريخه ١ آب من السنة وجّهه إلى البطريرك ميخائيل حيث يقول فيه ما تعريبه:

«كان رجوع الآباء الزوّار ولا سيّما الأب يوحنّا إليانو من جهاتكم على خلاف مرامنا لأنّ قداسة الحبر الأعظم كان يرغب أن تنال سيادتكم من هؤلاء الرهبان تعزية وعونًا في حاجاتها وإنّما الأمر جرى بعناية صمدانيّة من الله الذي سمح بذلك لخيركم فيؤول رجوعهم إلى مجده تعالى إن شاء الله...

وقد سُرَّ قداسته بكلّ ما عرضه له الآباء عن شؤونكم وشكره تعالى على ما أودع قلوبكم من الرغبة في اتّباع التعاليم الكاثوليكيّة التي ينشرها الكرسيّ الرسوليّ وله الرجاء الوطيد بأنّ الله سيؤيّد عزمكم وينشّط همّتكم لتقوموا بأعباء منصبكم وتسيروا دائمًا في سبيل الصلاح لنوال الحياة الخالدة.

أمّا نحن فسوف نجهد نفوسنا لتحقيق رغائب قداسة الحبر الأعظم في ما يؤول إلى خيركم الروحيّ وحفظ الإيمان المقدّس بينكم وإنجاز طقوسكم قانونيًّا وحسن توزيع الأسرار كما يليق بخدمة السيّد المسيح ونفي كلّ ضلال أو اعتقاد

باطل. وكذلك قد عزم قداسته على أن يحلّ ما عرضتم عليه من المشاكل فتنالوا بحلّها سلوانًا.

ونفيد سيادتكم أنَّ قداسته قد ابتهج بمجيء الولدين من طائفتكم وسنسعى بأحوالهما كأنّهما أولادنا بالعين حتّى يتخرَّجا بالعلوم الدينيَّة ويستطيعا القيام بخدمة طائفتهما عند عودتهما إليكم. ولو أمكنكم أن ترسلوا غيرهما لزاد بذلك سرور قداسته...

وإذ قد سمعتم من فم الأب جوان باطيشتا التعاليم الجمَّة وأناركم الله بواسطته بضياء المعتقدات الكاثوليكيَّة فعليكم أن لا تخالفوا نعمة الربّ بل تنمّوها في قلوبكم بأعمال البرّ تبعًا لرغبتكم الصالحة. هذا وإنّي أشكركم على الذخيرة (وكانت صليبًا من خشب الأرز) التي تلطّفتم بإرسالها إليَّ وسأحفظها مع بقيَّة هداياكم الثمينة.

هذا وإنَّ البابا غريغوريوس الثالث عشر مع ارتياحه إلى تلك الأخبار السارَّة تقدَّم إلى الأب إليانو بأن يدوّن في كتاب خاصّ ما شاهده عيانًا أو تحقَّقه بالبحث عن أحوال الطائفة المارونيَّة دينًا ودنيا مع ذكر الوسائط التي يراها الأحقّ بخدمة تلك الأمَّة الفاضلة فيقدّمه لمقام الحبر الرومانيّ.

شرح حال الموارنة سنة ١٥٧٨

فأسرع اليسوعيّ إلى تلبية دعوة رئيس الكنيسة فكتب التقرير المطلوب وهاك أخصّ مضامينه معرّبة عن الأصل الإيطاليّ المصون في سجلاّت الرهبانيَّة اليسوعيَّة. وهو أوَّل تقرير واسع أصدره أحد المرسلين عن الموارنة في لبنان قال:

«(تعريف الموارنة) الموارنة شعب اشتقُّوا اسمهم من منشئهم المدعوّ مارون. وسكناهم غالبًا في قرى لبنان المواجهة للغرب والمشرفة على مدينتي طرابلس وبيروت. ومنهم عيال يسكنون دمشق وحلب وطرابلس وجزيرة قبرص. وهم إجمالًا لا يتجاوزون أربعين ألفًا[١].

(١) لعلَّ القارئ يجد هذا العدد قليلًا في ذلك العهد ومن المحتمل أنَّ الأب إليانو نقل ذات=

«وللموارنة رئيس روحيّ يسوسهم يلقّبونه باسم بطريرك له تحت أمره ستّة مطارنة وستّة أساقفة ليس لهم كرسيّ خاصّ يغلب عليهم الفقر وعلمهم زهيد. وكلُّهم في الأصل رهبان يُدْعَون من أديرتهم إلى الأسقفيّة وعلى هذا المنوال أصبحت كلّ المناصب العليا في أيدي رهبان القدّيس أنطونيوس كما ترى تلك المناصب عند اليونان في حوزة رهبان القدّيس باسيليوس.

«(تدبيرهم الروحيّ) يعود تدبير الموارنة روحيًا إلى السيّد البطريرك المومأ إليه فهو المهتمّ بشؤونهم ويعيّن لخدمة نفوسهم كهنة علمانيّين مقيَّدين بالزواج كالروم. والطائفة المارونيّة كلّها خاضعة للحبر الرومانيّ مقرَّةً برئاسته على الكنيسة جمعاء منذ زمن إينوكنت الثالث (١٢١٥) أي منذ ٣٧٠ سنة[٢]. وهي مذ ذاك العهد لا تزال باقيةً على خضوعها واتّحادها مع رومية كما تشهد عليه المناشير الحبريّة والبراءات الرسوليّة العديدة التي وجَّهها كثيرون من البابوات إلى بطاركتهم. وبفضل القصّاد الرسوليّين الذين كانت رومية توفدهم إلى الموارنة من وقت إلى آخر قد حفظوا وديعة الإيمان الكاثوليكيّ بين الهراطقة والمنفصلين عن حجر الكنيسة فتراهم ثابتين على الاتّحاد مع الكرسيّ الرسوليّ مجاهدين بمحبّتهم نحوه ونحو مجمع الكرادلة وهم لا يذكرونهم إلاّ بكلّ وقار وتجلّة.

«على أنّه بتمادي الزمان وبسبب اختلاطهم مع الأمم والطوائف المخالفة لدينهم قد تسرَّبت إلى كتبهم بعض الأضاليل ودخل في طقوسهم ورتبهم بعض

=العدد الذي ذكره غليلموس الصوري في تاريخ حرب الصليبيّين حيث روى أنّ الموارنة في عدد ٤٠,٠٠٠ قدّموا الخضوع للقاصد الرسوليّ إيمريك سنة ١١٤٠. على أنّ هذا الرأي ليس بمستبعد فإنّ البطريرك ميخائيل الرزّي في رسالته إلى غريغوريوس الثالث عشر يصرّح بأنّ الموارنة يسكنون في منتي قرية. وكانت القرى في تلك الأيّام قليلة السكن منها المزارع والدساكر الصغيرة فيكون معدّل القرية ٢٠٠ نفس. وبَعد الأب إليانو بمنتي سنة، لمّا تجوّل ڤولناي (Volney) في الشام قد جعل عدد الموارنة ١١٥,٠٠٠. وعلى كلّ حال ذكرنا الأمر على علاّته.

(٢) سبق القول إنّ أوّل براءة تُعرف وجّهها الأحبار الرومانيّون إلى الموارنة تاريخها سنة ١٢١٥ وهي للبابا إينوكنت الثالث. وليس هذا دليلًا على أنّ خضوع الموارنة للكنيسة الرومانيّة لم يسبق تلك السنة.

الشوائب التي سببها قلّة المعلّمين الذين يُعْنَون بإرشادهم وليس نقصًا في استعدادهم لقبول تعاليم الكنيسة الرومانيّة. وقد دوَّنّا هذه النصوص المضادَّة للحقائق الكاثوليكيَّة في كتاب منفرد ليطَّلع عليه قداسة الحبر الأعظم نقلناها بحرفها عن الكتب التي أطلعنا عليها السيّد البطريرك منها إنجيل كتبه بخطّ يده قبل ٢٥ سنة وعلَّق عليه حواشي يذكر فيها وحدة المشيئة في السيّد المسيح ووحدة الأعمال وغير ذلك كدخول نفوس الأبرار في السماء بعد الدينونة الأخيرة وخلاص الهالكين في الجحيم بعد زمن محدود إذا كانوا من المؤمنين.

«بيد أنَّ هذه الأضاليل وغيرها أيضًا التي وجدناها في كتبهم لا تدلّ على معتقدهم الصحيح وإنَّما كان كتَبتهم ينقلونها دون أن يعيروها بالًا وإذا سألتهم عن إيمانهم أجابوا أنَّ إيمانهم على إيمان روما. إلاّ أنَّنا وجدنا في الدار البطريركيَّة شمّاسًا[٣] قال علانيةً: «إنَّنا لا نعتقد في المسيح إلاّ مشيئة واحدة وطبيعة واحدة».

«وهذا ما لحظناه بخصوص توزيعهم للأسرار. قد اعتاد الموارنة أن يعمِّدوا المولود في اليوم الأربعين من مولده. ومن عاداتهم أن يخلطوا زيت الميرون وبلسمه بموادّ أخرى. وكذلك سرّ التثبيت فإنَّهم لا يجرون في منحه على طريقة الكنيسة الرومانيَّة فيزعمون أنَّه يكفي بأن يُمسَح المولود بعد عماده بالميرون[٤].

«يستعملون في القدّاس الخبز الفطير لكنَّهم يقدّسون أيضًا الخمير ويدوفونه بالملح[٥]. وهم لا يستعملون لصمدة القربان إلاّ قماشًا من الكرمسوت. والشمامسة إذا تقرَّبوا تناولوا الشكلين الخبز والخمر وهم وقوف

(٣) لعلَّ هذا الشمَّاس كان أحد اليعاقبة الذين كانوا يتجوَّلون في لبنان وممَّن أشار إليهم الدويهيّ ونسب إليهم تحريف الكتب.

(٤) معلوم أنَّ الكنائس الشرقيَّة تمنح سرَّ التثبيت بعد العماد وأنَّ الكهنة مفوَّضون بمنحه برخصة الأساقفة فكانت الكنيسة المارونيَّة تجري في ذلك على مثال كلّ الشرقيِّين.

(٥) تقديس الخميرة قد بطل منذ زمن طويل عند الموارنة.

والكاهن يقسم حينئذٍ خبز القربان إلى قطع بعدد المتناولين. ومن عادتهم أنَّهم يقدّسون القربان للمرضى في يوم خميس العهد ويحفظونه إلى السنة التالية كما يفعل الروم[٦].

«لا يقدّسون في خميس العهد زيتًا لمسحة المرضى وإنَّما الكاهن إذا دُعي لمسحة أحد المدنفين على الموت يبارك الزيت اللازم لمنح السرّ.

«لا يوجد في كنائسهم تماثيل للقدّيسين وإنَّما يزيّنون كنائسهم بصور منقوشة. ولم يعتادوا الجثوّ على ركبهم في الكنائس لكنَّهم يعملون المطانيّات كالروم. ثمَّ إنَّ الموارنة يمتنعون عن الدم والمخنوق.

«ومن عاداتهم في سرّ الزواج أنَّهم يسمحون بالطلاق إذا زنى أحد الزوجين أو كانت المرأة عاقرًا أو مصابة بداء عقام فيجيزون للزوج الاقتران بامرأة أخرى.

«ولا شكَّ أنّ الموارنة ينبذون هذه العادات إذا عرض عليهم الكرسيّ الرسوليّ إلغاءها.

«(حالتهم المدنيَّة) الشعب المارونيّ تحت حكم سلطان الأتراك لكنَّ لهم في جبالهم حاكمًا يتولَّى سياستهم وهو سيّد عربيّ ينتسب إلى مماليك مصر واسمه في عهدنا منصور[٧] قد أقطعته الدولة التركيَّة كلّ قرى الموارنة فيحصّل من أهلها الضرائب السلطانيَّة وكلّ ما يحفظه لنفسه. وله وكيل من وجوه الموارنة يدعى يوسف[٨]. هو كاخيته ومستشاره يحصّل له الأموال من قومه ويضيف إليها ما يعيش هو منه، فالشعب كلُّه دون استثناء حتّى السيّد البطريرك والإكليروس عمومًا لا مناص لهم من هذه الضرائب الثقيلة. وقد رأينا بالعيان أنّ السيِّد البطريرك عند عودة جرجس البسلوقيتيّ ورفيقه الخوري إقليميس من

---

(٦) هذه العادة لا تزال جاريةً في الشرق في الطوائف المنفصلة.

(٧) هو الأمير منصور بن عسّاف التركمانيّ الذي تولَّى الأمر على كسروان وبلاد جبيل إلى عكّار ثمَّ إلى حماة من السنة ١٥٢٣ إلى السنة ١٥٨٠.

(٨) هو الشيخ يوسف حبيش المارّ ذكره.

رومية توجَّه إلى زيارة يوسف المذكور وقدَّم له قسمًا من المبلغ الذي تصدَّق به عليه قداسة البابا. وإذا نزل الموارنة من قراهم إلى مدن الساحل يسخّرهم أهلها المسلمون لأمورهم فيضطرُّونهم إلى نقل أحمالهم أو يقضون عليهم بأشغال شاقَّة في دار الحكومة أو في بيوت الخاصَّة.

«وسكّان هذه الأنحاء منقسمون قسمين فقسم منهم يُعْرَف بذوي الرايات البيض (وهم اليمنيُّون) وقسم يدعى بأصحاب الرايات الحمر (وهم القيسيُّون). والأمير منصور العسَّافي هو زعيم الأخيرين وتتبعه قرى متعدّدة. أمّا الأوَّلون ففي حزبهم أيضًا مسلمون كثيرون واليوم أصبحوا بلا زعيم. وكانوا في العام الماضي (سنة ١٥٧٨) اتَّخذوا لهم من أهل طرابلس المسلمين زعيمًا ذا سطوة وبأس فجرت عدَّة وقائع بين الحزبين وقتل كثيرون إلى أن استدعى السلطان إلى الآستانة هذا الطرابلسيّ فعاد السكون للبلاد.

«ولكثرة ما يُفرض على الموارنة من الضرائب قد غادر جمٌّ غفير منهم ضياعهم والتجأوا إلى بلاد الدروز. وهؤلاء الدروز يُعرَفون ببسالتهم ويُعادون الأتراك وهم مع ذلك محالفون لأمراء بني عسّاف. ويزعم العموم أنَّهم يخفون دينهم وأنَّ الذين يختلطون بهم ينالون شيئًا من أخلاقهم.

«ويوجد في بلاد الدروز خمس أو ستّ قرى يسكنها قوم من الموارنة الذين يثابرون على أسرار دينهم ويؤدّون الأعشار للسيّد البطريرك لكنَّهم يتصرَّفون علانية تصرُّف المسلمين فيجعلون على رؤوسهم عمامة بيضاء كالمسلمين ويدخلون جوامعهم للصلاة وإذا سألهم أحد عن دينهم جهارًا انتموا إلى الدين الإسلاميّ.

[وهنا يلخِّص الأب إليانو أخبار سفارته منذ أرسله الحبر الأعظم في آذار سنة ١٥٧٨ إلى لبنان لافتقاد الطائفة المارونيَّة حتّى رجوعه في حزيران من السنة التالية مع ما جرى له من حسن الاستقبال من السيّد البطريرك ميخائيل وشعبه والمفاوضات التي دارت بينهما مع زيارته لأنحاء لبنان وفحص الكتب الدينيَّة التي في أيدي الموارنة وبقيَّة الأخبار التي سبق لنا ذكرها مفصَّلًا].

إلى أن قال هناك: «وقد سعينا عند اجتماعنا بسيادة البطريرك بأن نصلحه مع الأساقفة والرهبان العصاة لكنَّ مساعينا في ذلك قد خابت لأنَّ أولئك الأساقفة لم يشاؤوا أن يعتبروا نفوسهم ككهنة بسطاء بعد تسقيفهم دون رخصته ولا هو رضي بأن يُنظَموا في عداد الأساقفة. ولذلك فكَّرنا بعقد مجمع طائفيّ وكان قد تعيَّن موعده للفصح لولا اضطرارنا إلى الرجوع بإيعاز البطريرك الذي أقنعه البعض بأن يصرفنا لئلَّا تصيبه هوانات من الأمم إذا عرفوا بأنّ الفرنج مقيمون بين قومه».

هذا هو التقرير الذي سطَّره الأب إليانو ليعرضه على الأب الأقدس. وإذ كان البابا غريغوريوس طلب منه أن يشير إليه بأقرب الوسائل وأوفقها لمساعدة الطائفة المارونيَّة وتثبيتها في الإيمان شفع القاصد الرسوليّ تقريره بهذا الملحق:

«أمّا ما نراه الأصلح لخير الطائفة المارونيَّة وسدّ حاجاتها الروحيَّة فهذه الوسائل الثلث:

«أوّلًا لا بدَّ من إعانتها بإصلاح إكليروسها وذلك بأن نستجلب إلى رومية عددًا وافيًا من الأحداث أو الشبَّان ليتخرَّجوا في الآداب الدينيَّة كما يتخرَّج بأمر قداسته غيرهم من بلاد شتَّى.

«ثانيًا ينبغي أن تُنشأ في رومية مطبعة تُنشر فيها الكتب العربيَّة والسريانيَّة التي يحتاج إليها الموارنة في كنائسهم حتّى تقوم هذه المطبوعات المنقّحة مقام الكتب الخطِّيَّة التي يستعملونها والتي سرت إليها بعض الأضاليل فيحرقونها لاستغنائهم عنها بما هو أفضل.

«ثالثًا ويلزم أيضًا تجهيز كنائس الموارنة الفقيرة بكؤوس وحلل وآنية للميرون وغير ذلك ممّا يجب الاحسان به إليهم لإقامة الأسرار على طريقة لائقة».

تعيين الأب إليانو لسفارة ثانية إلى لبنان

وكان قداسة الحبر الأعظم عيَّن للأب إليانو ولرفيقه الأب توما راجيو يومًا لاستقبالهما. فمثلا بين يدي أبي المؤمنين وقدَّما له التقرير السابق. فلمَّا اطَّلع عليه انفرد بالكردينال كرافًا وتفاوضا مليًّا في مضامينه ثمَّ أدخل البابا الأب إليانو ورفيقه فأثنى على ما أبديا في مهنتهما من الغيرة والفطنة وطول الأناة وأكَّد لهما أنَّه سيبذل الجهد في تنفيذ ما طلباه لخير الموارنة ثمَّ أردف كلامه بقوله للأب إليانو: «وإنِّي قد صمَّمت النيَّة على أن أوفدك ثانيةً مع رفيق إلى الموارنة فتنجز ما باشرت به لنفع هذه الطائفة وقد أمرتُ بإعداد المطبعة لنشر كتبهم الطقسيَّة وبتجهيز الآنية المقدّسة والحلل التي طلبتها».

فخرج الأبوان شاكرين. وبذلك انتهت الرسالة الأولى التي قام بها الأب إليانو فكانت فاتحة عصر جديد ازدهرت فيه الأمَّة المارونيَّة وخرجت من خمولها واستلفتت إليها أنظار عالم الغرب.

وكفى بتفاصيل هذه السفارة دليلًا لامعًا على نزاهة الأب يوحنَّا إليانو ومحبَّته المخلصة لبني مارون ورغبته الملتهبة في مساعدتهم وصونهم من كلّ شائبة الضلال. ولا حاجة إلى تفنيد مزاعم الكتبة الذين اتَّهموه بقلَّة التروّي في وصفه لأحوال الموارنة ولدينا براهين عديدة على صدقه وإلمامه بكافَّة أمور الطائفة المومأ إليها حتَّى استحقَّ أن يلقبَّهُ بعض معاصريه برسول الموارنة.

ما وقف الأب جوان باطشتا إليانو على نيَّة الحبر الأعظم غريغوريوس الثالث عشر بخصوص سفارة ثانية إلى لبنان حتَّى أخذ يستعدّ لها استعدادًا تامًّا ليجتني منها الكرسيُّ الرسوليّ الثمار الطيّبة التي يشتهيها لمجد الله ولخير الكنيسة. وعيّن له الرئيس العامّ الأب إفرَرْد مركوريان كرفيق لهذه الرحلة الأب يوحنّا برونو (G. Battista Bruno) الذي يدعوه الدويهيّ في تاريخه (ص ١٧٧) «جوان برونا». وكان هذا رجلًا ورعًا واسع الفضل ضليعًا بالعلوم اللاهوتيَّة.

فسُرَّ به السفير البابويّ ورأى معه أنَّ أمسّ حاجة ينبغي التفرُّغ لها قبل سفرهما الاهتمام بطبع بعض التآليف في العربيَّة ينشرانها في لبنان لصيانة أهله من أضاليل الأمم المجاورة لهم وتعزيز الإيمان الكاثوليكيّ في قلوبهم.

غير أنَّ طبع الكتب كان يقتضي تجهيز مطبعة وحفر حروف جديدة عربيَّة وسريانيَّة. فاتَّفق الأب إليانو مع طبّاع رومانيّ اسمه غريغوريوس لوتكا (Gr. Lutcha) ثمَّ استدعيا رجلًا حاذقًا يُحسن حفر الأمَّهات يدعى غرانيار (Granier) فتفرَّغ لهذا العمل وبعد أسابيع قليلة أحضر المطلوب فصُبَّت حروف كافية لطبع عدَّة كتب والمرجَّح أنّ تلك المطبعة لم تجهَّز في المدرسة الرومانيَّة بل بقيت في عهدة الطبّاع لوتكا. وأخبارها مفقودة اليوم.

وأوَّل ما نشره الأب إليانو بالطبع التعليم المسيحيّ الشهير الذي صنَّفه الطوبويّ بطرس كنيزيوس اليسوعيّ فعرَّبه وأضاف إليه ملحقًا دحض فيه أخصّ الأضاليل الفاشية في الشرق وتمَّ طبعه بالحرف الكرشونيّ في نيسان من السنة ١٥٨٠، ونُسَخُ هذا الكتاب نادرة جدًّا لا يُعرف منه سوى نسخة مصونة في مكتبة فريبورغ من أعمال سويسرة. ففي الصفحة الأولى صورة المصلوب على الجلجلة مع هذا العنوان بحرفه:

«التعليم المسيحيّ على جاري عادة كنيسة رومية الذي يلزم علمها وحفظها لكلّ المؤمنين بالمسيح وهي على صفة السؤال والجواب في لسان العربيّ (sic) المختومة بمدينة رومية بأمر السيّد فافا غريغوْريوس الثالث عشر في يوم السابع من شهر نيسان سنة ١٥٨٠ مسيحيَّة».

وعلى الهامش باللاتينيَّة بخطّ أحد السيّاح المسمَّى سبستيان ڤارون كان أهداه الأب إليانو هذه النسخة إذ لقيه في سورية سنة ١٥٨١ :

Catechismus Arabicus Chaldaïco charactere per R.P. Joannem Babtistam Societatis Jesu Apostolicum in Phœnicia conscriptus. Et mihi Sebastiano Werron ab Authore in Syria dono datus. 1581.

وفي الصفحة الثانية صورة السيّد المسيح يقلّد بطرس رئاسة كنيسته وتحت الصورة آية متّى (ف ١٦): أنت الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني بيعتي..

وممّا طبعه أيضًا بعد تعريبه، كتاب المكرَّم لويس الغرناطيّ في سرَّي التوبة والقربان، وكذلك عرَّب وطبع قوانين المجمع التريدنتينيّ وجدَّد طبع دستور الأمانة الأرثوذكسيَّة الذي كان عرَّبه سابقًا سنة ١٥٦٦ كما روينا.

وذكر الأب سكّينيّ في تاريخ الرهبانيَّة اليسوعيَّة أنَّ الأب إليانو طبع كتبًا أخرى معرَّبة بقلمه منها التعليم الرومانيّ الذي كان ألَّفه الأب اليسوعيّ فرنسيس توريانو (Fr. Turiano) ثمَّ كتابًا في تفنيد أضاليل اليعاقبة والنساطرة (ولعلّهما الكتابان السابق ذكرهما) ثمَّ كتاب الاقتداء بالمسيح وصلوات القدّاس اللاتينيّ. وكلّ هذه التآليف أصبحت اليوم أعزّ من بيضة الديك. وكنّا أمَّلنا أن نجد منها نسخةً في دير سيّدة قنُّوبين في رحلتنا إليه في أوائل تشرين الأوَّل من السنة ١٩١٤، فلم يتحقَّق أملنا.

وكان الأب يوحنّا برونو يساعد الأب إليانو في نشر تلك المطبوعات ويهتمّ بتنظيم الموادّ التي ينبغي البحث عنها في المجمع المنويّ عقده في لبنان.

أمَّا الكردينال كرافًا محامي الطائفة المارونيَّة فأخذ يسعى في أمر درع الرئاسة لدى الحبر الأعظم ليرسله للسيّد البطريرك ميخائيل الرزّي إذ لم يَنَله بعد مع كونه بطريركًا منذ ١٣ سنة. وكان يحول دون منحه إيَّاه ما رواه الدويهيّ في تاريخه (ص ١٧١ و٤٣٩-٤٤١) عن شكايات قدّمها بعض أهل قبرس إلى الكرسيّ الرسوليّ يتّهمونه بها في صحَّة إيمانه. فأحبَّ الحبر الرومانيّ أن يتَّضح الأمر جليًّا. وزاد ارتياب الكرادلة لمَّا عرفا ما تضمَّنه الإنجيل المخطوط بيد البطريرك من النصوص غير السديدة فأبى بعض أمراء الكنيسة الإجابة إلى طلبته لكنَّ الأب إليانو أكَّد لهم حسن نيَّة البطريرك وشهد عن تقاه ورضاه التامّ بتعاليم الكنيسة الرومانيَّة مع استعداد جميع رؤساء الطائفة وأساقفتها لقبول أوامر الكرسيّ الرسوليّ. فأزالت هذه الشهادة الحيَّة كلّ ريب من عقل البابا والكرادلة الفاحصين وأسرع الحبر الأعظم في تقليد البطريرك الدرع المقدّس المرموز به إلى سلطانه على كنيسته وسلَّمه إلى الأب إليانو ليبلغه إلى غبطة البطريرك بعد تجديده أمامه تأدية الطاعة للحبر الرومانيّ.

وكذلك اهتمَّ الكردينال كرافًا بتهيئة ٣٠٠ كأس مع عدد وافر من الحلل البيعيَّة للأساقفة والكهنة ومن قوالب البرشان أودعها جميعًا عدَّة صناديق لتوزَّع في لبنان على الإكليروس المارونيّ.

فكلّ هذه الأشغال لم يمكن الأبوين أن ينجزاها إلاَّ في أواسط الربيع من السنة ١٥٨٠ فصمَّما حينئذٍ العزم على السفر في العشر الثاني من شهر أيّار. وأراد الأب الأقدس أن يؤازرهما بتعليمات واسعة لتتمَّ تلك السفارة على أحسن منوال فتتوثَّق نهائيًا عرى الاتّحاد بين بني مارون ومركز الوحدة الكاثوليكيَّة.

وقد حرَّر تلك التعليمات الكردينالان أنطون كرافًا سان سفرينو (Cal San Severino) باسم الحبر الأعظم، وهذه التعليمات مصونة حتَّى اليوم في سجلاَّت الرهبانيَّة اليسوعيَّة قد نشر منها المرحوم الأب أنطون ربَّاط ما سطَّره الكردينال كرافًا، فأثبته بنصّه الطليانيّ في المجلَّد الأوَّل من كتابه المعنون بالآثار الخطِّيَّة عن تاريخ الكنائس الشرقيَّة (ص ١٤٨-١٥١) وهي تتألَّف من ١٩ بندًا يوصي فيها الكردينال الأبوين اليسوعيّين بأن يتفقَّدا شؤون الطائفة في إيمانها وطقوسها وآثارها الكنائسيَّة وعاداتها في جميع أنحاء لبنان ويدوّنا كلّ ملحوظاتهما بالتدقيق وأن يقلّدا الدرع المقدَّس غبطة البطريرك بعد استثباتهما صحَّة إيمانه وطاعته للكرسيّ الرسوليّ، وأن يجتهدا في أن يصلحا بينه وبين الأساقفة الخارجين عن طاعته بعد تأديتهم الخضوع لرئيس كنيستهم. وتاريخ هذه الوصيَّة في ٧ أيّار ١٥٨٠.

أمّا وَصاة الكردينال سان سفرينو فتاريخ كتابتها في ١٠ أيّار ضمَّنها مرغوبات الحبر الأعظم بخصوص هذه السفارة فيقول للأبوين إنّ البابا بإرسالهما إلى المشرق لا يقصر نظره على الموارنة فقط بل يريد أن يسعيا بردّ كلّ الطوائف الشرقيَّة إلى حجر الكنيسة، ومن ثمَّ ينبغي عليهما أن يجتمعا برؤساء تلك الطوائف من أرمن ويعاقبة وكلدان وأقباط ليعرضا عليهم الاتّحاد مع الكنيسة الرومانيَّة بنبذ التعاليم الباطلة التي زرعها في قلوبهم عدوّ الله - ثمَّ يحرّضهما على انتخاب بعض الأولاد الأذكياء يرسلانهم إلى رومية ليتهذَّبوا

فيها ثمَّ يعودوا إلى موطنهم فينشروا بين ذويهم المعتقدات السديدة. ومن وصايا الكردينال أن يبحث الأبوان عن الآثار الكنسيَّة والمناشير البابويَّة التي أرسلت إلى الشرقيِّين فيأخذا صورتها لا سيَّما مناشير البابا أوجانيوس الرابع المرسلة بعد المجمعين الفلورنتينيّ واللاترانيّ.

وقد أضاف رئيس الرهبانيَّة اليسوعيَّة العامّ الأب مركوريان إلى هذه التعليمات وصايا أُخر نشرها أيضًا الأب أنطون ربَّاط في مجموعته (١: ١٤٥-١٤٧) مملوّة حكمةً يذكّر فيها المرسلَيْن بعظم المهنة التي عُهدت إليهما وكيف يجب عليهما أن يتصرّفا في سلوكهما الخاصّ بكلّ برّ وقداسة وفي معاملاتهما مع الرؤساء الشرقيّين بالمحبَّة والفطنة والأناة وبينهما بالاتّفاق التامّ إلى غير ذلك من التنبيهات الأبويَّة المشعرة بحسن نظر ذلك الرئيس الهمّام.

سفارة الأب يوحنّا إليانو الثانية إلى الموارنة (١٥٨٠-١٥٨٢)

كان موعد سفر الأب إليانو ورفيقه الأب برونو في أواسط أيّار ١٥٨٠ يوم عيد الربّ فركبا السفينة من البندقيَّة وأخذا من ذاك الحين يخدمان القريب فكانا يهتمّان بالمرضى ويرشدان رفقتهما في السفر ويقضيان بقيَّة الوقت في الفرائض التقويَّة. وكان الأب إليانو في ساعات الفراغ يعرّب المناشير البابويَّة المرسلة إلى السيّد البطريرك وإلى طائفته، أمّا الأب برونو فكان يعدّ كلّ شيء للمجمع المقصود.

وقد كان هذا السفر سعيدًا نجا فيه المركب من قرصان الجزائر الذين شاهدوهم عن بعد، وكانت الريح موافقة حتَّى إنّهم بعد ١٥ يومًا فقط بلغوا قبرس (٢٩ أيّار ١٥٨٠) وذلك من الأمور النادرة في تلك الأزمنة مع السفن الشراعيَّة.

نزل الأبوان إلى الجزيرة فاستقبلهما السنيور لويس قنصل البندقيَّة هناك على ما يظهر وساعدهما على قدر طاقته في كلّ حاجاتهما. وكان فكرهما أن يقلعا بعد قليل ليذهبا إلى طرابلس لكنَّ ربّان السفينة أَبى السفر قبل أن يبطل

الطاعون الفاشي في سورية. فاضطرَّ المرسلان إلى أن يبقيا في الجزيرة فقضيا ذلك الوقت في زيارة أسقف الموارنة وأقنعاه بأن يأتي إلى لبنان ليحضر المجمع مع بقيَّة الأساقفة. وكذلك زارا نصارى الجزيرة وعزَّياهم لما يلقونه من ظلم الأتراك الذين تملَّكوا على جزيرتهم منذ عشر سنوات. وخصَّا بعنايتهم الموارنة وكان عددهم على ما حرَّرا في رسائلهما نحو ١٥٠٠ نفس.

وبعد ثلاثة أسابيع وردت الأخبار عن بطلان الوباء فسافر المركب وكان قضى ٢٥ يومًا رابطًا في قبرس وبلغ إلى طرابلس في ٢٩ حزيران ١٥٨٠.

من طرابلس إلى قنُّوبين

تهافت عمّال الديوان في طرابلس وهم أخلاط من الترك واليهود وغيرهم على أمتعة الأبوين إليانو وبرونو ليفتّشوها فوقع نظرهم على ما أتيا به من الآنية الكنسيَّة والصور والكتب الدينيَّة فخافا أن يصيبهما بسببها أذًى وانزعاج لولا الوجيه المارونيّ يوسف حبيش، فإنَّه بمجاملته لرجلين من رؤساء العمّال طويلي القامة شديدَي الساعد أحدهما نصرانيّ من الروم والآخر يهوديّ أنقذ المرسلين من كلّ عنف وهوان.

ويوسف هذا هو الشيخ أبو منصور يوسف بن حبيش الذي أثنى عليه البطريرك الدويهيّ في تاريخه (ص ١٧٣) حيث قال إنَّه «كان صاحب الكلمة والحظوة عند الأمير منصور عسَّاف المتولّي وقتئذ على شماليّ لبنان وكسروان وعند ولده الأمير محمَّد». وكان الأب إليانو عرف فضله سابقًا في رحلته الأولى فاستفاد من حسن خدمه ونجا هذه المرَّة أيضًا من طمع العمّال بأداء شيء من الدراهم ولم يفقد من تلك الأمتعة سوى كأسٍ من نحاس مذهَّب أخذه أحد الأتراك. فشكر للشيخ يوسف معروفه وقدَّم له رسالة الكردينال كرافًا مع الهدايا المرسلة له من ذاك الصديق للموارنة في رومية. فسُرَّ الشيخ بها ووعد المرسلين خيرًا وأكَّد لهما أنَّه سيفرغ الجهد في حمايتهما حيثما حلاً. وكذلك عامِلا الديوان أحبَّ الأبوان أن يظهرا لهما ممنونيَّتهما فأهدى الأب إليانو النصرانيّ كتابًا مزيَّنًا بتصاوير بديعة مضمونة سيرة المسيح.

واليهوديّ أهداه نسخةً من التوراة العبرانيَّة. ثمَّ ودَّع الشيخ يوسف الذي كانت وفاته بعد ثلث سنين في ١٩ أيلول ١٥٨٣ فخلفه في منصبه أخوه الشيخ أبو يونس سليمان حبيش (الدويهيّ ص ١٧٣).

ومِن خدم الشيخ يوسف لطائفته أنَّه في السنة ١٥٧٠ لمَّا استولى أهل بيروت من المسلمين على كنيسة الموارنة وجعلوها قيصريَّة اتَّفق مع مشايخ بيت الدهّان وطائفة الروم الملكيِّين على أن يشركوا الموارنة في كنيسة السيّدة التي للملكيَّة في داخل المدينة على شرط أن يشترك الملكيُّون في كنيسة مار جرجس التي للموارنة خارج المدينة وهي التي تعرف اليوم بمقام الخضر قريبًا من نهر بيروت ضبطها علي باشا وجعلها جامعًا سنة ١٦٦١. وهو أيضًا الذي استخلص سنة ١٥٧٢ بواسطة الأمير منصور بن عسّاف دير قنُّوبين من الضرائب التي وزّعت عليه وكانت بالغةً مائتي سلطانيّ. والسلطانيّ ثُلثا القرش والقرش يومئذ كالريال اليوم (**تاريخ الموارنة ١٧٣**).

وكان السفير الرسوليّ عند وصوله إلى طرابلس أرسل ساعيًا إلى قنُّوبين ليعلم غبطة البطريرك ميخائيل بقدومه. فسُرَّ بذلك أيّ سرور وكان إذ ذاك طريح الفراش فودّ لو يستطيع أن يخفّ لاستقبال ممثّل الحبر الأعظم لكنَّه أوفد إلى طرابلس لينوب عنه المطران جرجس البسلوقيتيّ مع أحد الرهبان وصحبهما ببعض الألطاف والزاد للطريق. فلمَّا بلغا المدينة رحَّبا بالمرسلَيْن وقدَّما لهما باسم السيّد البطريرك التهانئ بوصولهما سالمين وشكرا قداسة البابا والكردينال كرافًا على التفاتهما إلى الطائفة المارونيَّة.

وقد وصف الأب إليانو في رسالته (*Litteræ annuæ*, 1581, p. 202). مسيره البهيج من طرابلس إلى قنُّوبين وتقاطر أهل الجبل لاستقبال الوفد الرسوليّ فمنهم مَن كان يتغنَّى بالأهازيج ومنهم مَن يدقّ الطبول والدفوف وينفخ الزمّارات. وكان أهل كلّ قرية يتزاحمون على السطوح عند مرورهم والنساء يتهلّلن بأصوات الفرح (الزلاغيط) ويصرخن: أنتم نورنا ونجاتنا فليحفظ الله الكرسيّ البطرسيّ (الله يخلّي لنا البابا) ونائبه.

قال الدويهيّ في تاريخ سنة ١٥٨٠ (ص ١٧٧): «فلمَّا وصل جوان باطيشتا وجوان برونا إلى الجبل ودنوا من الكرسيّ كان البطريرك مخائيل طريح الفراش فأمر أخاه الأسقف سركيس أن يجمع الإكليروس ليخرجوا إلى لقائهما بالمباخر وقراءة المزامير احترامًا لمَن أرسلهما».

وكان وصول الأبوين إلى قنُّوبين يوم الثلثاء ٩ تمُّوز. فأحسن السيّد البطريرك استقبالهما وقبَّلهما بإذراف الدموع فرحًا. وشمل هذا السرور أخاه المطران سركيس الرزّي وأساقفة الكرسيّ وجميع سكّان الدير. وبلغ فرحهم كلّ مبلغ إذ علموا بما أتى به المرسلان من المناشير البابويَّة ومن الهدايا الثمينة فكان قلبهم مفعمًا شكرًا ولسانهم مطلقًا في الثناء على قداسة الحبر الرومانيّ ونيافة الكردينال كرافًا. وقد وقع هذا الاستقبال الوقع الطيّب في قلب المرسلين الرسوليّين فتأكّد الأب إليانو أنَّ هذه السفارة الثانية سوف تأتي بالثمار الطيّبة وتنزع من الزرع الجيّد ما اختلط به من الزوان فتتأصّل الأمانة الكاثوليكيَّة في تلك التربة الصالحة. ثمَّ قضيا ذلك لنهار يتحدَّثان عن رومية وأهلها وآثارها ولا سيَّما عن محبَّة البابا غريغوريوس والكردينال كرافًا لطائفتهم المارونيَّة وعن الولدين المرسلين إلى أمّ المدائن ليتخرَّجا فيها في الآداب الكنسيَّة.

ثمَّ جعلا يوم الخميس ٢١ تمُّوز موعدًا لاجتماع الإكليروس وأعيان الطائفة ليبلّغاهم رسميًّا كتابات الحبر الأعظم والكردينال المحامي وعرض الهدايا التي تكرَّما بها على غبطة البطريرك وحاشيته الكريمة.

ففي اليوم المذكور تمَّ ذاك الاجتماع في غرفة السيّد البطريرك. فدخل المرسلان فوجدا غبطته وعلى يمينه المطران سركيس أخاه مع نخبة من أرباب الدين ووجوه الملَّة حوله فأخذ الأب يوحنّا إليانو يفصّل أمامهم سبب بعثته إليهم والغاية الروحيَّة التي توخّاها الكرسيّ الرسوليّ من تلك السفارة ثمَّ أورد لهم خلاصة ما تتضمَّنه البراءة الرسوليَّة إلى غبطة البطريرك مع بقيَّة الرسائل الموجَّهة إليه وإلى شعبه. فلمَّا انتهى أخذ البطريرك براءة البابا وقبَّلها ووضعها على رأسه شاكرًا للأب الأقدس حنوَّه وتعطُّفه على أولاده.

ثمَّ أبرز السفير البابويّ ألطاف الحبر الأعظم وكان في مقدِّمتها الدرع المقدَّس الذي أُعدَّ للسيّد البطريرك تثبيتًا لسلطته الروحيَّة، ثمَّ كمّيَّة من البلسم لاستحضار الميرون المقدَّس مع الآنية اللازمة لحفظه وحفظ الزيت المبارك. ثمَّ عدد وافر من الكؤوس ووجوه الهياكل وقوالب البرشان والصور الغالية الثمن وغير ذلك من الأمتعة التقويَّة من جملتها ألف مسبحة ورديَّة كان الأبوان اشتريا حبوبها وموادّها في البندقيَّة بخمسين ريالًا واشتغلا مع الأخ المساعد في نظمها بالأسلاك في ساعات الفراغ.

ولشدَّ ما سُرَّ البطريرك والسادة الأساقفة بالكتب المطبوعة التي أتى بها المرسلان وكان البابا أفرغ جهده في استحضار الحروف لطبعها. وكان بين تلك المطبوعات التعليم المسيحيّ السابق ذكره (ص ٤٤) الذي ينسبه بعضهم إلى الأب جوان برونو وبعضهم إلى الأب إليانو والمرجَّح أنَّه للطوبويّ بطرس كانيزيوس إلاَّ أنَّ تعريبه للأب إليانو فطلب كلّ الحضور منه نسخًا فوزَّعه عليهم وعلى كلّ مَن شاء من نصارى لبنان. فكان إقبالهم عليه داعيًا لفرح المرسلين إذ استنتجا منه خلوص رغبتهم في درس حقائق الدين القويم.

وكان المرسلان أتيا بعدد عديد من الحلل الكهنوتيَّة والبدلات لكنَّهما رأيا أنَّها مع وفرتها لا تكفي لجميع الكنائس. وكانت هذه الحلل مبطَّنة ذات لونين على وجهَيْها ففتّقها الأبوان والشمّاس اليسوعيّ المساعد المسمَّى برنردينو وأفردوا كلّ لونٍ وحده فضوعف بذلك عددها وأمكن توزيعها على معظم كنائس لبنان. وكذلك لم يفِ عدد الكؤوس بحاجة الكنائس فاستدان الأب إليانو خمسين ليرة من تاجر في طرابلس اسمه ريغولو ووفَّر عددها ثمَّ بلَّغ الكردينال كرافّا خبر دينه راجيًا أن يوفي عنه كما قرَّر ذلك في رسالته إليه المؤرّخة في ١٩ تمُّوز ١٥٨٠.

وما كاد الأبوان يأخذان نصيبًا من الراحة بعد أتعاب سفرهما حتَّى فكَّرا في القيام بمأموريَّتهما، فاستدعيا الإكليروس والشعب وأخذا يسعيان بإرشادهم. فباشر الأب إليانو بتلاوة التعليم المسيحيّ السابق ذكره مع شرح ما فيه من العقائد الدينيَّة. وكان يتَّسع في بيان القضايا التي وجدها في كتب

الموارنة مبهمةً أو غير موافقة التعليم الكاثوليكيّ فكان الجميع يُقبِلون على استماعه بشوق ويرتاحون إلى تعاليمه برغبة.

وممّا عرضه على مسامع غطبة البطريرك والسادة الأساقفة صورة قوانين المجمع المنويّ عقده قريبًا وكان حرَّر تلك الصورة في مدَّة سفره من البندقيَّة إلى قبرس مع الأب برونو وقسَّمه فصولًا كما يلي: في الثالوث الأقدس. في انبثاق الروح القدس. في طبيعتَي السيّد المسيح ومشيئتيهِ وفعلَيْهِ. في صلاة التقديس المثلَّث (Trisagion). في المطهر. في عدد الأسرار وصورتها ورتبها واستعمالها إلخ. في الإصلاح. فوجد السامعون هذه القوانين مملوءة حكمةً وصوابًا وإنَّما اعترضوا عليها ببعض الاعتراضات التي أجاب عليها المرسلان بحيث أقنعا المعترضين، وقد أفادا الحبر الأعظم عن كلّ ما جرى من ذلك فأثنى البابا على عملهما وحرَّضهما على مواصلة مهمَّتهما بكلّ نشاط وفطنة.

ثمَّ ثبتا على تلك الإرشادات إلى عيد انتقال السيّدة إلى السماء فكانا يفسّران كتبًا أخرى أتيا بها لإفادة الجمهور. وكانا يقضيان بقيَّة الوقت في الأشغال اليدويَّة وذلك أنَّهما كانا تعلَّما في إيطالية صناعة تجليد الكتب بمساعدة الأخ برنردينو رفيقهما فجلَّد ثلاثتهم كثيرًا من الكتب التي وُزّعت على الكهنة وجمهور الشعب.

المجمع الملّيّ في ١٦ آب ١٥٨٠

إستعدَّ الموارنة كمألوف عادتهم في ذلك الوقت لعيد السيّدة بالصوم والقطاعة مدَّة خمسة عشر يومًا وبالصلوات والفرائض التقويَّة والرتب الكنسيَّة التي حضرها المرسلان مثنيَيْن على تكريم الشعب البتولَ الطاهرة. ثمَّ أرسل السيّد البطريرك واستقدم الأساقفة والكهنة وسبعة من أعيان الطائفة ليحضروا حفلات العيد في الكرسيّ البطريركيّ بدون أن يذكر شيئًا من أمر المجمع لئلاً يحدث بذلك بعض سوء تفاهم.

فلمَّا كان بيرامون العيد أخذ المدعوّون وكثير من أهل القرى يبادرون مسرعين إلى دير سيِّدة قنُّوبين ليقيموا ذلك العيد بأعظم ما يمكن من الرونق

والأبّهة وخصوصًا بسبب حضور نوّاب الحبر الأعظم الرومانيّ حتّى بلغ عددهم في غلس العيد ٢٢٠٠ نسمة، فضاقت بهم أرجاء الدير مع رحبها، ومع ما كان عليه الكرسيّ من الفقر في تلك الأيّام رحّب البطريرك بجميع الوافدين وأحسن ضيافتهم. وكان الوفود عند قدومهم يلثمون أنامل غبطته ثمَّ يقدّمون واجبات الإكرام للأبوين ويفيضون في مديح قداسة البابا الذي أرسلهما إليهم.

ولمّا حانت الساعة في ضحى النهار لبس السيّد البطريرك حلى التقديس وسار بكلّ احتفال إلى كنيسة الدير وإذا هي مزدانة بأفخر زينتها تتلألأ الأنوار على هيكلها. وكان بجانبيه المرسلان الرسوليّان وحوله السادة الأساقفة وجمهور الكهنة والشعب. وكان أمر غبطة البطريرك بأن تُعدّ للقاصدين سدّتان يجلسان عليهما على جانب الهيكل وأراد هو مع الأساقفة أن يجلسوا على درجات الهيكل فلم يرضَ الأبوان بهذا الإكرام الزائد ولم يجلسا حتّى أحضر للسيّد البطريرك عرشه ولجميع أساقفته مقاعد آهلة برتبهم. فباشر غبطته بقدّاس احتفاليّ غاية في الأبّهة والرونق كما تقتضيه الأحوال.

ولمّا انتهت الذبيحة الإلهيّة تقدّم الأب إليانو أمام المذبح وتلا الصلوات إلى الروح القدس التماسًا لفيض نِعَمه. ثمَّ جلس كلّ في مرتبته فلفظ الأب المذكور خطابًا أنيقًا في العربيّة افتتح به المجمع المقصود فبيّن بوجيز الكلام وأوضحه ما هي غاية سفارتهما وما يُنتظر من الثمار الطيّبة بانعقاد ذلك المجمع. ولأنّ المجامع يفتتحها عادةً أرباب الكنيسة بتلاوة صورة الإيمان أشار على الحضور بأن يتلوها بعده عبارةً فعبارة كما وضعَتْها الكنيسة الرومانيّة أمّ كنائس المعمور المبنيّة على الصخرة البطرسيّة فيباركون ما تباركه ويلعنون ما تلعنه. فما سمع الجمهور هذا الكلام حتّى هتفوا بصوت واحد: لا نعتقد إلاّ ما تعتقده الكنيسة الرومانيّة فإيمانها إيماننا ولأجل هذا الإيمان نحن مستعدّون لقبول الموت والعذاب[١].

(١) كذا روى الأب إليانو في رسائله التي نقل خلاصتها الأب سكّيني مؤرّخ الرهبانيّة اليسوعيّة الشهير (Sacchini, I, 100-105).

فوزَّع الخطيب حينئذ نسخًا مجلَّدةً من صورة الإيمان المذكورة ثمَّ جثا راكعًا أمام المذبح وتلا بصوت جهور ذلك الدستور والحضور يكرّرون بعده عباراته. ولمَّا أنجز تلاوته أخذ الإنجيل الطاهر وتتبَّع الصفوف مباشرةً بالسيّد البطريرك ثمَّ الأساقفة ثمَّ الكهنة ثمَّ الشعب طالبًا منهم جميعًا أن يقسموا عليه بوضع اليد أنَّهم يقرُّون بتلك العقائد ولا يخالفونها البتَّة. فأقبل الجميع على ذلك القسَم بفرح جزيل مع تكرار أصوات الرضى والتهليل.

وفي أثر ذلك أردف الخطيب قائلًا: إنَّ بطاركة الطائفة المارونيَّة منذ عهد البطريرك إرميا العمشيتيّ في زمن البابا زخيا (إينوشنسيوس) الثالث الذي كان يرأس الكنيسة سنة ١٢١٥ قد جروا على العادة عند انتخابهم لرئاسة الكرسيّ الإنطاكيّ على الموارنة أن يرسلوا وفدًا إلى الحبر الرومانيّ ليثبّتهم في سلطتهم. فبموجب هذا التقليد القديم قد طلب غبطة البطريرك الحاليّ هذه النعمة من الحبر الأعظم الذي لم يتريَّث أن يمنحها إيَّاه تلبيةً لدعوة الكردينال كرافًا الذي قاوم بعض المعترضين على ذلك. ومن ثمَّ قد سلَّمني قداسته البراءة المؤذنة بتثبيته ومع البراءة رقيم لسيادة المطران سركيس شقيقه يقيمه به نائبًا عنه ليسلّمه باسمه الدرع المقدَّس بعد أن يُعلن بإيمانه وفقًا للصورة المرسلة من قداسته. ثمَّ شرح الأب إليانو معنى ذلك الدرع وأثبت عظم شأنه وفسَّر البراءة الرسوليَّة المؤذنة بتقليده وبيَّن للمطران سركيس كيف يخوّله لغبطة البطريرك، فتمَّ الأمر كما كان مفصَّلًا في الرقيم الوارد باسمه فتلا السيّد البطريرك صورة الإيمان والخضوع للكرسيّ الرسوليّ وأقسم بأنَّه لا يحيد عنه فوضع حينئذٍ السيّد سركيس ذلك الوسام على عنق البطريرك.

فعَلت إذ ذاك أصوات الفرح لمَّا رأت الجموع رئيس الطائفة الأجلّ مزدانًا بشعار اعتصامه المتين بمركز الخلافة البطرسيَّة فأخذوا يهتفون: «المجد لله كيرياليسون. العزّ والفخر للبابا غريغوريوس كيرياليسون. الشكر للكردينال كرافًا محامي طائفتنا كيرياليسون. الثناء والحمد للأب جوان باطيشتا ولرفيقه. وليُدم الله على رأسنا غبطة سيّدنا البطريرك ويعزّز به طائفتنا المارونيَّة الابنة المطيعة للكنيسة الرومانيَّة». وكانت الأجراس في أثناء ذلك تُقرع فيتردَّد

صداها في تلك الأودية العميقة وهي تستفزُّ الحميَّة الدينيَّة في كلّ القلوب. فكانت الدموع تهطل من عيون كثيرين من الكهنة والشيوخ سرورًا بينما كان المرسلان يقدّمان لله الشكر العميم لمباركته على أعمالهما مؤمّلَيْن خيرًا من المجمع المفتتح بتلك الهشاشة والأريحيَّة، مستمدَّين من مراحمه أن يكون ختامه صالحًا كافتتاحه وهما يعلمان حقّ العلم أنَّ أبا الظلمات يترصَّد لعمل الله ليعيقه ويعرقله.

ثمَّ تخلَّى السيّد البطريرك والسادة الأساقفة مع نائبي الحبر الأعظم لدرس قضايا المجمع والبحث فيها فعقدوا لذلك عدَّة جلسات مدَّة ثلثة أيّام فأيَّدوا باتّفاق الأصوات ما عرضه المرسلان بخصوص عقائد الإيمان في الثالوث الأقدس وانبثاق الروح القدس وطبيعتَي السيّد المسيح ومشيئتَيه وفي صلاة التقديس المثلَّث والصلاة على الموتى وفي أسرار الكنيسة السبعة إجمالًا وإفرادًا وفي الإصلاح مشتملًا على كلّ رتب الكهنوت وتصريف أربابه مع رأس الكنيسة الجامعة ورؤسائهم ورعاياهم وما يجب عليهم قبوله من الأسفار الإلهيَّة ونفي كتب الهراطقة. وكان الأب إليانو يعرض كلّ ذلك فصلًا فصلًا ويدوّنه بالعربيَّة فيمضي عليه آباء المجمع كلّ واحد باسمه مع ختمه وسُجّلت أعمال هذا المجمع لتُحفظ في الكرسيّ البطريركيّ. ونقلها الأب إليانو إلى اللاتينيَّة فبقيت محفوظةً في سجلاَّت الرهبانيَّة اليسوعيَّة حتّى نشرها المرحوم الأب أنطون ربَّاط في مجموعه المعنون (*Documents inédits pour servir à l'Histoire du Christianisme en Orient*, I, 152-169). وهي غاية في الفائدة لمعرفة تاريخ الطائفة المارونيَّة وردّ الشبهات التي اتُّهم بها البعض الأب جوان باطيشتا. وترى في آخرها أسماء المثبتين لأعمال المجمع، أوَّلها اسم السيّد البطريرك ميخائيل الرزّي يليه اسم القاصدين الرسوليّين ثمَّ الأساقفة سركيس من كفرحورا ويعقوب العاقوريّ وجرجس البسلوقيتيّ ويوحنّا الأهدنيّ وإقليمس الأهدنيّ ويوسف مطران قبرس ويوحنّا الحصرونيّ وكلّ منهم يضيف إلى اسمه قوله: «قد رضيتُ وختمتُ» وهذه الأعمال في عشرة أبواب ولكلّ باب عدَّة فصول وكلُّها باللاتينيَّة، أمّا الأصل العربيّ فلا يعلم

ماذا حلّ به. والعجب أنَّ مؤرّخ الطائفة المارونيّة البطريرك إسطفان الدويهيّ لا يشير إليه مطلقًا وكأنَّه يجهله، وغاية ما ذكر هناك قوله عن تقليد الدرع للبطريرك (ص ١٧٧ و٤٤٤): «وفي عيد انتقال السيّدة وهو عيد كنيسة الكرسيّ أمر (أي البطريرك) بحضور جميع الكهنة وأعيان الشعب ولبس الدرع وأقام القدّاس وأقسم بالطاعة بموجب الصورة التي رتَّبها الآباء في مجمع ترنتو».

وفي أثناء المجمع حضر إلى قنُّوبين أحد أساقفة اليعاقبة وبصحبته رجل من علماء طائفته. فأكرم المجتمعون مثواهما ودعوهما إلى حضور جلسات المجمع ورخَّصوا لهما أن يعرضا ما شاءا من المشاكل الدينيَّة على آباء المجمع وقد سُرَّ القاصدان بمجيئهما وأحبَّا أن يُعلنا اعتقادهما في طبيعتَي المسيح ليتّخذ المرسلان من قولهما فرصةً لإيضاح العقائد الكاثوليكيَّة. ولمَّا صرَّح الأب إليانو بأنّ الكنيسة الرومانيَّة تعتقد في السيّد المسيح طبيعتين ومشيئتَين وفعلَين أنكر الأسقف اليعقوبيّ قائلًا: بل طبيعة واحدة - قال الأب اليانو: «أيُّ طبيعةٍ البشريَّة أو الإلهيَّة؟» - قال رفيق الأسقف: الطبيعة الإلهيَّة بلا شكّ - قال الأب إليانو: «وكيف أمكن الطبيعة الإلهيَّة أن تولد وتتألَّم وتموت؟» - قال الأسقف: لا بل هي الطبيعة البشريَّة. - قال الأب: فكان إذن السيّد المسيح خلوًا من الطبيعة الإلهيَّة فليس هو إذن إلهًا. وذلك ما تخالفه أعماله وأقواله إذ ينسب إلى نفسه اللاهوت وهو يتكلَّم كإله ويجترح المعجزات كإله وكسيِّد الخليقة». واندفع الأب إليانو في شرح هذه الحقيقة شرحًا وافيًا مثبتًا بآيات الإنجيل وأقوال الآباء طبيعتي السيّد المسيح ومشيئتَيه وفعلَيه في أقنومه الواحد حتَّى أبكم الأسقف ورفيقه المعترضَيْن فلم يعودا ينبسا ببنت شفة. فسرّ الموارنة بانتصار الحقيقة ولم يتوقَّفوا عن التوقيع على كون المسيح ذا طبيعتين ومشيئتَيْن وفعلَيْن ولم يبقَ لهم ريبٌ في ذلك.

وفي مدَّة المجمع عينه في أوقات الفراغ قصد المرسلان أن يوزِّعا ما أتيا به من الموادّ التقويَّة كالصور والمسابح والأيقونات والكتب مع حسنات أخرى تكرَّم بها الحبر الأعظم على فقراء الطائفة. وكذلك دعوا الكهنة ليقسّما

عليهم الحلل المقدَّسة وآنية التقديس وإنَّما أخذا في ذلك مشورة السيّد البطريرك وشقيقه المطران سركيس ووزَّعا تلك الحلل ومثلها الكؤوس على الكنائس الفقيرة. أمّا قوالب البرشان فلقلَّة عددها لم تُعطَ إلاَّ لبعض الكنائس الكبرى على شرط أن تهيّئ القربان للكنائس المجاورة. بيد أنَّ الأساقفة ارتأوا أنّ حقوقهم قد بُخِست بهذا التوزيع وهم أحقّ من الكهنة بتلك الهدايا. فوعدهم الأب إليانو بأنّه يطلب لهم من رومية ما هو أغلى منها ثمنًا وأرفع شأنًا. فكتب في هذا الصدد إلى الكردينال كرافّا في ١٩ تمّوز ١٥٨٠ وخصَّ بالذكر المطران سركيس وطلب له بدلةً فاخرة، وممَّا كتبه أنَّ هذه الهدايا ألَّفت قلوب اللبنانيّين فقبلوها بملء الشكر ومزيد الفرح. وكتب أيضًا في المعنى للحبر الأعظم ووصف له خلاصة ما جرى لهما تلك المدَّة.

وكان في تلك الأثناء بعض الغشماء ومحبّي الفتن أشاعوا بين الموارنة البعيدين عن الجبل كدمشق وبعلبكّ وقبرس أنَّ الحبر الأعظم أرسل القاصدين ليبدّلا طقوسهم ويكلّف الطائفة ضرائب ماليَّة. فبلغت إلى الكرسيّ البطريركيّ رسائل بهذا الصدد وقف عليها الأبوان. فلئلّا تسري تلك الأراجيف اجتمعا بأساقفة المدن المذكورة قبل رجوعهم إلى أبرشيّاتهم وأوصياهم بتفنيد تلك الإشاعات الباطلة وخلوص محبَّة الحبر الرومانيّ لكنائسهم. وهكذا فعل السيّد البطريرك فكان عند وداعه للأساقفة ووجوه الشعب يحضُّهم على الاعتصام بالإيمان الكاثوليكيّ الرومانيّ وعلى الدفاع عنه إلى الموت. وأوصاهم بأن يقبلوا بكلّ إكرام القاصدين عندما يزورانهم وبمعيَّتهما أحد أساقفة الكرسيّ إن لم يستطع هو أن يرافقهما، وأن يخضعوا لأوامرهما بخصوص فحص الكتب المخطوطة فينقادوا لحكمهما فيها ويصلحوها أو يحرقوها كما يقضيان.

ومن أثمار المجمع الذي مرَّ لنا ذكره أنَّ القاصدين أمكنهما إصلاح ذات البين الواقع بين السيّد البطريرك ميخائيل وبعض أساقفة الطائفة وهم ثلثة يعقوب الحاقلانيّ والحبيس يونان وأخوه القسّ يوسف ابنا علوان من سمر جبيل، كان المطران داود وكيل دير قزحيّا سقَّفهم بدون مشورة البطريرك

فربطهم البطريرك ولم يرضَ بحلّهم من الرباط في رحلة الأب إليانو الأولى. ففي هذه السفارة الثانية استنفد الأب إليانو وسعه في حسم الشرّ فدعا إليه أولئك الأساقفة وخاطبهم مرارًا حتَّى أقنعهم بأن يذهبوا وينطرحوا عند أقدام غبطة البطريرك ويستمدُّوا منه الصفح عن ذنبهم ويقبلوا ما يفرضه عليهم من التأديبات ففعلوا: وكان القاصدان استرحما لأجلهم السيّد البطريرك وساعدهما في ذلك الشيخ يوسف حبيش فرحمهم وصالحهم لكنّه منعهم من التصرُّف بحقوق الأسقفيَّة. وهكذا تمَّ هذا الشقاق الذي طالت مدَّته نحو ثلث سنين كما فصَّل ذلك الأب إليانو برسائله إلى الحبر الأعظم على خلاف ما ذكر الدويهيّ (ص ١٧٥) من أنَّ «ذلك انتهى بعد ثلاثة أشهر بشفاعة المقدَّم مُقْلد والشدياق خاطر» والله أعلم.

زيارة الأب إليانو لقرى لبنان

لم يشأ السفير الرسوليّ الأب يوحنّا إليانو ورفيقه الأب برونو أن تبقى أعمال مجمع قنُّوبين حبرًا على ورق مطمورةً في زوايا المقام البطريركيّ بل صمَّما العزم على نشر مضامينها في أنحاء لبنان فيجني ثمارَها الروحيَّة ونِعَمها الخلاصيَّة جميع أبناء مارون. ولذلك قصدا زيارة قرى لبنان وتفقُّد شؤون الطائفة وإصلاح ما لعلَّه يكون طرأ على بنيها من الأضاليل لمجاورتهم المِلل غير النصرانيَّة وأصحاب البدع المشذوبة بالحرم.

فعرضا الأمر على غبطة البطريرك ميخائيل وعلى أخيه المطران سركيس فاستصوبا رأيهما لكنّهما أنذراهما بما يحدق بهما من الأخطار في تجوالهما بين أمم غريبة وجواسيس الحكومة التركيَّة التي تعدُّ الأجانب كأعدائها فتتّهمهم بقصد بلادها لترويج سياستهم الغشيمة.

فاستدراكًا لهذا الخطر استشار الأب إليانو الشيخ يوسف حبيش لعلمه بموقعه عند أمير لبنان الشماليّ منصور عسّاف فاختار رجلًا من أصحابه أوعز إليه بمرافقة الزائر الرسوليّ على شرط أن يدفع له أجرة خدمته. وأشار السيّد البطريرك إلى الأب إليانو أن يلبس ثياب الكهنة الموارنة ويطوف القرى دون

رفيقه الأب برونو لأنّه لمعرفته اللغة العربيَّة وعادات الوطن لا يُستراب بجنسيَّته وهكذا قرَّ الأمر كما روى ذلك الأب إليانو في أحد مكاتيبه إلى رئيسه العامّ مصرّحًا بملء اتّكاله على الله واستعداده لاحتمال كلّ المشقّات في سبيل الكنيسة وخدمة الأمَّة المارونيَّة.

ولم يلبث الأب المذكور أن يباشر بالزيارة المنويَّة مبتدئًا بالقرى المجاورة لدير قنُّوبين كالحدث وبشرَّاي وإهدن وحصرون. وسار أوَّلًا في رفقته السيّد البطريرك بنفسه ثمَّ أصحبَهُ ببعض نوّابه.

وقد وصف الأب إليانو في رسائله إلى الكردينال كرافًا وإلى رئيسه العامّ الأب إفَرَرْد مركوريان في أيلول وتشرين ١٥٨٠ سلوكه في تلك الزيارات. قال إنَّه يدعو الشعب والكهنة ويحرّضهم على الاستمساك بعرى الإيمان والطاعة للكرسيّ الرسوليّ ويشرح لهم خلاصة المعتقدات المسيحيَّة وخصوصًا العقائد التي وقعت فيها بعض الشبهات أو شوَّهها في كتبهم الطقسيَّة جهلة النسّاخ أو المبتدعون. وكان في الوقت عينه يُعدّ الشعب والأحداث لاقتبال سرّ التثبيت الذي رأى بعض الخلل في منحه مع المعموديَّة فكان السيّد البطريرك يمنحه لجميع الشعب بعد أن يفسّر لهم الأب إليانو ما ينوط به. ثمَّ كان الزائر الرسوليّ يوزّع عليهم الصور والمسابح وبعض الحسنات ويعتني خصوصًا بإرشاد الكهنة ليحسنوا تدبير رعاياهم.

وجعل الأب إليانو أوَّل اهتمامه في تلك الزيارات نشر قوانين مجمع قنُّوبين في كلّ أنحاء الجبل، واتَّفق مع السيِّد البطريرك أن يختصر موادَّها ويستصفي لبابها ويعدّد نسخها لكي توضع نسخة منها في كلّ كنيسة ليطّلع عليها الجميع. وفي سجلاَّت الرهبانيَّة اليسوعيَّة نسخة منها باللاتينيَّة كما صنَّفها الأب إليانو باسم البطريرك ثمَّ عرَّبها وكتب منها مائتي نسخة. وهذه صورتها:

وصايا غبطة السيّد ميخائيل الرزّي
بطريرك الطائفة المارونيَّة الواجب على الجميع قبولها وحفظها

الباب الأوّل

١ وصايا عموميّة

١) يجب ذكر الابن الإلهيّ مع الآب في دستور الإيمان عند ذكر انبثاق الروح القدس (المنبثق من الآب والابن).

٢) كما أنّنا نعتقد وجود طبيعتين في السيّد المسيح ونسجد لهما كذلك نعترف بأنّ في شخصه الإلهيّ الوحيد مشيئتَيْن وفعلَيْن.

٣) يجب تلاوة التقديس المثلّث على هذه الصورة: «قدُّوس الله قدُّوس القويّ قدُّوس الذي لا يموت» دون أن يزاد عليه «الذي صلب لأجلنا» فإنّ هذه العبارة مختصّة بالأقنوم الثاني.

٤) يعلّمنا الإيمان الكاثوليكيّ أنّ المؤمنين الذين يموتون في حالة البرارة دون الوفاء التامّ عن خطاياهم مع إهمالهم لثمار التوبة اللائقة تُطهَّر نفوسهم بعد الوفاة بعذابات المطهر ويمكن المؤمنين الأحياء أن يخفّفوا تلك الأوجاع بتقدمتهم على نيّتهم ذبيحة القدّاس الطاهرة والصلوات والحسنات وغير ذلك من الأعمال الصالحة.

٥) يجب عماد الأطفال قبل أربعين يومًا لما يتهدّد حياتهم من المخاطر العديدة ومن المعلوم أنّهم إذا ماتوا دون هذا السرّ يُحرمون إلى الأبد من الملكوت السماويّ.

٦) ليس للكاهن سلطة بأن يمسح جبين المعمَّد بالميرون فإنّ ذلك مختصّ بالأسقف الذي يمنح سرّ التثبيت للأولاد البالغين السنة السابعة من عمرهم[١].

٧) لا يجوز توزيع القربان على الأحداث قبل بلوغهم سنّ الرشاد.

٨) على كلّ المؤمنين أن يعترفوا بخطاياهم لكاهنهم ثلاث مرّات في السنة أو مرّة على الأقلّ ويتناولوا من يده على عيد الفصح.

٩) إذا حُفظ القربان في الكنيسة يجب تجديده على الأقلّ كلّ شهرين.

١٠) إذا انفصل الرجل وزوجته عن بعضهما بسبب الزنا لا يجوز لهما عقد زواج آخر قبل وفاة أحدهما. ولكن إذا اصطلحها لا بأس أن يعيشا معًا.

---

(١) هذا مسموح به في الطوائف الشرقيّة برخصة الحبر الأعظم ضمنًا.

١١) يجب على رُعاة الكنائس أن يعلّموا أيّام الآحاد والأعياد جميع أبناء رعيّتهم دستور الإيمان ووصايا الله والصلاة الربيّة والسلام الملائكيّ وبقيّة الأشياء المفيدة للخلاص الأبديّ.

١٢) يحسن بالمؤمنين تلاوة الورديّة مع تأمُّل أسرارها.

الباب الثاني

٢ وصايا خاصّة بالأسرار المقدّسة

إنَّ في توزيع الأسرار أعمالًا وأقوالًا عديدة يتولّاها الكاهن إلاَّ أنَّ بينها ما هو ضروريّ وجوهريّ حتّى لو أُهمل لا ينال السرّ دونه. وهذه قائمتها:

١) في المعموديّة يجب أن يسكب الكاهن ماءً طبيعيًا على رأس الولد أو يغطّسه في جرن العماد وهو يقول في الوقت ذاته: إنّي أعمّدك باسم الآب والابن والروح القدس.

٢) في سرّ القربان يجب اتّخاذ خبز البُرّ وخمر الكرم ممزوجًا قبل تقدمته بقليل من الماء ويجب على الكاهن أن يتلو على خبز الذبيحة هذه الألفاظ: «هذا هو جسدي» وعلى الخمر الممزوج بالماء: «هذا هو كأس دمي للعهد الجديد الأبديّ وسرّ الإيمان الذي يُهرق لأجلكم ولأجل كثيرين لمغفرة الخطايا».

٣) في سرّ التوبة يجب على المعترف بعد الفحص المدقّق أن يقرّ بجميع خطاياه المميتة التي يعرف أنّه اقترفها. ويجب على الكاهن بعد سماعه بإقرار تلك الخطايا أن يتلو على التائب صورة الحلّة هذه: «إنّي أحلُّك من جميع خطاياك باسم الآب والابن والروح القدس».

٤) في سرّ المشحة يجب على الكاهن أن يمسح بالزيت المكرَّس ببركة الأسقف عيني المريض المشرف على الموت وأذنَيْه ومنخرَيْه وشفتَيْه ويدَيْه ورجلَيْه وكليتَيْه بينما يتلو على كلّ عضوٍ قوله: ليمنحك الربّ بواسطة هذه المسحة وبرحمته تعالى المغفرة عن كلّ ما اقترفتَهُ «بنظرك» أو «بسمعك»... إلخ.

٥) في سرّ الزواج لا بدّ من رضى الزوجَيْن المتبادل الظاهر علنًا بهذا اللفظ أو بما يشبهه: إنّي أقبلكِ كزوجة لي... إنّي أقبلكَ كزوجي.

فهذه خلاصة مجمع قنُّوبين انتشرت بمساعي الأب إليانو في كلّ أنحاء الجبل وفي المدن حيثما كان يقطن الموارنة كطرابلس وحلب ودمشق. وهو

يكرّر مرارًا في رسائله أنَّها أفادت كثيرًا في إزالة الأضاليل السارية في الشعب وأنَّ السيّد البطريرك ميخائيل سرَّ بها ووقَّعها بإمضائه. وكان الإكليروس والشعب عمومًا يرضخون لحكم الأب إليانو ويقبلون تعليمه إلاَّ في مادَّة الطلاق فإنَّهم اعترضوا عليه أنَّه يصعب إقناع الناس على ترك الزواج عند طلاق أحد الزوجين لسقوطه في زنًى. لكنَّ القاصد الرسوليّ أماط القناع عن تلك الحقيقة وأثبتها بآيات الإنجيل ونصوص الآباء القدّيسين وتعاليم الكنيسة حتَّى اقتنع الجميع بقوله وأعلن السيّد البطريرك أنَّه مذ ذاك الحين لن يسمح لأحد بالزواج طالما زوجته بالحياة ولو وقع الطلاق بسبب الزنى. ثمَّ جرى على ذلك وإذ أتى إليه أحد الأعيان بعد مدَّة وقدَّم له مبلغًا وافرًا ليرخّص له الاقتران بامرأةٍ لتطليقه زوجته الأولى بسبب الزنى ردَّه خائبًا.

بيد أنَّ الأب إليانو لم يجتزئ بنشر قوانين مجمع قنُّوبين لقلع الزؤان من حقل ربّ البيت، فإنَّه كان تحقَّق في سفارته الأولى أنَّ كثيرًا من كتب الموارنة الدينيَّة والكنسيَّة قد اندسَّت فيها تعاليم مخالفة لمعتقدات الكنيسة الرومانيَّة أوقف عليها غبطة السيّد البطريرك والمطارنة، فوافقوه على فسادها ناسبين ذلك إلى نسَّاخها من ذوي البدعة اليعقوبيَّة أو من جهّال الطائفة. فحسمًا لهذا الداء كان الأب إليانو حيثما يحلُّ يعيد النظر في كتب الكنائس ويشير إلى ما فيها من النصوص المغشوشة وغير السديدة فينبِّه الكهنة على فسادها ويشير إلى إصلاحها أو يبتاعها من أصحابها فيحرقها ويعدهم بنسخة منها بعد طبعها في رومية مصحَّحةً. وفي مكتبة باريس العموميَّة بين الكتب السريانيَّة كتاب موسوم بالعدد ٢٢٥ (Fonds Syriaque, p. 171-173) وهو مجموع قوانين البيعة لابن العسَّال القبطيّ ولتوما الكفرطابيّ بالكرشونيّ نَسَخَهُ في بان سنة ١٧٨٦ للإسكندر (١٤٧٦م) الكاهن إبراهيم بن سركيس فنظر فيه الأب إليانو وكتب بخطِّه في صدره بالإيطاليَّة «أنَّ هذا الكتاب يحتوي عدَّة أضاليل وأنَّه يُقتضى إحراقه».

وقد كرَّر الأب إليانو في رسائله ذكر الكتب الدينيَّة الشائعة بين الموارنة والضرورة الماسَّة إلى إصلاحها وإلى طبعها منقَّحةً في رومية، ولولا ذلك

تبقى جراثيم البدع منبثّة بين العموم ويظلّ الإيمان معرّضًا لآفات الضلال رغمًا عن استقامة الموارنة وحسن نيّتهم، كما عاد الكلدان إلى النسطوريّة بعد تقدمتهم الطاعة للحبر الرومانيّ لشيوع الكتب الهرطوقيّة فيما بينهم[٢].

وممّا يؤيّد رأي الأب اليسوعيّ أنّ بعض الموارنة بعد وفاته باشروا في رومية طبع رتبة القدّاس والنوافير الجارية في كنائسهم وذلك في السنة ١٥٩٤ وإذ لم يكن في رومية مَن يعرف اللغة السريانيّة اختاروا بين النسخ الخطّيّة التي استندوا إليها نسخةً فاسدة تشتمل على عدّة نوافير منقولة عن اليعاقبة كنافور برشوشان ومار مارونا مع ذكر المبتدعين في عداد القدّيسين المطلوبة شفاعتهم ولا سيّما برصوما أحد زعماء البدعة اليعقوبيّة (ص ٩٨ و٢٤٥). وفي مكتبة كمبردج بين مخطوطاتها السريانيّة (Wright.II, 1060) نسخة من النوافير المارونيّة بينها «طقس القدّيس مار برصوما».

ومن الأدوية الناجعة التي عمد إليها الأب إليانو لنفي الجهل وتقريرًا للإيمان في لبنان إنشاء المدارس للأحداث، فإنّه تحقّق ما كان عليه الشعب من الجهل المُطبق حتّى إنّه أكّد في بعض رسائله أنّ الذين يعرفون في لبنان القراءة والكتابة لا يتجاوزون عدد الأصابع. فأفرغ جهده حيثما كان يمرّ كي يتّخذ معلّمين للصغار وهم غالبًا كهنة الرعايا كان الأب يدفع لهم بعض الأجرة ويحرّض السيّد البطريرك على مساعدتهم بقسم من مال الأوقاف.

واختار بين أولئك الأحداث أربعةً وجدهم أذكى وأَنشط من أَترابهم أراد الاعتناء بهم ريثما يرسلهم إلى رومية فيدرسون هناك العلوم الدينيّة ويعودون بعد إتقانها إلى وطنهم. وسيأتي ذكرهم.

قضى الأب إليانو سنة كاملة (آب ١٥٨٠-أيلول ١٥٨١) وهو يطوف في جهات لبنان ساعيًا بكلّ ما يؤول إلى خير الطائفة المارونيّة لا يأخذه في ذلك

(٢) وقد وجد الأب إليانو بين الكتب التي وقف عليها بعض المخطوطات القديمة التي عدّها زينةً للمكتبة الواتيكانيّة فابتاعها لها. منها توراة كاملة على رقّ غزال من القرن الثاني عشر. ومنها تآليف القدّيس يوحنّا الدمشقيّ في الإيمان القويم كان يريد أن ينشره بالطبع ويرسله إلى الشرق فيوزّعه لفوائده.

لومة لائم ولا يثني عزمه شيء من التعب والمشقّات. وكان الأب برونو والأخ برنردينو يصحبانه في بعض أسفاره الرسوليّة فيسيرون ثلثتهم إلى حيث يستدعيهم خير النفوس، وفي رسائل الأبوَيْن برونو وإليانو أنَّهم اختبروا غير مرّة آلام السيّد المسيح وأنَّهم وقعوا في أيدي اللصوص وعصابات المسلمين فنهبوهم وضربوهم بالعصيّ وحبسوهم وحكموا بالإعدام على الأخ برنردينو وأنَّهم لولا ما دفعوه بالرشوة لمغتصبيهم لما نجوا من أذاهم. وقد أثنوا على بعض تجّار الفرنج في طرابلس الذين تكفّلوا لهم بالمال وفكّوا به أغلالهم.

وفاة البطريرك ميخائيل الرزّي وآثاره

لقي المرسلون طول مدّة إقامتهم في لبنان كلّ حفاوةٍ وإكرام من لدن زعيم الطائفة المارونيّة ورأسها الجليل. ولا يزال الأب إليانو في كتاباته يُطرئ محامده ويُعلن بصدق إيمانه وتشبُّثه التامّ بأعتاب الكنيسة الرومانيّة، وقد استمدَّ له من الكرسيّ الرسوليّ بعض الإنعامات كالمعافاة عن زيارة رومية كلّ ثلاث سنواتٍ بشخصه وكسيامة المتزوّجين مرَّتين قبل الكهنوت والإعلان بشرعيَّة المواليد غير الشرعيِّين، ولدينا قائمة ما التمسه من الحسنات للبطريرك المومأ إليه. على أنَّ ثقل الأيّام وأعباء السنين كانت أضعفت قوى السيّد ميخائيل فلم يعد يستطيع أن يقوم بكلّ واجباته.

ولمّا كانت أواسط شهر أيلول من السنة ١٥٨١ زاد ضعفه ولزم الفراش ولم يزل يتفاقم داؤه حتّى شعر بدنوّ أجله وفي يوم العشرين من أيلول استدعى الأب إليانو لمساعدته في رحلته إلى الأبديَّة فأسرع السفير الرسوليّ إلى تلبية دعوته ومنحه سرّ المسحة الأخيرة بحضور كثيرين من الأساقفة والكهنة والأعيان فأقرأهم الوداع وأوصاهم بحفظ وديعة الإيمان والخضوع للكنيسة الرومانيّة وختم ذلك بقوله: «إنّي أراني سعيدًا أن أسلّم نفسي في أيدي خالقها وبقربي ممثّلو الكرسيّ الرسوليّ» وكانت وفاته في اليوم التالي ٢١ أيلول سنة ١٥٨١[١].

وقد عثرنا للبطريرك المذكور على بعض الرسائل المخطوطة في سجلاَّت

(١) ليست السنة ١٥٨٠ كما ورد في تاريخ الموارنة للعلاّمة الدويهيّ (ص ٤٤٤).

رهبانيَّتنا في رومية نروي منها نبذًا تتمَّة للفائدة. فمنها رسالته إلى رئيس الرهبانيَّة اليسوعيَّة العامّ في رومية الأب إڤرَرْد مركوريان كتبها عند بلوغ أمره إلى الأب إليانو ورفيقه الأب توما راجيو بالرجوع إلى رومية بعد سفارة الأب إليانو الأولى في ١٥ كانون الأوَّل سنة ١٥٧٨.

إلى حضرة الأب الموقَّر الأركون المدبّر الأخ العزيز الجنيرال

أذكى السلام التامّ بالعزّ والتحيَّة والإكرام سلام الروح القدس مانح الأنعام يُخصّ به حضرة الأخ العزيز المومأ إليه أعلاه أدام الله محبَّته وأخويَّته زمنًا طويلًا آمين. وإلى غير ذلك الذي أفاوض به خدمة سيادتك إنِّي أنا مع جملة شعبي فرحنا بالغاية بحضور إخوتك عندنا وهم القسّ باطيشتا والقسّ توما وإنَّنا نشكر فضل الله تعالى مع فضل خدمة سيادتك الذي أنعمت بإرسالهم إلى عندنا. وأيضًا نثني الشكر لفضلك لأجل ما تفضَّلت به بافتقادك لي بأنيوس داي (أي ذخيرة Agnus Dei حمل الله) والمسبحة وعوض هذا الحنان يكون لي انشراح إذ قدرت أجازيك بشيء يكون لائقًا ومناسبًا بك. ومن جملة الإخوة الذين أرسلت لنا القسّ باطيشتا الذي كان مجتهدًا فيما هو نافعًا لخلاص نفوسنا وبقراية كتبنا وترجمة كتبكم بلساننا ولجوابه لما نشكّ به نحو الأمانة والاعتقاد ومعاشرته معنا وبافتقاد الرعيَّة وبحضوره لينظر خدمة الأسرار البيعيّة.. ورغبنا من قصَّادكم أن يحضروا عندنا ويقيموا في ديرنا... وقد أرسلتَ إليهم أن يحضروا إلى مدينة رومية وليس عرفنا ما هو السبب الموجب لذلك لكون أنَّهم حضروا لعندنا ليقيموا على قدر الحاجة ليكملوا إرادة السيّد المعظّم البابا والكردينال وكيلنا.... وأنا أرغب أن يقيموا عندنا إلى حين ما يكمل شغلنا وبالأقلّ القسّ باطيشتا ونحن نرغب منه ليقيم عندنا حتّى يجينا جواب هذا الكتاب فيكون له ولسيادتك أجر عند الله... أنهى ذلك الحقير بعد تجديد السلام عليك وعلى كلّ مَن هو تحت طاعتك كثير كثير وطالبين من حضرتكم الدعاء الصالح لأجل الله له الحمد والشكر إلى أبد الآبدين.

الحقير في البطاركة بطرس الماسك الكرسيّ الأنطاكيّ
في دير العذراء في جبل لبنان
برز ذلك من دير قنُّوبين في ١٨ من ك[1] ١٥٧٨

ثمَّ أردف السيّد البطريرك وكتب الكتاب الآتي بعد أيّام إلى رئيس العامّ المذكور إذ رأى المرسلين مصمّمين النيَّة على السفر:

ܦܛܪܘܣ ܦܛܪܝܪܟܐ ܕܡܪܘܢܝܐ

سلام ربّنا سيّدنا يسوع المسيح الذي حلَّ على الرسل الأطهار القدّيسين في علّيّة صهيون المقدَّسة وأملاهم فرحًا وسرورًا ذلك السلام بعينه يحلّ ويستقرّ على ذات الأخ العزيز الموقّر المكرَّم أخونا الجنيرال. . إنّي أشكر الله تعالى وفضل سيادتكم لإرسالك وافتقادك لنا بقدس الآباء الموقَّرين قصَّاد الكرسيّ الرسوليّ أولادكم ففرحنا وابتهجنا كثيرًا بحضورهم واكتسبنا أشياء جليلة حسنة من تعاليمهم وسيرتهم الحسنة وكان يحصل لنا أكثر ممَّا حصل لو أنَّهم قعدوا عندنا وبالأكثر الأب القسّ باطيشتا (إليانو) لأنَّه يعرف بلساننا وقرايتنا عربيّ وكرشونيّ ومحبوب منَّا ومن رعيَّتنا الذين عرفوه واعتشروا (كذا) معه. لكن لمَّا عرفنا الضرورة الملزمة لحضورهم عندكم أوَّلًا لأجل الطاعة لسيادتكم لأنَّكم أرسلتم تطلبوهم وثانيًا لأجل الطاعون لأنَّنا مختشين كثيرًا منه وأنَّه ابتدأ في بلاد مصر وأعمالها وهاهنا جاءت أشايرُهُ. والدليل على ذلك أنَّ العادة إذا كان الطاعون أوَّلًا يجيء الجدريّ وأنَّه ممتلئة البلاد منه. وثالثًا ليعطوا حساب (عن سفارتهم) وقد كتبنا إلى سيّدنا المعظَّم البابا ولوكيلنا الكردينال كرافًا لتكمل أشياء كثيرة ابتدوا بها التي إن لم تتكمَّل لم نكن فعلنا شيء. وما ابتدأ به هو أنَّه قرأ فرائض من كتبنا ووجد فيهم أشياء كثيرة غلط وأنَّ كُتبنا بغير عدد. ولافتقاد رعيَّتي بصحبتي أم بصحبة أحد من المطارنة لترتيب الرعيَّة وتمشّيها على ما يريد قدس السيّد البابا لأنَّنا نحن وحدنا ليس نقدر نفعل ذلك لأنَّنا ليس مسموعين الكلمة مثل بلادكم ونواحيكم. وأيضًا فليجاوب ممَّا تتشكَّك به الرعيَّة وليترجم كتب صالحة من لسانكم إلى لساننا لأجل اصطلاح شأننا فلهذا نرغب من سيادتك لأجل الله ولأجل المحبّة أن ترسله لنا ثانيًا ونحن نكون حافظين هذه الحسنة والفضيلة إلى دهر الدهور والله يجازيك في ملكوت السماء. . . أنهي ذلك الحقير بعد تجديد السلام عليك وعلى مَن هو بخدمتك والحمد لله وحده.

برز من دير قنُّوبين سنة ١٥٧٨ من التجسُّد الإلهيّ
(محلّ الختم)

وفي ٢٥ شباط ١٥٧٩ كتب البطريرك إلى أحد أبناء طائفته الشدياق عازار وكيله يطلب منه بأن يسعى في رجوع الأب إليانو إلى لبنان:

ܦܛܪܘܣ ܦܛܪܝܪܟܐ ܕܡܪܘܢܝܐ

البركة الإلهيّة والنعمة السماويّة التي حلَّت على التلاميذ الأطهار والرسل

الأبرار في عليّة صهيون المقدّسة وفي جبل الزيتون الطاهر فهي تحلّ وتنمّي وتستقرّ على ذات الولد العزيز الغالي الشدياق عازار بركة الربّ ثانيًا وثالثًا تحلّ عليك وعلى بيتك وعلى رزقك ومقتناك وعلى بيْعك وشراك وعلى أخذك وعطاك وعلى ما تقلّب يمينك مع شمالك آمين. وإلى غير ذلك الذي نعرّفك به بأنّه يكون على علمك بأنَّ قصّاد السيّد البابا انصرفوا عنّا وحصل لنا من ذلك همّ وغمّ جزيل وليس كان مرادنا فرقتهم لكنَّ الضرورة لها أحكام وإنّنا نسلّي خاطرنا بشيء واحد الذي هو رجانا بعودة الأب القسّ باطيشتا إلى عندنا ليكمّل ما ابتدأ به لنا. وإنّنا نسأل فضلك أن تداومه وتطرّي فكره فينا ولا تخلّيه ينسانا. وأبقى قول له إنَّ مَن يغرس شجرة يسوسها إلى حين تكبر وتنمو وأنّك أنت وكيلنا في هذه القضيّة وتروح إلى عند عزيزنا الكردينال كرافّا واسأل من فصله على لساننا أن يسعى في إرسال الأب القسّ باطيشتا وأنّك لا تفعل شيء إلاّ بشوره... ولا نقطع تجديد البركة عليك ثانيًا وثالثًا والحمد لله وحده.

كتب في دير قنُّوبين في ٢٥ شباط سنة ١٥٧٩

ولدينا الكتاب الذي أرسله الكردينال كرافّا إلى البطريرك ميخائيل الرزّي بعد عودة الأب إليانو إلى رومية مثنيًا على حسن سلوكه مع المرسلين وشاكرًا له على ذخيرة القدّيسة مارينا التي أرسلها إليه (من إنشاء الأب إليانو):

رسالة الكردينال أنطون كرافّا إلى البطريرك ميخائيل

سلام ربّنا يسوع المسيح مع الأخ المكرَّم. بعد وصول القصّاد إلينا ما كتبت لأخوّتك حتّى كلَّمتُ السيّد البابا فأجاوب على سائر كتبك وعلى كلّ ما تقصد وتطلب من قداسته. فأعرّف لأخوّتك أنّه ليس كان في خاطر القدّيس (أي الحبر الأعظم) أن يرجعوا القصّاد من عندك وبالخصوص الأب المكرَّم باطيشتا لأنَّه كان في إرادته أن يدوم عندكم مدَّة أيّام لمنفعة بَيعِكم ولخدمتك. لكن نقول إنَّ كلّ شيء صار بأمر وتدبير الله من حيث إنَّ أصلَ هذه القضيَّة هي لمجد وكرامة الربّ. وأيضًا أعرِّف أخوّتك أنّي قبل تاريخه جاوبت عن سائر رسالاتك إليَّ وإلى السيّد البابا وأظنّ أنَّ مشرَّفاتنا وصلوا إلى أُخوّتك إذا ما أصابهم تبذير في الطريق. والأب الأقدس قد فرح جدًّا إذ القصّاد خبّروه لأجل افتقادهم رعيَّتك وشكروا الربّ في ذلك الذي أوهبك نعمة لتقصد وتشتهي قبول واحتضان كلّ ما تعلّمه وتكرزه البيعة الكاثوليكيّة لتنال مع جميع القدّيسين حياة الأبديَّة. ويشكر إحسانك كثيرًا الأب المقدّس لأجل الوقار والإحسان الذي عملته مع قصّاده

وعوض ذلك يرسل إلى أخوتك ولجميع شعبك البركة الرسوليّة ولتكمّل كلّ ما تأمر وتعلّم البيعة المقدّسة. واشكر إحسانك لأجل عَظْم القدّيسة مرت مارينا الذي أرسلته إلى حضارتي وهو مقبول وعزيز عندي وليس كان لازم أن تبعث لي من الأشياء الأخرى لكن أنا أقتبلهم من أجل محبّتك وأكون دائمًا في خدمتك واطلب من الربّ أن يحفظك مع جميع شعبك في نعمته والسلام.

مكتوب في مدينة رومية في ١ آب ١٥٧٩

واطّلعنا كذلك على رسالة الأب إليانو إلى البطريرك ميخائيل يعلمه بقرب عودته إلى لبنان لسفارةٍ ثانية مع الأب يوحنّا برونو والأخ الشمّاس برنردينو ويعلن برضى قداسة الحبر الأعظم عنه وعن طائفته ويطمّنه عن أحوال التلامذة الموارنة وعن نجاحهم في الدروس. ويذكر أنّه سيعود إلى لبنان ومعه هدايا كثيرة للكنائس كالكؤوس والحلل الكهنوتيّة وأدوات الطبع للبرشان وغير ذلك ويبدي الرجاء بأن يجد عند وصوله السيّد البطريرك في الصحّة التامّة. وتاريخ هذه الرسالة غرّة كانون الثاني سنة ١٥٨٠.

فمن كلّ هذه الرسائل يتّضح ما كان للأب جوان باطيشتا إليانو من العزّ والاعتبار لدى بطريرك الموارنة والطائفة المارونيّة وكم هي باطلة السعايات التي نُشرت بعد وفاته في حقّه ونقلها جزافًا بعض مؤرّخي الموارنة لعدم وقوفهم على الآثار التي نشرناها.

إنتخاب البطريرك سركيس الرزّي

قال الدويهيّ في تاريخه (ص ١٧٧ و٤٤٤) وفي سلسلة بطاركة الطائفة المارونيّة التي نشرناها في المشرق (ص ١٩)(*) «أنّه في اليوم التاسع لوفاة البطريرك ميخائيل اجتمع المطارنة والأساقفة والإكليروس ومشايخ الطائفة وأقاموا أخاه الأسقف سركيس لرئاسة الشعب، وحضر الحفلة قاصد البابا جوان باطيشتا ورفيقه جوان برونا وبعد ذلك أشخص جوان برونا إلى رومية بكتابة ممضاة من الجميع، ولمّا وقف البابا غريغوريوس عليها أمر بأن يُعْطى

(*) كذا ورد المرجع ناقصًا. والصحيح: ١٨٩٨، ص ٣٥٢ (الناشر).

درع تمام الرئاسة وأن تكون جميع الطائفة تحت طاعته في الروحيّات والجسديّات (كذا)». ولم يزد على هذه النبذة القصيرة شيئًا. ولنا في رسالات الأب إليانو وفي سجلاّت الرهبانيّة اليسوعيّة ما يفيدنا علمًا عن بطريركيّة سركيس الرزّي وأعماله المبرورة. فمن ذلك صورة انتخابه كما يلي:

لمّا كان تاريخ السنة المسيحيّة ١٥٨١ ثامن وعشرين يوم من شهر أيلول المبارك الموافق لتاريخ السنة اليونانيّة ١٨٩٢ ثامن يوم بعد نياح البطرك مار ميخائيل بطرك ملّتنا، نحن الحقيرين الموارنة اجتمعنا المطارنة والأساقفة والكهنة مع باقي الإكليروس وأكابر طائفتنا وكثير من شعبنا الطائعين للكرسيّ الرسوليّ وللسيّد البابا غريغوريوس الثالث عشر ولجميع الآباء الفائقة (الباباوات) الآتين بعده خلفًا بعد خلف إلى منتهى العالم بإرشاد الله ومعونته، لمّا فحصنا باجتهاد شديد واهتمام وكيد في سيرة وقداسة وطهارة وعلم الأب المكرَّم الجليل الممتلئ من نعمة الروح القدس الفارقليط في هذه البيعة المقدَّسة دير ستّنا العذراء المعروف بدير قنُّوبين في جبل لبنان المبارك، اصطفينا واخترنا هذا المطران الحبيس مار سركيس المذكور في قرية كفرحورا ليتولّى علينا ويكون رئيسنا ومدبّرنا ومرشدنا في الأمانة الكاثوليكيّة الرومانيّة وجميع ما يوصينا به الأب المقدّس البابا المذكور على يد قصّاده الآباء القدّيسين الأب الفاضل المكرَّم القسّ يوحنّا باطيشتا والأب الطاهر القسّ يوحنّا برونا الحاضرين والمقدَّمين في هذا المجمع المقدّس، وسِمْنا هذا المطران سركيس بطركًا علينا وعلى جميع ملّتنا الموارنة القاطنين في جبل لبنان المبارك وفي جميع بلاد سوريا وقبرس وفي سائر البلدان عوض البطرك ميخائيل المتنيّح إلى رحمة الله. فنحن جميع المذكورين نأمر ونوصي الحاضرين والغائبين أن يوقّروا ويكرّموا ويطيعوا لهذا البطرك المختار من نعمة الروح القدس ومن حقارتنا في جميع ما يأمر من أمور البيعة المقدَّسة في الزيجات والصيامات المفروضة من الآباء القدّيسين ومن المجامع الأطهار كما كانوا مطيعين للبطاركة السالفين ولا يعملوا شيئًا يضاددهُ ولا يرتسم بغير شوره لا أسقف ولا مطران وكلّ مَن يخالفه أو يضاددهُ أو يتحمّل ويتجبَّر عليه بجميع ما يضادّ الناموس يكون محروم من الله ومن جميع الآباء ومن كرسيّ مار بطرس الرسول ومن جميع المطارنة والأساقفة المجتمعين في هذا المجمع المقدَّس، وكلّ مَن يطيعه يكون مبارك من الله ومن جميع الآباء القدّيسين آمين. فنحن جميعنا الحاضرين نطلب من الربّ أن يطوّل عمره وبقاه أيّام مديدة وسنين عديدة وأشهر مزيدة ويثبّته ويثبّتنا معه في الأمانة الكاثوليكيّة الرومانيّة إلى آخر الأنفاس من عمرنا. ونرغب أيضًا من قصّاد السيّد

البابا الحاضرين معنا أن يرغبوا إلى الآب المقدّس أن يثبت هذا الآب البطريرك الذي اخترناه في هذا اليوم المبارك في هذه الدرجة البطريركيّة كما تثبّت البطاركة القدماء السالفين إلى يومنا هذا، والسبح لله دائمًا أبدًا آمين.

كُتب في دير سيّدتنا العذراء دير قنُّوبين بحضرة الآباء الأساقفة والمطارنة والآباء المكرَّمين قصّاد السيّد البابا الواضعين خطوطهم هنا بيدهم.

(وقد أمضى القاصدان اسمهما باللاتينيّة):

Ego Joannes B[ta] Elianus Presbyter Religiosus Soc.Jesu
fui præsens prædictis et subscripsi
Ego Joannes Bruno Presbyter Religiosus Soc.Jesu
subscripsi

ثمَّ يليه أسماء المطارنة وكلّ منهم يكتب على هذه الصورة: «أنا الحقير في المطارنة مطران فلان رضيتُ في هذا البطريرك المذكور وهذا خطّي يشهد عليَّ».

مطران جرجس. مطران يوحنّا من قرية إهدن -م. داؤد من قرية العاقورة -م. يعقوب -م. يونان -م. قليموس.

ثمَّ أسماء الخوارنة والأعيان والشمامسة:

الخوري عزيز من بشرّه -خ. سمعان من حدشيت -خ. بطرس من إهدن -خ. جرجس من تولا -خ. سليمان من كفرزينا -خ. عازار من أجبع -خ. جرجس من كرمسدّه -خ. داود من كفرحاتا -خ. موسى من بقرزلا -خ. رزق من دير جنّين -خ. سليمان من العاقورة -خ. إبراهيم من إيليج -خ. موسى من جاج -خ. عزيز من ترتج -خ. جرجس من حردين. وكثيرين من الكهنة والقسوس والبرادطة.

يوسف حبيش من غزير. إبراهيم بن الخازن من عجلتون. دوميط من العاقورة. شدياق صادر من العاقورة -ش. مقبل من بير حليون -ش. حنّا من الحدث -ش. صادر من حصرون -ش. الياس من حصرون -ش. باخوس من حدشيت -ش. بشارة من بان. شحاده من بشرّه. وكثيرين من الإكليروس وغيرهم.

الحقير في الكهنة الخوري يوحنّا حصرون
كاتب هذا السجلّ في رضا الرعيَّة جميعها
وأنا رضيت هذا البطرك وهذا خطّي يشهد عليَّ

وزادنا الأب إليانو إفادةً فوصف في رسائله البطريرك الجديد بقوله: إنَّه رجل جدير بهذا المقام الرفيع لقداسة سيرته وعلمه وخبرته في سياسة الأمور التي كان تداولها في عهد أخيه المتوفّى. وكان قضى سنين طوالًا في حبس قزحيّا ووادي قاديشا عائشًا عيشة النسّاك في الزهد وأعمال التقى. ولمّا اجتمع رؤساء الطائفة لانتخاب خلفٍ للبطريرك ميخائيل خاف أن تتوجّه إليه أصوات المنتخبين فتجعل فوق أكتافه أعباء البطريركيَّة فحاول الهرب من وجههم لكنَّ الآباء لم يرضوا بسواه واضطرُّوه إلى قبول ذلك المنصب الرفيع. أمّا هو فأجهش بالبكاء وتوسَّل إلى الأساقفة ناشدًا إيّاهم الله بأن يرحموه ويدعوه في عزلته وهو قد اعتاد منذ عدَّة سنين العيشة النسكيَّة لا يعهد من نفسه الصفات اللازمة لمثل هذا المقام. غير أنَّ كلامه هذا زاد العموم تعلُّقًا بشخصه لأجل تواضعه ونزاهة نفسه ولم يزالوا يلحُّون عليه مع قاصدي الكرسيّ الرسوليّ حتَّى خشي أن يقاوم مشيئة الله وأجاب إلى دعوتهم مرغومًا.

فأجلسوه حينئذٍ على الكرسيّ البطريركيّ وقدَّموا له الطاعة. وفي اليوم التالي صار احتفال عظيم فقدَّم البطريرك الجديد الذبيحة المقدَّسة بكلّ رونق وقبل أن يتناول جسد الربّ جثا أمام المذبح فتلا صورة إيمانه الكاثوليكيّ بصوت جهور وفقًا لأمر المجامع المقدَّسة. فشمل الفرح جميع أبناء الطائفة لأجل هذا الانتخاب.

الأب إليانو والبطريرك سركيس الرزّي

كان انتخاب البطريرك سركيس كنهضة جديدة للطائفة المارونيَّة في لبنان فباشر بتدبيرها بكلّ نشاط وغيرة فوافقت أعماله ما كان مأمولًا منه ومضاهيًا للثقة به. وأوَّل ما قصد القيام به زيارة أبنائه المتفرّقين في أنحاء الجبل برفقة القاصد الرسوليّ الذي أثنى على أعماله وهمَّته في رسالةٍ وجَّهها إلى الكردينال كرافًا، وممّا قاله هناك «إنَّ السيّد البطريرك منح سرّ التثبيت للأحداث وأوجب عمادهم بعد ميلادهم بأيّام قليلة خلافًا للعادة الجارية

بتأخير المعموديّة زمنًا طويلًا وحظّر على الكهنة أن يُعطوا القربان الأطفال قبل سنّ الرشاد لسوء عقبى ذلك الأمر وكرَّر على مسامع الجميع عقيدة المشيئتين والفعلين في أقنوم السيّد المسيح».

ولدينا رسالة أخرى كتبها الأب إليانو للكردينال كرافًا ذكر فيها مفصّلًا ما صنعه مدَّة السنة التي قضاها مع الأب برونو في لبنان ليطّلع عليها الحبر الأعظم غريغوريوس الثالث عشر فيعلمهما أيريد منهما غير ذلك أم يأمرهما بالرجوع إلى رومية.

ثمَّ قال في ختام رسالته: هذه خلاصة الأمور التي أنجزناها في مدَّة سفارتنا إلى الموارنة:

١ً قد عُقد المجمع الملّيّ.
٢ً إنتشر بين العموم كتاب التعليم وغيره من الكتب الكاثوليكيّة.
٣ً درجت بين الإكليروس رتبة تكريس الميرون ومنح المشحة الأخيرة.
٤ً قد تمَّت زيارة الطائفة إلاَّ بعض الأمكنة البعيدة كدمشق وحلب فوجَّهنا إلى أهلهما الرسائل المطوَّلة ريثما نتمكّن من زيارتهما بعد عودتنا من زيارة القدس الشريف إذ أمكن وكذلك جزيرة قبرس نزورها في عودتنا إلى إيطالية حيث ترسو السفينة في مرفأها من ١٥ إلى عشرين يومًا.
٥ً قد اطَّلعنا على كثير من مخطوطات الموارنة الطقسيَّة والدينيَّة.
٦ً وانتزعنا منها جدولًا نصّصنا فيه على الأضاليل التي وجدناها في تلك الكتب وقد أرسلنا لنيافتكم نسخة من هذا الجدول.
٧ً ثمَّ راجعنا مع أرباب الطائفة تلك النصوص الفاسدة فوافقونا على بطلانها.
٨ً إهتممنا بإلغاء عادات سيّئة مخالفة للآداب الدينيَّة.
٩ً قد أُرسلت إلى جميع الكنائس تنبيهات ومعلومات عموميَّة مع أمر السيّد البطريرك بالسير على موجبها.
١٠ وأخصُّ ما أَلفَتْنا إليه نظر الكهنة معرفة مادَّة الأسرار السبعة وصورتها.
١١ً إهتممنا خصوصًا بفتح مدارس للأحداث في عدَّة أمكنة.
١٢ً قد أرسلنا أخيرًا إلى رومية بعض أولاد الطائفة ليتخرَّجوا هناك في الآداب الكهنوتيَّة.

«وإن بقي شيء بعد ذلك سنصرف جهدنا بإتمامه بعد زيارتنا للأراضي المقدَّسة إن شاء الله ثمَّ نكرّر راجعين إلى إيطالية في ربيع السنة القادمة

(١٥٨٢) إن حَسُن الأمر في أعين قداسة الحبر الأعظم. ولا نرى في تأجيل رجوعنا خيرًا لما يُحدق بنا من الأخطار. فإنَّ الغرباء قد بلغهم وجودنا في الجبل ووقفوا على سبب مجيئنا وعرفوا مَن هو الذي أرسلنا إلى هذه الأطراف. ولا شكَّ بأنَّ سينالنا من قبل أمراء البلاد من جرّاء ذلك عدَّة إساءات ولعلّ السيّد البطريرك تصيبه لأجلنا مشاكل مؤلمة. فالأولى أن نبرح الشرق عاجلًا».

زيارة الأب إليانو للقدس ثمَّ لدمشق

كانت غاية الأب إليانو من سفره إلى القدس الشريف مع الأب يوحنّا برونو أوّلًا التبرُّك بمشاهدة قبر السيّد المسيح. وثانيًا زيارة مَن هناك مِن الموارنة. وثالثًا التباعد مدَّةً عن لبنان من وجه المترصّدين لسفير الكرسيّ الرسوليّ والمضمرين له الشرّ إلى حين ورود جواب الحبر الأعظم على رسائله.

أبحر المرسلان من طرابلس إلى يافا في العشر الأخير من شهر تشرين الثاني كما يُستفاد من رسالة للأب إليانو مؤرّخة في ٢٣ منه سنة ١٥٨١ كتبها لرئيسه العامّ وهو الأب كلوديوس أكواڤيڤا الذي كان أُقيم خلفًا للأب مركوريان المتوفّى في غرَّة آب ١٥٨٠ فعُهدت إليه رئاسة الرهبنة في ١٩ شباط ١٥٨١. وكان دخولهما المدينة المقدّسة في سَلْخ الشهر ونزلا ضيفين كريمين على رهبان القدّيس فرنسيس ووجدا لدى رئيسهم حضرة الأب أنجلو ستلاّ البندقيّ كلّ كرامة ووداد وشفيا غليلهما من معاينة كلّ الأمكنة المقدّسة وإكرام أسرار حياة وآلام وقيامة السيّد المسيح.

ثمَّ زارا الموارنة المستوطنين القدس وكان عددهم قليلًا لهم دار ابتاعها البطريرك موسى العكّاريّ نحو السنة ١٥٦٥ بعد أن وضع القبط ظلمًا يدهم على كنيستهم المبنيّة على اسم جرجس الشهيد.

وممّا روى الأب إليانو أنّ رئيس الأراضي المقدَّسة وكلَ إليه فحص كاهنين قدما من جهات الموصل وطلبا أن يقدّما الذبيحة على القبر المقدّس.

فوجدهما المرسلان من تبَعة النساطرة وأخذا يرشدانهما في حقيقة الإيمان الكاثوليكيّ إلى أن أقنعاهما بوحدة الأقنوم في السيّد المسيح وبعقيدة أمّيّة البتول والدة الله فجحدا بدعة نسطور بتلاوة دستور الإيمان الذي عرَّبه لهما الأب إليانو وطلب صورته منه رئيس الآباء الفرنسيسيّين ليفرضه عند الحاجة على زوّار النساطرة.

كان رجوع الأب إليانو ورفيقه من القدس الشريف إلى لبنان في أواسط كانون الأوَّل ١٥٨١ على طريق البرّ ليزورا الموارنة في دمشق الشام ويسعيا بردّ بطريرك الروم إلى الوحدة الكاثوليكيَّة كما أوصاهما الكردينال سان سڤرينو.

كانت دمشق في ذلك العهد تحت حكم الدولة العثمانيَّة منذ ٦٦ سنة يتولَّى تدبيرها ولاةٌ يرسلهم السلطان ثمَّ يعزلهم في السنة مرَّتين أو ثلاث مرار فيبيعون منه منصبهم ثمَّ يتقاضَوْن بالربا مالهم بظلم الرعيَّة وتعميم الرشوة. والنصارى كما لا يُخفى في مقدَّمة المظلومين.

سُرَّ الأب إليانو بنظر تلك المدينة الشهيرة عاصمة برّ الشام وجنَّة الشرق الفيحاء لكنَّه أسف لما رآه من سوء حالة الموارنة فيها ولما يلحقهم من المظالم، فبذل السعي في نهض هممهم وتجديد نشاطهم ولا سيَّما في إحياء عواطف الدين في قلوبهم، فعرض عليهم ما اتَّفق عليه آباء مجمع قنُّوبين سواء كان من جهة المعتقدات أم من طرف الآداب والتهذيب فوجدهم جميعًا طَوْع بنانه خاضعين طائعين لأمر رؤسائهم وتعاليم الكرسيّ الرسوليّ فشكر الله على حسن انقيادهم وطيب عنصرهم. ولم يجد في دمشق أسقفًا للموارنة لأنَّ المطران جرجس البسلوقيتيّ الذي كان سامه البطريرك ميخائيل الرزّي على الشام سنة ١٥٧٧ كان يُقيم في قنُّوبين.

ثمَّ أخذ الأبوان يبحثان عن أقرب واسطة للتقرُّب من الروم وكانت إذ ذاك أحوالهم الدينيَّة في اضطراب عظيم لانقسام الطائفة بين بطريركين ميخائيل السابع ويواكيم الخامس، فإنَّ الدمشقيّين، لعداوة وقعت بينهم وبين

بطريركهم ميخائيل لتُهَمٍ اتَّهموه بها، سعوا بنفيه واختاروا بدلًا منه يواكيم ضوّ مطران طرابلس فجلسَ هذا على سدَّة بطريركيَّة أنطاكية وحصل بذلك مشاحنات وشرور عظيمة وغرامات أموال لم تنتهِ إلى سنة وفاة ميخائيل نحو السنة ١٥٨٣.

فإلى يواكيم المذكور كتب الأب إليانو طالبًا منه أن يسمح له بزيارته مع الأب برونو باسم الحبر الأعظم واسم الكردينال سان سفرينو محامي الطائفة اليونانيَّة. فأجاب البطريرك أنَّه يُسَرّ بمشاهدتهما ثمَّ عيَّن لهما يومًا استقبلهما فيه مع أعيان طائفته ورحَّب بهما. فدار الحديث عن الحبر الأعظم غريغوريوس الثالث عشر ومحبَّته نحو طوائف الروم واليونان الذين أنشأ لأجلهم في رومية العظمى مدرسةً كبيرة لتخريج شبَّانهم وقصده أن يرسلهم لمساعدة بني ملَّتهم. ثمَّ اتَّسعا ببيان رغبة الحبر الأعظم في اتّحاد الكنائس الشرقيَّة بالكنيسة الغربيَّة وما ينتج عن ذلك من الفوائد الجمَّة للروم. ولمّا اعترض أحد الحضور على الكنيسة الرومانيَّة باعتقادها انبثاق الروح القدس من الآب والابن أسرع الأب إليانو وأثبت معتقد اللاتين بهذا البرهان البسيط ذي الحدَّين: إمَّا أنَّكم تقولون إنَّ الابن هو مساوٍ للآب وإمَّا أنَّه أصغر منه. قالوا: إنَّ الابن هو مساوٍ للآب. فأردف الأب إليانو قائلًا:

«فإن أكَّدتم أنَّه مساوٍ للآب لا بُدَّ أن تقولوا إنَّ الروح القدس منبثق من الآب والابن لأنَّ الإنجيل يصرّح بأنَّ كلّ ما هو للآب هو أيضًا للابن فانبثاق الروح القدس هو إذن من كليهما كمن مبدإٍ واحد». فأشار البطريرك إلى أحد علمائهم كي يعلن رأيه في هذه القضيَّة فانتصب قائلًا: «أنا أرى أنّ الابن أصغر من الآب» فتعجَّب المرسلان من قوله فقالا: «أَفَلا تعلم أنَّ هذه بدعة آريوس التي حرمها المجمع النيقاويّ والتي يضادُّها قانون الإيمان الذي تتلونه في كنيستكم». فانقطع عن الكلام وبقي الحضور في الحيرة صامتين. وكان حضر مع المرسلين بعض الموارنة فسرُّوا لانتصار الحقيقة وخرج الأب إليانو دون أن ينال وعدًا صريحًا من البطريرك بأمر الاتِّحاد. ولمّا عاد إليه بعد ذلك وحرَّضه على تلبية دعوة الحبر الأعظم كان جوابه أنَّه لا يستطيع أن يصنع شيئًا

دون الاتّفاق مع بطريرك القسطنطينيّة، وإنّما رضي بكتابة رسالةٍ إلى الحبر الأعظم يشكره فيها على لطفه وسروره بمشاهدة قاصده وشَفَعَها برسالة ثانية للكردينال سان سفرينو. فأرسل الأب إليانو المكتوبين إلى رومية مع ترجمتهما عن أصلهما العربيّ.

رجوع الأب إليانو إلى لبنان

رجع الأب إليانو والأب برونو إلى لبنان قبل عيد الميلاد من السنة ١٥٨١ وقضيا فصل الشتاء والربيع من السنة المقبلة في طرابلس حينًا وفي قنُّوبين حينًا آخر ينتظران موعد سفر المراكب إلى إيطالية في نيسان.

ولكنَّه وردت إليهما رسائل من الأب أكواڤيڤا رئيسهما العامّ ومن الكردينال سان سفرينو يوعزان إليهما بأن يعود إلى إيطالية الأب برونو مع الأخ ماريو (وكان هذا قد أُوفد حديثًا إليهما) ليُطلعا الحبر الأعظم على نتيجة السفارة إلى لبنان. وأمَّا الأب إليانو والأخ برنردينو فقد تقدَّما إليهما بأن يُبحرا إلى مصر لخدمة الكنيسة. لأنَّ بطريرك الأقباط كان قرَّر بأن يتَّحد هو وشعبه مع رومية بالإيمان المستقيم.

رأى الأب إليانو في هذا الأمر بالسفر إلى مصر مشاكل أراد أن يعرضها على رئيسه العامّ وعلى نيافة الكردينال سان سفرينو ليكونا على بيّنة من أحوال الأقباط، لأنَّه كان قبل سفارته إلى لبنان سنة ١٥٦١ أُرسل مع الأب كرستوف رودريكس إلى القطر المصريّ فقاسيا المشقَّات العظيمة ليردَّا بطريرك الأقباط وقومه إلى حجر الكنيسة، فوجدا بعد العناء الشديد أنَّ القبط يسلكون بالرياء وعدم الاستقامة لا يطلبون من رومية سوى المنافع المادّيَّة والمساعدات الماليَّة ومن ثمَّ لا فائدة من تكرار هذا السفر مع كثرة أخطاره. وعلى كلّ حال أعلن الأب باستعداده لإتمام أوامر رؤسائه إنْ ثبتوا على رأيهم.

لم يشأ الأب إليانو ورفقته أن يبقوا دون عمل إلى حين سفرهم فخصُّوا قسمًا من زمنهم في زيارة أديرة الرهبان، فحاول القاصد الرسوليّ جُهد استطاعته ليُصلح أحوالهم وينظِّم سلوكهم ويسنّ لهم القوانين الرهبانيَّة

الموافقة لدعوتهم وهو يذكر في رسائله ما أنفقه على كلّ دير من الحسنات ليسدَّ عوز رهبانه والمبالغ التي استدانها لهذه الغاية، وفي تلك الأثناء بذل سعيه لدى السيّد البطريرك والأساقفة وأعيان الطائفة بأن يصلحوا تاريخهم السنويّ على موجب الحساب الغربيّ الجديد الذي كان قرَّره الحبر الأعظم غريغوريوس الثالث عشر وأمر بأن يبتدئ الإصلاح في تشرين الأوّل من تلك السنة ١٥٨٢ فيُحسَب اليوم الخامس منه اليوم الخامس عشر[١].

فكان الكردينال كرافًا محامي الموارنة كتب في ذلك إلى الأب إليانو لكي يُقنع رؤساء الطائفة المارونيَّة باتّخاذ ذاك الإصلاح، كما أمر أيضًا الحبر الرومانيّ بأن يعلن الرهبان الفرنسيسيُّون بذاك الحساب في مصر وفلسطين وأنحاء الشام.

على أنَّ الأب إليانو والرهبان المومأ إليهم، بعد أن فاوضوا رؤساء الكنائس، تحقَّقوا أنَّ ذلك التغيير ينشئ حاضرًا عوائق كثيرة وتهييجًا على الكاثوليك من قبل الأتراك والطوائف المنفصلة عن رومية بحجَّة كونهم تبعوا الفرنج فتآمروا على الدولة. ومن ثمَّ وجب تأجيل ذلك الإصلاح الذي لم يتمّ إلاَّ بعد ٢٤ عامًا في السنة ١٦٠٦ على عهد البطريرك يوسف الرزّي. فجرى وقتئذٍ في الشام وحلب وبقيَّة المدن ما خلا جزيرة قبرس[٢]. أمَّا بقيَّة الطوائف الكاثوليكيَّة فلم تتبع الحساب الغربيّ إلاَّ في القرن التاسع عشر.

وممّا اهتمَّ به أيضًا القاصد الرسوليّ مسألة «الموارنة البيض» التي يعود إليها غير مرّة في كتاباته. ولعلَّك تطلب ومَن هم الموارنة البيض؟ دونك ما كتبه الأب إليانو إلى الكردينال كرافًا: «إنَّ عددًا ليس بقليل من موارنة لبنان ممَّن يسكنون بجوار المسلمين تظاهروا في أنحائهم خوفًا منهم ومراعاةً لهم بالدين الإسلاميّ وتعمَّموا بالعمامة البيضاء فدعوا لذلك بالبيض وهم في الباطن نصارى يعلنون بدينهم كلَّما وُجدوا بين أهل ملَّتهم فيتقرَّبون من

(١) راجع مقالة الأب كولنجت في أصول الحساب السنويّ (في المشرق ٣ [١٩٠٠]: ٢٢٥-٢٣٠).

(٢) أطلب تاريخ الدويهيّ (ص ١٨).

الأسرار كالنصارى ولا يجسر أرباب الطائفة أن يخالفوهم في ذلك لئلاً يشتهر الأمر بين الأتراك فينالهم بسببهم أذًى وهوان. فهؤلاء يعرجون على الجانبَيْن. فبيَّن لهم المرسلان اليسوعيَّان أنّ المسيحيّ لا يجوز له المراء فيجب عليه أن يتحاشى ما يحمل ظنَّ الناس به أنَّه جحد دينه. فكلامه هذا أثَّر في البعض منهم فقط فاستشار الأب إليانو الشيخ يوسف حبيش في طرابلس وطلب إليه أن يتدارك الأمر ويسعى به لدى الأمراء بني عسّاف سادته والأتراك أصحابه علَّهم يطلقون الحرِّيَّة لهؤلاء الموارنة بأن يجاهروا بإيمانهم علانيةً دون خوف.

وصلت رسائل الأب إليانو إلى رومية وفهم الرؤساء أنَّ بَعْثته إلى الأقباط ضررها أعظم من خيرها فوردهُ جوابهم في أيّار سنة ١٥٨٢ أنَّه لا بأس من رجوعه مع رفقته إلى رومية. وكان موعد إقلاع السفينة من طرابلس في ٧ حزيران فتحفَّز للسفر. ثمَّ بلغه أنَّ السفينة المذكورة سوف تبحر إلى قبرس وأنَّها ستبقى هناك إلى شهر آب. فبقي المرسلون محتارين لا يعلمون أينتظرون مركبًا آخر يسافر رأسًا إلى البندقيَّة أو يركبون هذه السفينة. فانتهى الخلاف بينهم بأن يسافر الأب يوحنّا برونو مع الأخ ماريو إلى قبرس ويبقى الأب إليانو مع الأخ برنردينو في سورية إلى شهر آب. وهكذا تمَّ.

وجاء في تاريخ الدويهيّ (ص ٤٤٤) ما يوهم بسفر الأب برونو في السنة السابقة أي ١٥٨١. قال بعد ذكره انتخاب البطريرك سركيس الرزّي لرئاسة الشعب:

«وحينئذٍ كلَّفوا جوان برون أن يذهب من قبلهم إلى رومية ليؤدّي عن بطريركهم واجب الطاعة ويطلب له درع التثبيت وأنفذوا معه كتابات إلى غريغوريوس الثالث عشر وإلى وكيل الطائفة الكردينال كرافًا. وأخذ جوان برون معه أربعة أولاد... ولمَّا انتهى جوان برون إلى رومية سلَّم رسائل البطريرك الجديد وأعيان الطائفة إلى قداسة البابا. وفي الخامس من شهر آذار في سنة ١٥٨٢ أرسل البابا للبطريرك سركيس كتابة التثبيت على كرسيّ أنطاكية وكتابة أخرى لأسقف طرابلس ليُلبسه الدرع المقدَّس ويقبل منه يمين الطاعة».

والصواب أنّ الأب يوحنّا برونو لم يسافر من سورية إلاَّ في ٧ حزيران

١٥٨٢ وكان وصوله إلى رومية في أيلول. أمّا تثبيت البطريرك سركيس ومنحه درع الرئاسة بطلب الأب المذكور ووساطة الكردينال كرافّا فحصل في آخر يوم من آذار سنة ١٥٨٣ (لا في ٥ آذار ١٥٨٢) وذلك مشروح في براءة غريغوريوس الثالث عشر التي تاريخها في اليوم المذكور (اطلب مجموع البولأت المارونيّة للقسّ طوبيّا العنيسيّ ص ٨٩-٩١).

سفر الأب إليانو إلى حلب

أقبل الصيف واشتدَّ الحرّ على سواحل لبنان فرأى الأب إليانو أنّ الوقت مناسب لزيارة الموارنة في حلب وللاجتماع فيها مع بطريرك اليعاقبة كما أوصاه به الكردينال سان سفرينو وقصد بهذا السفر أيضًا أن يختفي عن جواسيس الأتراك كما فعل بسفره إلى القدس. فأرسل الأخ برنردينو إلى قنُّوبين ليقوم بخدمة البطريرك وأمّا هو فسافر وحده برًّا إلى الشهباء فحطّ فيها الرحال في ١٥ تمُّوز من السنة.

كانت حلب في ذاك الوقت من أعظم مدن الشرق وأغناها وأرْوَجها تجارةً تنتهي إليها كنوز الهند والعجم وما بين النهرين وبها تجتاز قفول الشام والعرب ومصر والأرمن، ويتجاوز عدد أهلها الثلثمائة ألف وكان النصارى منهم نحو أربعين ألفًا بينهم زهاء مائتي عائلة مارونيّة. وقد أخبر الأب إليانو في رسالته إلى الكردينال كرافّا وإلى رئيسه العامّ في تاريخ ١ آب ١٥٨٢ أنَّ موارنة حلب تحفَّوا فيه وبالغوا في إكرامه وقبلوا بكلّ خضوع ودعة أوامر مجمع قنُّوبين وأذعنوا لكلّ التنبيهات التي أُرسلت إلى الكنائس في لبنان وأنَّهم أتوه بكتبهم الدينيَّة ليُصلح فيها ما يراه منافيًا لتعليم الكنيسة. وسُرُّوا أيّ سرور بما أهداه لكنيستهم من الحلل الكهنوتيَّة. أمّا سرُّ التثبيت فإنَّه ينتظر مجيء أحد أساقفة لبنان ليمنحه صغارهم، وأردف بقوله إنَّ الطوائف الشرقيَّة كثيرًا ما تسهو عن توزيع هذا السرّ. ووجد في حلب أولادًا نجباء اختار البعض منهم ليرسلهم إلى رومية ليترشَّحوا فيها للكهنوت. وممَّا توفَّق إليه هناك أنَّه لقي شمّاسًا بارعًا في اللغة السريانيَّة فأخبر الكردينال كرافّا بأنَّه سيصحبه معه إلى رومية لمراقبة

المطبوعات الطقسيَّة المنوي نشرها للموارنة.

وانتهز الأب إليانو فرصة سفره إلى حلب ليزور مَن فيها من تجّار الفرنج فبذل مجهوده في تحريضهم على ممارسة واجبات دينهم ووزَّع عليهم الأسرار.

وممَّا عُني به الأب يوحنّا إليانو في حلب قيامةً بأمر الكردينال سان سڤرينو ارتداد السريان اليعاقبة إلى طاعة الكرسيّ الرسوليّ مع بطريركهم داود شاه المقيم في ماردين.

وهنا ينبغي ذكر شيء من تاريخ اليعاقبة بيانًا لمهمَّة الأب إليانو. كان بطريرك اليعاقبة في زمنه إغناطيوس نعمة الله الماردينيّ المعروف بالبطرك نعمة اختاره أهل ملَّته لتلك الرتبة سنة ١٥٥٥. قيل إنَّه كان مائلًا إلى الاتّحاد مع الكنيسة الرومانيَّة لكنَّه لسوء حظِّه وقع في أشراك بعض علماء المسلمين فاتَّهموه بالكفر وأصدروا عليه الحكم بالإعدام فحمله خوفه منهم على جحود إيمانه وتظاهر بالإسلام، فنجا من الموت لكنَّه لم ينجُ من وخز ضميره وتبكيت شعبه له حتَّى إنَّ العامَّة كانت تتغنّى أمامه بزجليَّة نروي بعض أدوارها:

يا حبابي يا ساداتي	اسمعوا لي هل المقالاتِ
قمَرنا انكسَف نوره	وبقينا في الظلماتِ
هتكت الدين هتكت الدين	بطرك نعمةْ يا مسكينْ
أخبارك شاعت لجوًّا الصينْ	إلى بلاد العَتْماتِ
بطرك نعمةْ أيش سوّيتْ	من بعد عزّك قد ذلّيتْ
مفاتيح السما ردّيتْ	على ربّ السماواتِ
كنت أخو الصفا شمعونْ	على إيدك يفيض الميرونْ
والحسّاد صيّروك مجنونْ	مرمي في سوء الحالاتِ

فللنجاة من هذه الحالة السيِّئة فرَّ هاربًا من ديار بكر إلى رودس ومنها إلى رومية سنة ١٥٧٨ وأعلن هناك بتوبته وبخضوعه للكرسيّ الرسوليّ ووعد بإفراغ جهده لردّ طائفته إلى الديانة الكاثوليكيَّة. وكان أخوه داوُد شاه بعد

غيبته أُقيم نائبًا عنه في البطريركيَّة اليعقوبيَّة فكتب إليه نعمة يحرّضه على اتّباع الكنيسة الرومانيَّة فوعده داؤد بذلك. فوكل الكردينال سان سفرينو إلى الأب إليانو أن يتحقَّق صحَّة إيمان النائب داؤد شاه فإذا ثبت الأمر يؤيّد الحبر الأعظم انتخابه.

فلمّا وصل الأب إليانو إلى حلب وطلب أن يجتمع بداؤد شاه أخذ هذا يماطله ويسوّفه ويعده المواعيد العرقوبيَّة ويعتذر إليه من ظلم الأتراك وانتقامهم منه إذا اجتمع بالقاصد الرسوليّ فينسبونه إلى اتّباع الفرنج. وكان أرسل دستور إيمانه فوجده الأب إليانو ملتبسًا غير واضح ومن ثمَّ تحقَّق أنَّه لا رجاء في الحاضر إلى ارتداد اليعاقبة وأنَّ مواعيدهم لغايات زمنيَّة ليس إلاَّ.

ثمَّ طلب البطرك نعمة من الحبر الأعظم أن يرسل وفدًا آخر إلى أهل ملَّته مؤكِّدًا له أنَّهم يرتدُّون إلى الإيمان المستقيم. فأرسل البابا قاصدًا رسوليًّا ليونردو أبيلا أسقف صيداء مع ثلاثة رهبان يسوعيّين سنة ١٥٨٣ فعادوا خائبين وعرفوا صحَّة ما رواه الأب إليانو عن مكر اليعاقبة (راجع المشرق [١٩٠٣]: ٢٥٦-٢٥٧).

أمّا الأب إليانو فإذ أتمَّ مهمَّته في حلب أراد الرجوع إلى لبنان ليستعدَّ للسفر ويلحق برفقته في قبرس ويعود إلى إيطالية. بيد أنَّه بلغتهُ في تلك الأثناء رسالة من قِبَل المجمع المقدَّس ورؤسائه في رومية تقدَّموا فيها إليه بأن يستأنف قصادته إلى بطريرك الأقباط في مصر. فلم يرَ بُدًّا من الإذعان إلى أمرهم.

لكنَّ المرسل الغيُور لم يَنْسَ مدَّة إقامته في حلب ما عُهد إليه من اختيار بعض أحداث الموارنة ليرسلهم إلى رومية كما أوصاه الحبر الأعظم ليتخرَّجوا هناك على الآداب الكهنوتيَّة، وقد ذكر في رسالته إلى الكردينال كرافًا في غرَّة آب ١٥٨٢ أنَّ أهل حلب عرضوا عليه بعض أولادهم لهذه الغاية ويخصّ بالذكر واحدًا منهم وجده غاية في الذكاء كان أبوه كاهنًا ولم يصرّح باسمه. ولعلَّه هو إبراهيم جرجس الذي دخل بعد قليل في الرهبانيَّة اليسوعيَّة ومات شهيدًا في مصوّع. وسنعود إلى هذا قريبًا.

وكذلك اجتمع الأب إليانو ببطريرك الروم في حلب وفاتحه في أمر اتّحاد الكنائس فوافقه البطريرك على نواياه لكنَّه اكتفى ببعض المواعيد الطيِّبة التي أتت بعد ذلك بمدَّة بنتائج حسنة.

ودَّع الأب إليانو الشهباء في العشر الأخير من آب سنة ١٥٨٢ وعاد إلى طرابلس على طريق البرّ فاجتمع هناك بالأخ برنردينو ثمَّ أبحر معه بعد قليل إلى مصر[١]. وكان وصوله إليها في أوائل تشرين الأوَّل ونزل ضيفًا كريمًا عند قنصل فرنسة المدعوّ بولس ماريانيّ الذي كان سعى لدى الحبر الأعظم باستئناف السفارة لدى الأقباط لما رآه في بطريركهم من الرغبة في الاتّحاد بالكنيسة الرومانيَّة. ولدينا منه رسائل تاريخها ٢٢ ت ١ ١٥٨٢ وجَّهها من القاهرة إلى رئيسه العامّ وإلى الكردينالَين كرافًا وسان سفرينو يذكر فيها ختام سفارته إلى الموارنة وتفاصيل سفره إلى مصر مؤمّلًا من رسالته إلى الأقباط خيرًا.

وكان الأب جوان برونو والأخ ماريو قضيا بعد سفر الأب إليانو إلى حلب نحو ٨٠ يومًا في قبرس ينتظران سفر إحدى السفن إلى البندقيَّة، وقد أصابهما في تلك الأثناء مصادرات من قِبَل الأتراك لم يَنْجُوا منها إلاَّ بدفع الغرامات الشاقَّة، وكان وصولهما إلى إيطالية في أيلول. وناب الأب جوان برونو عن الأب إليانو لدى الحبر الأعظم والكردينال كرافًا بإيضاح ما جرى من الأمور في هذه السفارة إلى الموارنة. فأعرب البابا غريغوريوس الثالث عشر عن سموّ رضاه من نتائجها الحسنة.

أمّا الأب إليانو فبقي في مصر كسفير الحبر الأعظم لدى الأقباط إلى آذار سنة ١٥٨٥ بعد موت غريغوريوس الثالث عشر وجلوس خلفه سكستوس الخامس، وأصابه في تلك المدّة من ضروب المِحَن ما يطول شرحه وليس هو الآن من غرضنا. ثمَّ رجع إلى البندقيَّة فاستدعاه الحبر الأعظم إلى رومية وعهد إليه رتبة رئيس المعرّفين (Grand Pénitencier) فقام بواجباتها إلى سنة وفاته في ٣ آذار سنة ١٥٨٩.

---

(١) لكنَّ الرؤساء استدعوا الأخ برنردينو وأرسلوا إلى مصر عوضهُ الأخ ماريو.

فصل
في تاريخ المدرسة المارونيَّة في رومية

في مبادئ المدرسة المارونيَّة (١٥٧٨-١٥٨٤)

من أجلّ الخدم التي أدّاها الكرسيّ الرسوليّ للطائفة المارونيَّة إنشاء مدرسة إكليريكيَّة يتخرَّج بها بعض أحداث الموارنة في كلّ الآداب الكهنوتيَّة حتَّى إذا أتقنوها يعودون إلى وطنهم لبنان فيخدمون أهل ملَّتهم بكلّ أمور الدين.

وكان بطاركة الموارنة أحسُّوا بحاجة طائفتهم إلى كهنة متفقّهين غيورين ذوي علم وتقًى يتهذّبون في مدارس الغرب ليُحسنوا بعد رجوعهم إلى الوطن خدمة رعاياهم. فمن ذلك ما أخبر به البطريرك الدويهيّ (ص ١٤٩) في تاريخ سنة ١٥١٥. «إنَّ رئيس الأراضي المقدّسة فرنسيس سوريانو من البندقيَّة، بعد نهاية رئاسته قدم إلى زيارة البطريرك شمعون الحدثي ثمَّ سافر في ١٤ شباط إلى رومية «فأرسل معه البطريرك الخوري يوسف مع راهبَيْن ليتعلَّما اللغة اللاتينيَّة ويدرسا تعليم الآباء الأطهار، وعند وصولهم إلى رومية كان البابا (لاون العاشر) عاقدًا مجمعًا كبيرًا في كنيسة القدّيس يوحنّا لاتران فقابلهم بغاية المجاملة والإعزاز وأمر... بأن ينزل قصّاد الكرسيّ الأنطاكيّ عند الكردينال سَنْتاكروس في كنيسة القدّيس أغسطين». ثمَّ روى كيف جرى تدريس اللغة السريانيَّة في بلاد الغرب لمّا حضروا قدّاس الخوري يوسف بالسريانيَّة فتعلَّمها منه تاسيوس أمبروسيوس.

وفي عهد البطريرك ميخائيل الرزّي سنة ١٥٦٨ طلب هذا البطريرك عن يد رئيس القدس الشريف الأب جيرولامو دا فوسّاتو من الحبر الأعظم القدّيس بيُوس الخامس «أن يُنعم على الموارنة بدارٍ في رومية تُجْعَل مدرسةً لأولادهم حتّى إذا رجعوا متعلّمين إلى أوطانهم قدروا أن ينفعوا بني ملَّتهم» (الدويهيّ ص ٤٣٩). فأمر البابا رئيس القدس الأب فرنسيس ڤيثنسيوس[1]. فسافر إلى

(١) وفي تاريخ الدويهيّ (ص ٤٣٩) «فرنسيس بنجنتين» (كذا).

لبنان وخاطب رؤساء الطائفة في إرسال الشبّان ليتعلّموا برومية. لكنّ الأمر لم يتمّ حينئذٍ.

وكان الفضل في ذلك للحبر الأعظم غريغوريوس الثالث عشر خَلَف القدّيس بيُّوس الخامس كما سبقت الإشارة إليه إذ أوصى الأب جوان باطيشتا إليانو في سفارتَيْه الأولى (١٥٧٨) والثانية (١٥٨٠) بأن يختار في لبنان فتيةً نجباء يأتي بهم أو يرسلهم إلى عاصمة الكثلكة حيث تُصرَف العناية في تربيتهم وتثقيفهم.

وهذا أيضًا ما تحقَّقه سفير الكرسيّ الرسوليّ بعد سفارته الأولى إذ كتب في التقرير الذي قدَّمه للحبر الأعظم أنَّ الواسطة الأولى الواجب اتّخاذها لخير الطائفة المارونيّة «إصلاح إكليرسها وذلك بأن يُستجلَب إلى رومية عدد وافٍ من الأحداث أو الشبّان ليتخرَّجوا في الآداب الدينيّة حتَّى إذا قفلوا راجعين إلى وطنهم يخدمون بني ملَّتهم بالأمور الروحيّة».

وكان أوَّل مَن انتخبهم الأب جوان باطيشتا إليانو شابَّين ذكيَّين لبنانيًّا وقبرسيًّا ركبا البحر معه في آذار سنة ١٥٧٨ وهما جبرئيل سعد الأدنيتيّ وكسبار القبرسيّ، وكان الموكَّل بهما الشدياق عازر القبرسيّ المارّ ذكره وكان وصولهما إلى رومية في حزيران من السنة. وقد ورد في تاريخ الدويهيّ (ص ٤٤٤-٤٤٥) أنّ الحبر الأعظم غريغوريوس الثالث عشر «أمر بإحضار الولدين فباركهما وسُرَّ بهما كثيرًا وطلب من الله أن يجعلهما غرسةً مباركةً وافتتاحًا مقدَّسًا لتمجيد اسمه وانتشار أمانته في أصقاع الشرق وأمر بأن يقيما أوَّلًا في مدرسة الأحداث إلى أن يتمَّ بناء مدرسة خصوصيَّة للموارنة».

وقد ورد ذكر الشابَّين في أحد مخطوطات المكتبة الواتيكانيَّة (الموسوم بالعدد ٥٥٢٨ في الصفحة ٣١-٣٣) باللغة اللاتينيَّة ما تعريبه: «جبرائيل سعد (Gabriel Felicis) من بان من أبرشيَّة سيّدة قنُّوبين في جبل لبنان وهي أبرشيَّة البطريركيَّة المارونيَّة. قدم إلى رومية في ٨ حزيران ١٥٧٩» وكان إذ ذاك عمره ١٦ سنة».

«كسبار غريب (؟) (Gaspar Peregrinus) أصلُه من الأفقسيَّة (Episcopia) من جزيرة قبرس ومن أبرشيَّة شدرا وهو من الطائفة المارونيَّة أيضًا قدم إلى رومية في ٨ حزيران ١٥٧٩» وكان إذ ذاك عمره ١٣ سنة».

أمَّا مدرسة الأحداث فكانت دارًا مختصَّة بالمتنصّرين المرتدّين حديثًا إلى الدين المسيحيّ (dei Neofiti).

فانكبَّ الشابّان على الدروس. وكانا يحضران مدارس الآباء اليسوعيِّين في المدرسة الرومانيَّة (Collegio Romano) التي أنشأها القدّيس إغناطيوس دي لويولا، فما لبثا أن تعلَّما اللغتين اللاتينيَّة والإيطاليَّة مع معرفتهما بالسريانيَّة وكان جبرائيل يعرف العربيَّة أيضًا وكسبار يتكلَّم باليونانيَّة الحديثة.

فلمَّا عاد الأب إليانو إلى لبنان في سفارته الثانية ألحَّ على البطريرك ميخائيل الرزّي ثمَّ على شقيقه وخلفه سركيس الرزّي بأن يلبّيا طلبة الحبر الأعظم ويختارا أحداثًا آخرين ليَردوا في رومية منهل العلم ويتهذَّبوا فيها بالسيرة الإكليريكيَّة. فوقع اختيار الأب إليانو على أربعة ممَّن رآهم أهلًا لذلك فأخذ المرسل الغيور يهتمُّ بأمرهم، فكان في أوقات الفراغ مدَّة إقامته في قنُّوبين يُعنى بتعليمهم مبادئ اللغة اللاتينيَّة كما ذكر ذلك في رسالته المؤرّخة في ١٩ تمّوز ١٥٨٠ للكردينال أنطون كرافًا. فللّه من غيرةٍ في ذلك الرسول الذي مع عظم رتبته كقاصد البابا أخذ على نفسه مهنة المعلّم للصغار. أمّا هؤلاء الأربعة فقد ورد ذكرهم في المخطوطة الواتيكانيَّة السابق ذكرها وهم:

١ - يعقوب بن سمعان (Jacobus Simeonis) الحصرونيّ كان عمره ١٩ سنة. ٢ - أنطون فرنسيس (Antonius Francisci) الحصرونيّ عمره ١٦ سنة. ٣ - حنّا رئيس (والصواب دايس) بن يعقوب (Joannes Rais Jacobi) عمره ١٥ سنة، وهؤلاء الثلثة من أبرشيَّة سيّدة قنُّوبين وهي الأبرشيَّة البطريركيَّة. ٤ - مرقس بن إسطفان المطوشي عمره ١٨ سنة من جزيرة قبرس وأبرشيَّة شدرا. وقد وصل هؤلاء الأربعة إلى رومية في ٢٧ شباط سنة ١٥٨١. وكانوا أتوا على طريق البندقيَّة فرافقهم من قبرس إلى رومية الخوري مارون بن إسطفان

المطوشي. أمّا الدويهيّ فقد روى في تاريخه (ص ٤٤٤) أنّ الذي صحبهم إلى رومية هو الأب جوان برونو رفيق الأب إليانو لكنَّ هذا الأب لم يرجع إلى إيطالية إلاَّ في أيلول كما سبق. ونزل هؤلاء الأربعة مع الخوري مارون في مدرسة الأحداث برفقة التلميذَيْن السابق ذكرهما ولم يلبثوا أن بلغوا مبلغهما من العلم بعد أن أعدَّهم الأب إليانو بما ألقاه عليهم من الدروس في لبنان.

وكانت البعثة الثالثة من الشبّان الموارنة إلى رومية في أواخر السنة ١٥٨٣. وفي تاريخ الدويهيّ (ص ٤٤٦) أنَّهم كانوا عشرة ولم يذكر منهم إلاَّ أربعة بأسمائهم. أمّا القائمة الواتيكانيَّة السابق ذكرها فأحصتهم ثمانية وهذه قائمتهم. ١ - موسى سعد العاقوريّ (دعاه الدويهيّ (ص ٤٤٦) موسى العنيسيّ) من أبرشيَّة العاقورة. ٢ - جرجس بن ميخائيل الأهدنيّ من أبرشيَّة إهدن[٢] (وهو جرجس بن ميخائيل الشهير بابن عميرة الأهدنيّ). ٣ - جبرائيل نعمة الأهدنيّ من أبرشيَّة إهدن (لم يذكره الدويهيّ). ٤ - ميخائيل صليب (Michael Crucis) البسلوقيتيّ من أبرشيَّة قنُّوبين (لم يذكره الدويهيّ). ٥ - بطرس بن جبرائيل المطوشي من قبرس من أبرشيَّة شدرا عمره ١٤ سنة. ٦ - يعقوب بن ميخائيل من الأفقسيّة من قبرس من أبرشيَّة شدرا عمره تسع سنين. ٧ - حنّا بن جرجس من ڤونو (Vuno) في قبرس ومن أبرشيَّة شدرا عمره ٨ سنوات. ٨ - جرجس بن أنطون من الأفقسيَّة من قبرس من أبرشيَّة شدرا، والثلثة الآخرون لم يذكرهم الدويهيّ. وكان يرافق هؤلاء التلامذة الخوري يوحنّا بن أيُوب الحصرونيّ من أبرشيَّة قنُّوبين ثمَّ الأخ يعقوب بن سركيس القسّ الراهب من حردين من رهبنة مار أنطونيوس (دعاه الدويهيّ القسّ يعقوب الراهب الدويهيّ). ومعه الأخ إبراهيم بن سمعان من عنيد (؟) (Anid) دعاه الدويهيّ بالشمّاس إبراهيم بن سمعان الأدنيتيّ. وكان الكردينال كرافّا استدعى الأوّل لتصحيح الكتب السريانيَّة المنويّ طبعها. واستدعى الراهبَيْن الآخرَيْن لنظارة المأوى الذي خصَّه الحبر الأعظم غريغوريوس الثالث عشر لإيواء الموارنة.

---

(٢) تصفَّح الاسم باللاتينيَّة فقال de Herden, Diœcesis Herdenensis.

وهؤلاء التسعة بلغوا رومية في ١٤ كانون الأوّل سنة ١٥٨٣ ليس في أوّلها كما ورد في تاريخ الموارنة (ص ٤٤٦) وقال الدويهيّ هناك: «وبعد أن تشرّفوا بلثم مواطئ الحبر الأعظم طلبوا من غزير كرمه بيتًا لأجل مأوى الغرباء وأن ينعم عليهم بطبع بعض كتب للصلاة فرحّب بهم قداسته وأمر بأن ينزل الطلبة مع رفقائهم في مدرسة الأحداث، وأمّا غرباء الطائفة فأقام لهم منزلًا عند كنيسة مار يوحنّا المعروف بالتينة»[٣].

وممّن ذكره الدويهيّ (ص ٤٤٦) ولم نجده في المخطوطة الواتيكانيّة «سركيس بن موسى أخي البطريرك سركيس»[٤]. ثمّ أردف قائلًا: «وفي السنة الثانية بعث البطرك أربعة شبّان غيرهم من موارنة حلب لأجل طلب العلم» لكنّه لم يذكر أسماءهم. وهذه الأسماء مصرّح بها في المخطوطة الواتيكانيّة: ١ - نيقولا ڤالنتان[٥] (Nicola Valentini) عمره ١٣ سنة. ٢ - يوحنّا منصور عمره ١٢ سنة. ٣ - جرجس منصور عمره ١٢ سنة. ٤ - يوسف إيليّا عمره ثماني سنين. وكلّهم من حلب كانوا درسوا شيئًا من اللاتينيّة ويعرفون اللغة العربيّة وكان نيقولا يعرف أيضًا اللغة التركيّة. كان وصولهم إلى رومية في شهر نيسان من السنة ١٥٨٤.

وهنا لا بدّ أن نذكر شابّين آخرين من الموارنة أُرسلا إلى رومية سنة ١٥٨٢ ولم يُفدنا الدويهيّ والأب إليانو عن أمرهما شيئًا. واسماهما مدوّنان في سجلاّت الرهبانيّة اليسوعيّة: إسم الأوّل نيقولا جرجي (Nicola di Giorgi). والثاني إبراهيم جرجي (Abraham di Giorgi) المولود في حلب سنة ١٥٦٣. وكلاهما دخل في الرهبانيّة اليسوعيّة. كان دخول نيقولا في ٢٠ أيلول ١٥٨٢. وإبراهيم في ٢٨ كانون الأوّل ١٥٨٢. ولعلّهما أخوان ولا نعرف من أمر نيقولا شيئًا، أمّا إبراهيم فهو الأب المكرّم الذي بشّر بالمسيح في الهند ثمّ

(٣) يعرف بالإيطاليّة باسم della Ficoccia.

(٤) ولعلّهُ يوجد تلميذ عاشر لم يذكرهُ الدويهيّ باسمه إذ قال إنّ عدد التلامذة المرسلين في تلك البعثة «كانوا عشرة».

(٥) لعلّهُ ترجمة اسم «شديد»

رحل إلى الحبشة فقُتل شهيدًا في مصوّع في ٤ أيّار ١٥٩٥ وسنعود إلى ذكره. وكان لإبراهيم أخ اسمه يوسف انضوى مثله إلى الرهبانيّة اليسوعيّة ولا نعلم من أخباره سوى ما ورد في أحد مكاتيب الأب إبراهيم إلى الرئيس العامّ الأب أكوافيڤا في تاريخ ١٥ ك ١ سنة ١٥٩٣ يطلب منه أن يرسل أخاه يوسف إلى الهند مع الكاهن المارونيّ موسى العنيسيّ تلميذ مدرسة الموارنة في رومية.

في إنشاء المدرسة المارونيّة الرسميّ (١٥٨٤-١٥٩٢)

بلغ عدد أحداث الموارنة المرسلين إلى رومية ليخرَّجوا فيها بالآداب الكهنوتيّة في ربيع السنة ١٥٨٤ عشرين تلميذًا كانوا يسكنون في دارٍ بقربها كنيسة على اسم مار يوحنّا المعمدان، كانت سابقًا كنيسة رعيّة فخصّصها الحبر الأعظم غريغوريوس الثالث عشر منزلًا لغرباء الموارنة الذين كانوا يأتون من الشرق إلى أمّ المدائن لغايات مختلفة دينيّة أو دنيويّة، بينهم عدّة فقراء وذلك في السنة ١٥٨٢ بموجب براءةٍ[٦] تاريخها ٣١ من شهر كانون الثاني سنة ١٥٨٢ افتتحها بهذه الألفاظ (Exigit incumbentis) وعيَّن لمعاشهم مبلغًا كافيًا. ثمَّ ألحقها في السنة التالية في ١٣ كانون الأوَّل ١٥٨٣ ببراءة ثانية[٧] بدؤها (Salvatoris Nostri) أثنى فيها على الطائفة المارونيّة وطاعتها للكرسيّ الرسوليّ وحسن استقبالها لقصّاده اليسوعيّين، ثمَّ أعلن بجعله الدار السابق ذكرها مع كنيستها ملكًا للأمَّة المارونيّة مستقلّةً عن رعيّة القدّيس أندراوس (S. André delle Frate) التي كانت قبلًا متولّيةً عليها بحيث يتصرَّف بها الموارنة كما يشاؤون ويقيمون في كنيستها رتبهم وطقوسهم الشرقيّة دون عائقٍ.

ثمَّ رأى الحبر الأعظم نموّ التلامذة وما ينجم في اختلاطهم مع أبناء جنسهم من العوائق لتربيتهم الكهنوتيّة ودروسهم فعاد في السنة ١٥٨٤ في ١٢

---

(٦) أطلبها في مجموعة البراءات المارونيّة للعنيسيّ *Bullarium Maronitarum*, pp. 81-83.

(٧) في المجموعة ذاتها (ص ٨٤-٨٩).

آذار منها وأمر بأن تُفرد الدار المذكورة للأحداث الدارسين مع كنيستها وما يلحق بها من الجنينة وبقيّة توابعها فتدعى بالمدرسة المارونيّة لا يسكنها غيرهم مع الكهنة المتولّين نظارتهم والعناية بهم. وقد ورد ذكر الذين سكنوا تلك المدرسة في اليوم المومأ إليه في المخطوطة الواتيكانيّة اللاتينيّة الموسومة بالعدد ٥٥٢٨ (في الصفحة ٣١-٣٣) وهم التلامذة المذكورون آنفًا ثمَّ الكهنة والرهبان الآتون: ١ - الخوري مارون إسطفان الكاهن العالميّ من جزيرة قبرس قدم إلى رومية في ٢٧ شباط[٨] ١٥٨١ مع أحداث قادهم إليها. ٢ - الخوري يوحنّا أيّوب الحصرونيّ الذي استدعاه الكردينال أنطون كرافّا محامي الطائفة من لبنان لسعة علمه باللغة السريانيّة ليراقب مطبوعاتها. أتى رومية في ١٤ ك ١ سنة ١٥٨٣. ٣ - القسّ يعقوب سركيس الحردينيّ من رهبان مار أنطونيوس أتى رومية بأمر الكردينال عينه لنظارة المأوى قبل تحويله إلى مدرسة في ذات التاريخ. ٤ - الأخ إبراهيم سمعان الأدنيتيّ من الرهبان المذكورين أتى مع القسّ يعقوب. ويشير في آخر الكتابة إلى ستّة تلامذة آخرين لم يذكر أسماءهم ولعلّهم كانوا منتظَرين (desiderantur) «اثنان من دمشق حيث يوجد كرسيّ أسقفيّ»، واثنان من بيروت «ليقوما بخدمة أبناء جلدتهم الذين يهربون من ظلم الأتراك إلى بلاد الدروز حيث يعيش معهم الموارنة». ثمّ «واحد من بجدرفل ?(Becartela) وواحد من جبيل أو الجبّة ?(Gibbeir) وهما من أخصّ منازل الموارنة». وواحد من كورماتيكو[٩] (Cormatico) من قبرس. وواحد من غمبيلي (Gambili) من قبرس.

فهؤلاء باشروا مذ ذاك عيشةً منتظمة كما تليق بالدارسين ولا سيَّما بالمترشّحين للعيشة الكهنوتيّة. وقد أيّد الحبر الأعظم غريغوريوس الثالث عشر بسلطانه السامي نظام تلك المدرسة ببراءة خاصّة[١٠] أصدرها في ٥ تمّوز سنة ١٥٨٤ تبتدئ بهذه الألفاظ (Humana sic ferunt) يبيّن في مقدّمتها ما

(٨) وفي المخطوطة الواتيكانيّة سنة ١٥٨٢ ونظنّ أنّها غلط ولعلّ الأخوين نقولا وإبراهيم جرجي الحلبيّين أتيا معه وقتئذٍ.

(٩) والصواب كورماكيتو، وكلّ هذه الأسماء مصحّفة.

(١٠) أطلبها في مجموع البولات المارونيّة ص (٩١-٩٧).

حمله على تخصيص المنزل السابق العموميّ بتربية أحداث الموارنة وجعله مدرسةً وما يتوقّع منها من الفوائد الجمّة للطائفة المارونيّة كلّها. ثمّ يعدّد ما لتلك المدرسة من المداخيل وبأيّ شروط يدخلها التلامذة وما سيكون نظامهم ومميّزاتهم وطقسهم الشرقيّ. ويجعل المدرسة تحت نظارة الكردينال كرافًا محامي الطائفة ويجعل في يده تدبيرها والاهتمام بسائر أمورها مؤمّلًا من نجاحها خيرًا كبيرًا لموارنة لبنان.

ثمّ أردف البابا هذه البراءة ببراءة رابعة في السنة والشهر عينها أوّلُها (Romani Pontificis) حتّم على مجمّع التسجيل الرومانيّ (Dataria) أن يدفع كلّ سنةٍ من مداخيله ١٢٠٠ دينار لمصروف المدرسة المارونيّة[١١]. فكانت هذه النعمة الممنوحة من ذاك الحبر الهمّام كشهادة محبّته الأخيرة للطائفة المارونيّة حيث توفّي بعد قليل. فخلفه سكستوس الخامس الذي أحبَّ أن يبرهن عن انعطافه نحو الموارنة ومدرستهم فأضاف إلى مداخيلها أوقاف كنيسة مريم العذراء والقدّيس كلوديوس المعروفة بفراسينوريو وكانت فرغت بوفاة الكردينال ألكسندر المتمتّع بها فأبرز في ذلك براءة[١٢]، إفتتحها بهذه الكلمات (Inter cœtera collegia) في تاريخ آب من السنة ١٥٨٥ وألحقها ببراءة ثانية بمعناها في ٧ شباط ١٥٨٦.

وقد أشار الدويهيّ في تاريخه إلى هذه الهبات البابويّة فقال عن البابا غريغوريوس إنّه «أجرى على تلامذة المدرسة المارونيّة وظائف من نفس طعامه» ثمّ قال (ص ١٨٠): «ولمّا قام بعده كسوسطس (كذا) الخامس رتّب لهم دخلًا يكفي ١٥ طالبًا مع جميع مَن يقوم بخدمتهم». وقال في محلّ آخر عنه: «ولمّا علم أنّ سالفه أدركته الموت قبل أن ينهي المدرسة رتّب لها دخلًا سنويًا في فراسينوريو وفي السنة الثانية من رئاسته عيّن لها وقفًا في العاموديّة» (ص ٤٢٠).

(١١) تجدها باللاتينيّة في مجموع البراءات المارونيّة (ص ٩٨-١٠٠).
(١٢) في المجموع عينه (ص ١٠٠-١٠٣).

وقد امتاز بكرمه الحاتميّ نحو هذه المدرسة الكردينال أنطون كرافّا المومأ إليه فإنَّه مدَّة حياته لم يزل ساعيًا بترقّيها مادّيًا وأدبيًّا إلى سنة وفاته (١٥٩٤) وهو الذي جدّد بناء كنيستها التي كانت في جملة تصاويرها صورة لرفائيل المصوّر الذائع الشهرة ووقف على المدرسة قبل موته جميع تركته بمبلغ عشرة آلاف سكودي(١٣). وبهذه الأرزاق الجارية على المدرسة المارونيَّة أصبحت مماثلةً لأفضل المدارس المنشأة في رومية كمدرسة اليونان والمدرسة الإنكليزيَّة والمدرسة الإيرلنديَّة.

أمَّا إدارة هذه المدرسة فجُعِلت في أيدي الرهبانيَّة اليسوعيَّة فكان يسكن فيها الرهبان الموكولة إليهم العناية بالتلامذة ولا سيَّما الرئيس ومدير المدارس والأب الروحيّ. وكان أوّل رئيس أُقيم عليهم الأب يوحنّا برونو رفيق الأب إليانو في قصادته الثانية إلى الموارنة، بقي في رئاسته إلى السنة ١٥٩٠.

وكان التلامذة يذهبون كلّ يوم إلى المدرسة الرومانيَّة ليتلقَّوا فيها دروسهم من الآباء اليسوعيّين كتلامذة مدارس الإنكليز واليونان والإرلنديّين مباشرةً من أصول اللغتين اللاتينيّة والطليانيَّة، ثمَّ العلوم الأدبيَّة والرياضيَّة ثمّ الفلسفة واللاهوت فيدوم زمن دروسهم من عشر سنين إلى ١٢ سنة.

وكان لهؤلاء التلامذة ثيابهم الرسميَّة درّاعة سوداء (قنباز) وزنّار مثلها مع رداءٍ طويل وقبَّعة إكليريكيَّة، وهم يحافظون على طقسهم السريانيّ فيقوم بتعليمهم اللغتين العربيَّة والسريانيَّة كهنة من ملَّتهم يقطنون معهم. وكانوا يحتفلون كلّ سنة بعيد القدّيس يوحنّا المعمدان احتفالًا عظيمًا وعلى اسمه كانت كنيستهم، وكانوا في مساء النهار يعقدون جلسة أدبيَّة في صاحب العيد بلغات مختلفة يحضرها الكردينال محامي الطائفة وكثير من أرباب الإكليروس وذوات رومية. وفي ٩ شباط كان يعيّدون عيد القدّيس مارون بأبهَّة ورونق فيدعون إليه أصدقاء الطائفة ومحبّي الطقوس الشرقيَّة. وكذلك رتبة أحد الشعانين كانوا يقيمونها بكلّ مجاليها فيتقاطر الرومانيُّون إلى حضورها.

(١٣) أطلب تاريخ الدويهيّ ص ١٨٠.

وقد اهتمَّ تلامذة رومية مع الكهنة الموارنة والرهبان الذين في مدرستهم بنشر الكتب الطقسيّة المارونيَّة بالسريانيَّة. وأوّل ما ظهر من ذلك سنة ١٥٨٥ كتاب الجنّازات طُبع على نفقة البابا غريغوريوس الثالث عشر في مطبعة دومنيك بازا (D. Basa) بحرف سريانيّ مع نقوش وتصاوير. وهو من أقدم الكتب التي طبعت بالسريانيَّة.

قوانين المدرسة المارونيَّة في رومية

وقد وقفنا على قوانين المدرسة المارونيَّة في سجلاَّت رهبانيَّتنا اليسوعيَّة وهي باللغة اللاتينيَّة من إنشاء مجمع انتشار الإيمان وُضعت بعد تأسيس المدرسة في القرن السابع عشر، وكان قبلها الكردينال أنطون كرافّا قد وضع لها بعض القوانين المختصرة جرى التلامذة عليها أوَّلًا فنقَّحها المجمع المذكور وأوضحها في أحد عشر فصلًا.

فالفصل الأوَّل يتضمَّن خلاصة تاريخ إنشاء المدرسة المارونيَّة بهمَّة البابا غريغوريوس الثالث عشر في السنة ١٥٨٣ (كذا) وما قصده من إنشائها أعني تهذيب بعض أحداث الموارنة ذوي الآداب الحسنة والذكاء بالتقى والعلوم، حتّى إذا تخرَّجوا في رومية بكلّ الآداب الكهنوتيَّة يعودوا إلى وطنهم ويتولَّوا نشر الدين الكاثوليكيّ بين أهل ملَّتهم ومواطنيهم. وفي هذا الفصل ذُكر الكردينال كرافّا المحسن الكبير إلى الطائفة المارونيَّة ومساعيه الطيّبة في إنجاح هذه المدرسة مادّيًّا وأدبيًّا.

الفصل الثاني مداره على الصفات المطلوبة من أولئك الأحداث وكيف ينبغي انتخابهم قبل أن يُرسلوا إلى المدرسة المارونيَّة ولذلك لا بدَّ أن يقضوا مدَّةً في المدارس المنشأة في وطنهم بفضل الكرسيّ الرسوليّ فيُمتَحنوا فيها ويتلقَّنوا المبادئ الغراماطيقيَّة فإذا وجدوهم أهلًا أرسلوهم إلى المدرسة المارونيَّة. ولا يُقبَلوا في رومية إلاَّ مصحوبين بكتاب من السيّد البطريرك أو برخصة مجمع انتشار الإيمان أو الكردينال محامي الطائفة.

الفصل الثالث يحتوي شروط دخول التلامذة في المدرسة المارونيّة بأن يختلوا مدَّة عشرة أيّام برياضة روحيّة يتمرَّنون فيها على الواجبات الدينيّة، وبعد اعترافهم العامّ بذنوبهم وقبولهم القربان الأقدس يطَّلعون على قوانين المدرسة لينظروا أيستطيعون حفظها فإذا حَسُنت لديهم تلَوا صورة القَسَم الذي وضعه أوربانوس الثامن للشرقيّين ووعدوا بتخصيص حياتهم لخدمة النفوس في العيشة الإكليريكيّة وتأهَّبوا لقبول الدرجات الصغرى مباشرةً بالإكليل.

الفصل الرابع خُصّ بالرياضات الروحيَّة التي يجب على التلامذة ممارستها من صلوات لفظيَّة وتأمّل يوميّ صباحًا نصف ساعة وحضور القدّاس الإلهيّ وتلاوة الكتب الروحيّة ومواظبة على سرّي التوبة والقربان على الأقلّ مرَّة في الشهر وفي الأعياد الحافلة. وتلاوة طلبة جميع القدّيسين يوميًّا مع ربع ساعة لفحص الضمير مساءً. وفيه تحريض على درس الطقس المارونيّ واللغة السريانيَّة. وفيه أيضًا ذكر الرياضة السنويَّة وبعض الرياضات الروحيَّة في الأعياد وأيّام الآحاد. وكذلك يُذكر تعيين أبٍ روحيّ يعترف التلامذة له بخطاياهم.

الفصل الخامس يفصّل واجبات رئيس المدرسة وهو أحد الآباء اليسوعيّين وما يُفرض عليه لتثقيف الدارسين وتهذيبهم الروحيّ بحيث يوفّر لهم الوسائل ليتأصَّلوا في ممارسة الفرائض التقويَّة السابق ذكرها فيحسنوا القيام بها، ويعيِّن لهم أبًا روحيًّا يقرُّون له بخطاياهم دون سواه ويمدُّهم بالكتب التقويَّة وسِيَر القدّيسين وكلّ ما من شأنه أن يزيدهم برارةً وقدسًا.

الفصل السادس عنوانه «ما يجب على التلامذة من الطاعة والإكرام للرؤساء» بيّن فيه أنّ نجاح المدرسة وحسن تدبيرها يتوقَّفان خصوصًا على طاعة التلامذة لرؤسائهم وما ينتج من الأضرار بمخالفتها، فيحضّ الجميع على إتمام أوامر الرؤساء وإكرامهم ويتهدَّد العصاة بالعقوبات الصارمة بل بطردهم من المدرسة.

الفصل السابع يبحث عن نظام المدرسة اليوميّ بحيث يحفظون بتدقيق

الترتيب العامّ فيعيشون عيشةً متساوية في شغلهم وراحتهم وصلاتهم ونومهم وخروجهم من المدرسة ورجوعهم إليها دون امتيازات خاصّة إلاّ إذا حكم الرئيس بخلافه. ويُحتّم عليهم أن يسلّموا ما عندهم من الدراهم لوكيل المصروف فينفقونها بإذن الرئيس ولا يحفظوا كتابًا خارجًا عن نظام المدرسة دون رخصة الرئيس. وفي هذا الفصل عدّة قوانين في تصرُّف التلامذة مع بعضهم ومع الغرباء وفي أوقات الدرس وفي ساعات الفراغ وفي الأصوام والقطاعات وفي أمراضهم.

الفصل الثامن يشتمل على واجبات الرؤساء في عنايتهم بحفظ النظام اليوميّ لترويض أخلاق التلامذة وتحسين سلوكهم لا سيَّما في الخارج. وهنا كلام عن ملبوسهم وعن زياراتهم لمعابد رومية أو لبعض الذوات وترويض أجسادهم بالألعاب المناسبة.

الفصل التاسع يبيّن خصوصًا ما يجب على التلامذة من لزوم الحشمة والتقيَّة والأنس في كلّ أعمالهم ليكونوا قدوةً لكلّ مَن يراهم أو يخالطهم ويحذروا من كلّ حديث يسيء إلى القريب أو يغيظ رفقتهم.

الفصل العاشر موضوعه الدروس وتحريض التلامذة على ملازمتها بكلّ حرص واجتهاد مع حفظ نظامها سواء حضروا تعليم الأساتذة في المدارس أو تباحثوا في أماثيلهم في ما بينهم أو راجعوها وحدهم في غُرَفهم. مع إيضاح الطرق المناسبة للاستفادة منها. وفيه كلام على الاعتناء بالكتب المدرسيَّة والكتب المستعارة من المكتبة العموميَّة.

الفصل الحادي عشر يخصّ الرؤساء وفيه تعريف ما يقتضي عليهم في تخريج التلامذة بالعلوم وتثقيف عقولهم ليصبحوا يومًا أنوارًا لأهل بلادهم. فيتتبَّع المجمع المقدَّس سياق دروسهم مباشرةً بالعلوم اللغويَّة والبيانيَّة ثمَّ الفلسفة بأقسامها وفروعها ثمَّ اللاهوت النظريّ والأدبيّ وسائر العلوم الكتابيَّة والشرعيَّة الكنسيَّة إلى نهاية دروسهم وتقدمة الفحوص عنها والشهادات المؤذنة بنجاح التلامذة فيها. ولم يَنْسَ المجمع درس لغتَيْهم الوطنيَّة والطقسيَّة

تحت نظارة الكهنة أو الرهبان الذي عُهد إليهم ذلك. وهذا ما أهَّل تلاميذ رومية لخدمة العلوم الشرقيَّة في أوروبَّة كما سترى.

وهذه القوانين المذكورة تجد خلاصتها في براءة البابا أوربانوس الثامن التي أصدرها في ٣٠ تمُّوز سنة ١٦٢٥ لإثبات مدرسةٍ تأسَّست وقتئذٍ في جبل لبنان لتثقيف أحداث وشبّان الطائفة المارونيَّة لا سيَّما الذين يرشَّحون للمدرسة المارونيَّة في رومية ليتمّموا فيها سياق دروس الفلسفة واللاهوت. وهذه البراءة قد نُشرت مُعرَّبةً في طبعة المجمع اللبنانيّ الجديدة التي تولَّى نشرها الطيّب الذكر المطران يوسف نجم في الفصل الثاني والأربعين من الذيل (ص ١٢٨-١٣٢). وقد استفاد أيضًا آباء المجمع اللبنانيّ من قوانين المدرسة المارونيَّة في الباب السادس من القسم الرابع المعنون بالمدارس والدروس.

وإن عدنا إلى ذكر تاريخ المدرسة المارونيَّة في سنيها الثماني الأولى (١٥٨٤-١٥٩٢) وجدناها ساعيةً في سبل النجاح تحت رعاية الأب يوحنّا برونو الذي قام لديهم مقام أحنّ الآباء بعد أن زار بلادهم فاختبر محامد أهل ملَّتهم.

ولم يكونوا ليذهلوا عن أكبر المحسنين إليهم وأعزّ أصدقاء طائفتهم وأكبر السعاة في فتح مدرستهم الأب جوان باطيشتا إليانو. وممَّا وقفنا عليه من رسائلهم التي حرَّروها للأب المذكور رسالة لجبرائيل الباني أوَّل تلاميذ المدرسة المارونيَّة كتبها كما يظهر بعد رجوع الأب إليانو من مصر إلى البندقيَّة سنة ١٥٨٥ ومنها يظهر حبّ هؤلاء التلامذة للأب إليانو وعرفانهم جميلهُ:

بسم الآب والابن والروح القدس

أُقبّل الأرض وأحني بالهامة الخاطئة بين الأيادي الطاهرات النقيّات الزكيّات أي أيادي المحبّ الحنون وتاج رأسي وقرَّة عيني ومهجة فؤادي المحبّ المحبوب أبي القسّ باطيشتا سلَّمهُ الله تعالى.

سبب تسطيرها الأشواق إلى نظرك البهيّ الله يروينا إيّاه بخير وعافية. ثمَّ الذي نعرّف به الأب الحنون بأنّي وقت سمعت أنَّك جيت مثل ما يكون أبي قام

من بين الأموات. فرحتُ جدًّا وشكرتُ الله علي وصولك الطيّب إلينا وعلى سلامتك ومجّدت الله القدُّوس الذي ردَّك إلينا لأنَّك وقت كنت غائب كنَّا مثل اليتامى بلا أب ولا سيَّما أنَّك عملت عمل خير عظيم وجبتنا من بلادنا في كلّ جودة. وكنّا مشتاقين جدًّا لأنَّنا كنّا دائمًا نصلّي حتّى الله يرونا وجهك قبل الموت. ونُعلم الأب الحنون بأنّ البابا غريغوريوس عمل لنا مدرسة وطلبنا جماعتكم حتّى يدبّرونا والحمد لله الجنرال أنعم علينا وأعطانا إيّاهم ليدبّرونا وكنّا مستنظرينك زمان طويل لكي تجيء وتدبّرنا وإن شاء الله وقت تجيء نطلبك من الجنرال. واطلب من إحسانك إن كان يجيء الخوري حنّا وأنت في البندقيّة أنَّك تعينه وتكون لنا معين في كلّ ضيقتنا وغربتنا. وما نعتاز وصيَّة لأنَّك دائم حريص علينا وأنت جبتنا وأنت ربّيتنا وأدام الله بقاك.

أحقر الناس عبدك وابنك
جبرائيل الباني ابن القسّ يوسف

وقد وقفنا لتلاميذ رومية على مكتوب آخر كتبه جبرائيل المذكور للأب إليانو باسمه وباسم ثمانية من رفقته هذا نصُّه:

أقبّل الأرض وأنحني بين أقدام السائر بخدمة العليّ الشريف ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح الذي وعد بإنجيله المقدَّس ملكوت السماوات للمجتهدين بعمله... آمين. وسبب تسطيري هذه الكتابة أنا الحقير جبرائيل شوقي لنظرك أنت الذي بوساطتك أتيت إلى هذا الموضع المقدَّس. ثمَّ إنَّنا نعلم الآن أبوَّتك نحن يعقوب ومرقس ونعمة وكسبار ويوحنّا وأنا الحقير مسطِّر هذه الأسطر أنَّنا معتازين هؤلاء الكتب الذين أساميهم مكتوبين بورقة الأب يوحنّا (برونو). فمن كلّ بدّ وسبب يا أبونا نريد أنَّك ترسلهم ولا تتهاون بالحبّ الروحانيّ الذي أنت به مقيَّد نحونا. ونعلمك أيضًا أنَّنا نحن كلّنا طيّبين بنظر الله ونظر سيّدنا البابا ونظر سيّدنا الكردينال أنطونيوس (كرافّا) وما يختنا غير نظرك ورؤياك البهيّ وهؤلاء الكتب والربّ يجمع الشمل بيننا وبينك آمين.

أنا الحقير مرقس القبرصيّ أنا الحقير جبرائيل الهدنانيّ أنا الحقير موسى العاقوريّ أنا الحقير جرجس الهدنانيّ أنا الحقير سركيس ابن أخو البطرك سركيس أقبّل أياديك كثير أنا الحقير ميخائيل ابن أخو المطران أنا الحقير يوحنّا الحلبيّ وبعد السلام كثير كثير آمين آمين. (وفي آخرها عبارةٌ بالسريانيَّة هذا تعريبها):

إنَّ التلميذ الذي وُضع من الأب يوحنّا باطيشتا اليوم يتعلَّم اللاهوت وهو

يسلك بمخافة الله ويطلب من أبيه الروحانيّ الأب باطيشتا أن يرسل لنا أعمال الشهداء والكتب التي نتنوّر بها.

ولدينا مكتوب آخر كتبه تلميذه الخوري يوحنّا أيُّوب الحصرونيّ المارّ ذكره بعد رجوع الأب إليانو من مصر إلى البندقيّة:

بسم الربّ حافظ خائفيه وموصلهم إلى درج الكمال

كما يتوق الأيّل إلى ينبوع المياه كذلك تاقت نفسي إلى حضرة الآب القدّيس الجوهر النفيس الذي ليس في قداسته شكّ علم الأعلام ومصباح الظلام... فخر العلماء وزين الكهنة أبي ومعلّمي وتاج رأسي القسّ باطيشتا أدام الربّ كهنوته ويرحمني ببركة صلواته. وسبب تسطيرها كثرة الأشواق إلى نظر أيقونتكم البهيّة يمتّعنا بها الربّ قبل الموت. ثمَّ نعلم أبوّتك بأن وصل إلينا خبر المحنة التي أتت عليك فغمَّنا كثيرًا لكن نشكر الله على خلاصك بخير يا أبي قال داود النبيّ: كثيرة هي أحزان الصدّيق ومن جميعها يخلّصه الربّ. وأعرض على معرفتك الكريمة أنّي أنا الحقير تلميذك دخلت إلى المدينة المعظّمة أمّ المدن رومية وصار لي تكريم عظيم من السيّد الكردينال أنطونيوس كرافّا أدام الله بقاه زمنًا طويلًا. وكذلك الأب الأقدس سيّدنا البابا أنعم علينا بكلّ شيء طلبناه منه أخذ لنا كنيسة ولها بستان وعمَّر لنا لزقها مدرسة عظيمة مثل مدرسة الملكيّة (أي اليونان) وأحسن. وأولاد الموارنة انتقلوا جميعًا إليها وعمل لنا اسطنبا (أي مطبعة Stampa) بالحرف السريانيّ الكبير الربّ يجازيه في ملكوته السماويّ. وأنا ومعلّمي القسّ يوحنّا برونا نقلنا الكتب من السريانيّ إلى الإفرنجيّ وهو مجتهد وساعي بكلّ أشغالنا وتعب كثيرًا من أجلنا الربّ يجازيه... ونعلم قدسك إن كان يهوّن الله في شهر نيسان أتوجّه إلى البلاد ونرجوك أن تجعل طريقك علينا حتَّى نقشعك ونفرح فيك قبل الموت وحضر تسطيرها تلاميذك أهل جبل لبنان يقبّلون يديك.

تلميذك الحقير في الكهنة يوحنّا الحصرونيّ
من جبل لبنان

وقد اطَّلعنا على رسالة حرَّرها البطريرك سركيس الرزّي إلى الأب إليانو في تاريخ ٢٥ آذار ١٥٨٥ يهنّيهِ فيها بالنجاة من محنته ويوصيه بالتلاميذ الموارنة:

ܦܛܪܘܣ ܦܛܪܝܪܟܐ ܕܡܪ̈ܘܢܝܐ

السلام والبركة التي حلّت على جوق الرسل تكون حالّة على أعزّ الأصدقاء والمحبّين القسّ باطيشتا. الربّ يبارك عليك في كلّ أيّام حياتك ويخلّصك في الدنيا والآخرة ويكون حظّك في ملكوته السماويّة بصلوات العذراء الطاهرة والآباء القدّيسين آمين.

وسبب تسطيرها كثرة الأشواق إلى رؤياك السعيد الله يروينا وجهك بخير وعافية آمين. ثمّ نعلم لمحبّتك الصادقة ولأمانتك الواثقة بأن وصلت مشرّفتك إلينا وفهمنا مضمونها وصار عندنا غمّ من تحت رأس الخسارة والضيق الذي صار عليك لكن نرجو المعونة من الله سبحانه وفي نظر السيّد البابا يتمّمها في كلّ خير جزيل ويمشّي تعليم الكنيسة الرومانيّة في ذلك البلد المحروس ويكون عندنا فرح بدل الغمّ الذي اغتمّينا. وإنّك أرسلت تقول على أحوال البلد وأنّ الحكّام يتكدّروا وجاء إلى عندنا باشا صعب قويّ وصار عندنا فزع وعرانا أسباب الدير (؟) لكن عاد صار لنا رستاق على يد القنصل والخواجكيّة الإفرنج الله يخلص لك ولهم آمين. وإنّهم دخلوا عند البابا وطالعوا لنا مرسوم توصية في الدير وأنّ لا أحد ينكّد علينا فاطمنّينا بذلك. وأنا الحقير والمطارنة والأساقفة والرهبان بندعي لك في الخلاص وهم يخصّوك بالسلام ويضيفوا شوقهم إليك كثيرًا أعلمناك ذلك وبعد تجديد البركة والسلام عليك كثير.

ثمّ نخبر محبّتك بأن إذا بقي يجيك أخبار من جوّا ابقَ ارسل عرّفنا بذلك وأرسل وَصّ في الشابّين الخوري يوحنّا وفي ابن أخي الشمّاس سركيس والقسّ إبراهيم الراهب وبقيّة الأولاد وأهل المدرسة ولا تقطع جميع أخبارك عنّا.

برزت من دير سيّدة قنّوبين
نهار عيد البشارة ١٥٨٥

أثبتنا مبادئ تاريخ المدرسة المارونيّة ونظامها وتدبير شؤونها المادّيّة والأدبيّة مع خلاصة قوانينها وما نالته من كرم الأحبار الرومانيّين من الامتيازات الممتّعة فضلًا عن الأوقاف الكافية لمعاش تلامذتها.

وبقي الأب يوحنّا برونو على رئاسة المدرسة المارونيّة في مقامها الجديد من السنة ١٥٨٤ إلى ١٥٩٠ وهو يبذل جهده في تمهيد العقبات التي كان يلقاها في طريقه مدّة تلك السنين الأولى فذلّلها بحكمته وحسن نظره. وقد

ساعده كثيرًا على ذلك الكردينال أنطون كرافًا محامي الطائفة المارونيَّة الذي كان يعتبر هذا المشروع كأعظم خدمة يؤدّيها للكنائس الشرقيَّة ليعيد لها رونقها القديم.

ولمّا عاد الأب جوان باطيشتا إليانو إلى رومية سنة ١٥٨٥ بعد محنته الشديدة في سفارته إلى الأقباط عهد إليه البابا سكستوس الخامس خلف غريغوريوس الثالث عشر وكالة التائبين العظمى فبقي عليها إلى سنة موته في ٣ آذار سنة ١٥٨٩. وكان في تلك المدَّة لا يدّخر وسعًا في خدمة المدرسة المارونيَّة ونجاحها وكان يكاتب معارفه في لبنان ويرسل لهم الصدقات وآنية التقديس ويطّلع على أحوالهم الدينيَّة. وممّا وقفنا عليه في سجلاَّت الرهبانيَّة اليسوعيَّة المكتوب التالي أرسله إلى الأب إليانو من طرابلوس في ١٠ أيلول سنة ١٥٨٦ ثلثةٌ من أهلها بهذا الإمضاء «يونان ويوسف وسركيس» ولعلّهم كهنة طرابلوس الموارنة.

السلام الباقي على الأب المكرَّم المحبّ والأخ بالمسيح القسّ باطيشتا سلّمه الله تعالى من كلّ شرّ ويرحمنا الربّ ببركة صلواته المقدَّسة آمين.

ثمَّ نعلم سيّدنا وعزيزنا أنَّنا نحن بعون الله وبصلواتك طيّبين وشاكرين الله لسمعنا بسلامتك إذ جئت من مصر طيّب. وإنَّه قد وصل إلينا من فضلك على أيد الخواجا فرنسكو(١٤) كأس وصينيَّة فضَّة مطليَّين ذهب ومبخرتين وقنديل وسطل وسخَّانة نحاس لغسل اليدين وأشحيم فرنجيّ وعتيقة(١٥). وأمَّا دوايات الكتابة الذي أوصاك عليهم القسّ جرجس والبلصام (والبلسم) فما بعثت لنا منهما شيء. ونريد من فضلك وإحسانك أن تبعث لنا عودة قدّاس كاملة وتاج وبلسم وكتاب العتيقة يكون بخطّ عبرانيّ ولفظ سريانيّ مثل الصغير الذي كان معك والدهن الذي وعدتنا به لقطع الدلف. واكتب لنا حقّ الحوائج الذي تبعثهم لنا كم تكون حتّى نرسل لك حقّها كما يريد خاطرك. ونريد من فضلك أن تقبّل لنا أيادي سيّدنا البابا وتشاوره أن يرسل لنا ورقة من جهة الصوم والأعياد حتّى بدستوره نمشي على رتبتكم لأنَّ ذمَّتنا تدلّنا باختلاف الطائفة عنكم.

أمّا أمر القسّ سركيس فهكذا كان. لمّا أراد البطرك أن يرسل الحصرونيّ أم

(١٤) نظنّ أنّه كان قنصل البندقيَّة في طرابلس وأحد تجّارها.

(١٥) يريد بالعتيقة توراة العهد العتيق

حبقوق أم غنطوس ما أحد منهم أراد أن يدخل رومية من شأن ختم الأسطنا (كذا). ومن بعد ما جلب البطرك واحدًا منهم جاء لعندنا وقال: أبعث القسّ سركيس. وتوافقنا معه وقمنا هنأناه. ومن بعد ما وصلت لطرابلوس قام البطرك والحصرونيّ عملوا شور غير ذلك ما نعرف أيش بدا لهم ومن أيش الربّ يعلم. كنت بعثه من كلّ قلبي لكنَّ الحصرونيّ جاءنا خبر أنّه تكلّم غرائب وقال إنّنا كنّا طلبنا أن نأخذ رعيَّة البطرك واشتكى علينا إلى البابا وأنّنا مخالفين الكنيسة ورتبتها. الله يجازيه. وباين رجع إلينا وهو يقول إنّه جاء من رومية ميّت من الجوع بلا زوّادة وجاب معه بعض أوراق كتب نُوّيسات وأشبينات أيش نريدهم كان لنا خاطر أن تنطبع كتب الكنيسة على يدك كما يريد الله وكما تعرف أنت لكن أيش في خاطر البطرك والشرح طويل. وبعد السلام والباقي على الدوام في محبّتك الحقير يونان وإخوته كلّ واحد باسمه ومن المطران يعقوب. كُتب في طرابلس ١٤ أيلول سنة ١٥٨٦ مسيحيَّة. عبوديَّة محبَّتك بالمسيح.

يونان ويوسف وسركيس

فيؤخذ من هذه الرسالة أنَّ الموارنة في رومية باشروا بطبع كتبهم الطقسيَّة في غيبة الأب إليانو. وقد سبق أنَّ الكردينال أنطون كرافّا كان استدعى لهذه الغاية الخوري يوحنّا أيّوب الحصرونيّ فنشر بالطبع كتاب الجنازات المعروف بالنّويسة. إلاّ أنَّ الطائفة كانت في حاجة أمسّ إلى كتاب القدّاس والشحيم. وكان الأب إليانو يفكّر في تنقيحهما وطبعهما ويحثُّه على ذلك الكردينال كرافّا لولا أنَّ الموت عجَّله قبل إبراز فكره إلى الوجود.

وفي السنة ١٥٩٠ قام خلفًا على رئاسة المدرسة المارونيَّة الأب إيرونيموس فوروفنتي الرومانيّ بعد الأب يوحنّا برونو ولا نعلم أكان ذلك بسبب موت الأب برونو أم لوظيفة أخرى عُهدت إليه. وبقي الأب فوروفنتي ستّ عشرة سنة في تدبير المدرسة (١٥٩٠-١٦٠٦) فجرى على آثار سلفه وعُني عناية عظيمة في ترقيتها. وفي أوَّل سنة رئاسته كتب البطريرك سركيس بطرس الرزّي إلى رئيس عامّ الرهبانيَّة اليسوعيَّة الأب كلوديوس أكوافيفا يستدعي سبعة من التلامذة الذين كانوا على ما يظهر أنهوا دروسهم فحان وقت سيامتهم كهنة. وها هوذا الكتاب:

ܦܛܪܘܣ ܦܛܪܝܪܟܐ ܕܡܪ̈ܘܢܝܐ ܡܣܟܝܢܐ

البركات المتواترات مع السلام الروحانيّ الذي خصَّ به سيّدنا تلاميذه في الغرفة الصهيونيَّة فذلك السلام بعينه يكون مع الأخ العزيز الصائم المصلّي الديّن الخيّر المعلّم العامل في وصايا ربّه ذو الفهم والعقل والمعرفة صاحب الرأي الصالح والتدبير الناجح المتروّس على الجوقة الأطهار الأيسوعيَّة أبونا المحبّ الجنرال (كلوديوس أكواڤيڤا) تكون البركة حالَّة عليك وعلى تلاميذك القسوس والشمامسة كلّ واحد باسمه وعلى رزقكم ومقتناكم ويحلّ الربّ ويبسط أمنه وسلامه وطاعته ورضاه وبركاته وباقي خيراته عليكم وبينكم آمين.

والمعروض على المسامع الكريمة كرَّمها الله أنَّه وصلت إلينا أخبار أعمالك الصالحة أنت وتلاميذك أولادنا الذين يتعلّمون في المدرسة وفرحنا وانشرحنا غاية الانشراح وخصوصًا في تكريمكم ابن أخي الشمّاس سركيس الله يجازيكم الخير في ملكوت السماء آمين. ونُعلم محبّتك بأنّا أرسلنا نجيب من الأولاد سبعة لعند أهلهم والقصد من محبّتك أن يكون نظرك عليهم وتوصي فيهم حتَّى يصلوا إلى بلادهم. وابن أخي الحبيس حضر عندي وهو يقبّل أيديك ويوصيك في أخيه سركيس حتَّى يكون نظرك عليه وتصلّي عليه حتَّى يصل هو ورفقاه بالسلامة لعند أهلهم ومهما تعمل معهم من الخير تعملوه معنا. وعند محبَّتك فهم يُغني عن طول الشرح ونكرّر البركة عليك وعلى كلّ مَن يلوذ بخدمتك آمين والشكر لله على الدوام.

برز من دير قنُّوبين في جبل لبنان المبارك سنة ١٥٩٠

ونكلّف خاطرك يا أخي أن تكلّم عزيزنا الكردينال خرافان (كرافّا) أن يخلّي الأولاد جائين من المدرسة مجبورين الخاطر ولا يعتب علينا في سفر مجيئهم لعند أهلهم ومن شأن بعثة الأولاد».

فمَن هم يا ترى هؤلاء السبعة الذين طلب البطرك سركيس الرزّي رجوعهم إلى لبنان من تلامذة المدرسة المارونيَّة وباكورة أثمارها في خدمة مواطنيهم؟ إنّ البطرك سركيس لم يذكر منهم سوى سميّه سركيس ابن أخيه. وكذلك الدويهيّ في تاريخه لم يروِ شيئًا عن رجوعهم وإنَّما ذكر فقط عرضًا (ص ٤٤٤) «أنّ يوحنّا دايس بن يعقوب الحصرونيّ عاد إلى لبنان سنة ١٥٩٠ ثمَّ لبس إسكيم مار عبد الأحد وصار أسقفًا». أمّا الخمسة الباقون فنظنّ أنَّهم

أوّلًا التلميذان اللذان سبقا الجميع إلى رومية سنة ١٥٧٨ أعني جبرائيل سعد الأدنيتيّ وكسبار القبرسيّ. ثمّ يعقوب بن سمعان الحصرونيّ الذي أتى مع يوحنّا دايس سنة ١٥٨٠. أمّا أنطون فرنسيس الحصرونيّ ومرقس بن إسطفان المطوشي رفيقاه فإنّ الأوّل كان مات في رومية كما قال الدويهيّ (ص ٤٤٤) والثاني مرقس طلب الدخول في الرهبانيّة اليسوعيّة فقبلهُ الرؤساء لكنّه توفّي قبل دخوله الدير بعد أن نذر النذور الثلثة كما أخبر الأب سكّيني في تاريخ الرهبانيّة اليسوعيّة (ج ١ ك ٥ ع ٣٤). ثمّ المدعوّان القسّ ميخائيل والخوري نعمة الوارد كتابهما إلى رئيس عامّ الرهبانيّة اليسوعيّة بعد رجوعهما إلى لبنان ولعلّهما جبرائيل نعمة وميخائيل صليب السابق ذكرهما. وهذا هو المكتوب الذي حرَّرهُ هذان الأخيران إلى الأب كلوديوس أكوافيفا باسمهما واسم رفقتهما يشكرانه ويشكران الرهبانيّة اليسوعيّة التي اهتمّت بتهذيبهم في المدرسة المارونيّة (من سجلّات الرهبانيّة اليسوعيّة):

نقبّل الأرض ونحني بهامتنا تحت موطئ أقدام الأب الحنون الرحوم الطاهر الحاذق الماهر الممتلئ نِعَمًا ومواهب من روح القدس الذي هو مزيَّن في جميع الاصطلاحات والفضائل العالي في العلوم الروحيَّة الذكيّ في أعماله البهيَّة قائد غنم سيّده يسوع المسيح في الطريق المستقيمة مرشد الناس إلى طريق الحياة السراج المضيء بين الشعوب والشمس التي بشعاعها تضيء الدنيا وجميع أقطارها القمر البهيء بين النجوم حافظ الوصايا الإلهيَّة عمود البيعة القاتوليقيَّة السائر في الطريق الأبوسطليَّة وهو معلّمنا وأبونا وعزُّنا ورافع طائفتنا نحن الموارنة وتاج رأسنا الجنرال (كلوديوس أكوافيفا). يرحمنا الربّ نحن الحقيرين في تلاميذك الكهنة الرهبان الخوري نعمة والقسّ ميخائيل في بركة صلاتك المقدَّسة آمين. أدام الله محبَّتك علينا ورئاستك على طائفتنا وعلى مدرستنا نحن الموارنة زمنًا طويلًا وأيّامًا كثيرة آمين.

ونُعلم روحك أنّنا وصلنا نحن وأرفاقينا إلى بلادنا طيّبين بعون الله وبركة صلواتك المقدَّسة آمين. إخوتنا الرهبان شاكرين فضلك وإحسانك عوَّض الله عليك الخير الذي عملتهُ معنا ومع ديورتنا يجازيك الله عوضًا عنّا في ملكوته السماويَّة آمين. ونُعلم قداستك أنّنا قبل ما نظهر من المدرسة بيومين كنّا مشتاقين أن نتبارك من قداستك وسألنا المدبّر لكي يسمح لنا بذلك فقال لنا إنَّ قداستك رحت إلى برّا المدينة. وأمّا نحن تلاميذك الرهبان ما دمنا طول أيّام حياتنا

ساكنين في ديورتنا ما ننسى فضلك وإحسانك وحنّيتك علينا برًّا بلادنا. وما نحتاج أن نوصي قداستك بالأولاد (الباقين في رومية) لأنَّ الربّ لا يحتاج إلى وصيَّة بأولاده لأنّهم إذا كانوا مُريَّضين طيّبين الخاطر جميع أيّام حياتهم يطلبون لك الخير. وسبب تسطير هذه الرسالة هو كثرة الأشواق إلى نظر أيقونتك البهيَّة الله يُسمعنا عن قدّوسيَّتك الأخبار الصالحة.

الحقير القسّ ميخائيل والخوري نعمة
في ٢٩ آب سنة (ألف وخمسمائة) وتسعين مسيحيَّة

ولا نشكّ في أنَّ هؤلاء السبعة بعد رجوعهم أخذوا يفلحون كرم الربّ بنشاط ويسعون في خير طائفتهم. إلاَّ أنَّ آثار تلك الأزمنة لا تكاد تروي شيئًا عن أعمالهم وسوف ندوّن مع جدول أسمائهم ما عثرنا عليه من أخبارهم.

وفي السنة ١٥٩٣ رجع إلى لبنان جرجس عميره الذي صار بعد ذلك بطركًا على الطائفة. فهذا بعد وفاة الأب إليانو اهتمَّ مع بعض رفقته بطبع كتاب القدّاس المارونيّ في مطبعة المديشيس في رومية فطُبع سنة ١٥٩٤ طبعًا متقنًا بحرف سريانيّ جميل ونقوش وصور، إلاَّ أنَّهم لم يحسنوا انتخاب المخطوطات التي مثّلوها للطبع فنشروا نوافير بعض اليعاقبة ولم يصلحوا ما فيها من آثار هرطقتهم وإذ لم يكن في رومية مَن يُحْسن اللغة السريانيَّة لم تنقَّح هذه الشوائب. على أنَّ المجمع المقدَّس شعر بهذا الخلل ولم يسمح بنشر الكتاب إلاّ السنة ١٦٠٨ وفي آخره ترجمة مار مارون منقولة إلى السريانيَّة عن تاودوريطس بقلم ثلثة من تلاميذ الموارنة في رومية هم جرجس الكرمسدانيّ وميخائيل الأدنيتيّ وجبرائيل الصهيونيّ.

وفي الصفحة ٢٨٦ أنَّ الكتاب طُبع في رومية بإذن الرؤساء في السنة الرابعة لإقليميس الثامن في زمن الكردينال باليوتّي (الذي خلف الكردينال كرافّا في حماية الموارنة) وفي عهد البطريرك سرجيوس الرزّي.

وقد جاء نشر هذا الكتاب المغلوط أحسن مبرّر لما وُشي به الأب جوان باطيشتا إليانو حيث قيل عنه إنّه اتَّهم في رومية الطائفة المارونيَّة وأشاع عن كتبهم الطقسيَّة ما لا صحَّة له مع ما نعرفه من خلوص محبَّة الأب إليانو

للموارنة ودفاعه عنهم وتفانيه في خدمتهم. وعليه يسوءُنا ما رواه الدويهيّ في تاريخه عن البطريرك سركيس (ص ١٨٢-١٨٣) قال:

> وفي السنة ١٥٩٦ (١٠٠٥هـ) في الثامن عشر من أيلول أمر البطريرك (سركيس الرزّي) بالتئام رؤساء الكهنة ومشايخ الجبّة وعلماء الطائفة وبعد قراءة مكتوب البابا (إقليميس الثامن) برهن أمامهم وأمام قصّاد الكرسيّ الرسوليّ إنّ أخاهُ البطريرك ميخائيل والطائفة كلّها أبرياء من التُّهم التي اتَّهمهم بها باطلًا جوان باطيشتا. ولمَّا وقف الأب دنديني على إقرار علماء الطائفة وفحص الكتب التي كان وقف عليها ووسمها بخطِّه تحقَّق أنَّ كلّ ما اتُّهموا به هو محض تجنٍّ.

فالعجب كلّ العجب من البطريرك سركيس لاحتجاجه على الأب إليانو في ما قاله عن كتب الموارنة وهو كان أحد الشهود العيان في فحص هذه الكتب معه ولا نطلب ردًّا على قوله سوى هذا الكتاب المطبوع قبل تجنّيه بسنتين مع اسمه الكريم وبمساعي أبناء طائفته. ولو كان اطّلع عليه الأب دنديني لكان أمكنه أن يدافع عن شرف أخيه السفير الرسوليّ الأب إليانو الذي كان أعلم منه بالسريانيَّة والعبرانيَّة والعربيَّة.

وأعجب من ذلك كيف نسي البطريرك سركيس ما كتبه عن شقيقه وسلفه البطريرك ميخائيل الرزّي ناكرًا ما أقرَّ به عن كتب الموارنة التي أفسدها الهراطقة وهو القائل في المكتوب الذي نشرناه سابقًا (ص ٦٦) إلى رئيس الرهبانيَّة اليسوعيَّة حيث يثني كلّ الثناء على الأب إليانو ويطلب منه أن يرسله ثانيًا إلى لبنان وهناك يقول: «إنَّه (أي الأب إليانو) قرأ فرائض من كتبنا ووجد فيهم أشياء كثيرة غلط». وجاء مثل ذلك في تقرير الأب إليانو الذي قدَّمه للحبر الأعظم وفيه يذكر الكتب التي وقف عليها فوجدها ملوَّثة بالأضاليل على أنَّه لم ينسب ذلك إلى سوء نيَّة أو هرطقة صوريَّة بل إلى الجهل وبعض الظروف فقال (ص ٣٨-٣٩): «إنَّه بتمادي الزمان وبسبب اختلاطهم مع الأمم والطوائف المخالفة لدينهم قد تسرَّبت إلى كتبهم بعض الأضاليل ودخل في طقوسهم ورتبهم بعض الشوائب التي سبَّبها قلَّة المعلّمين الذين يُعْنَوْن بإرشادهم... وقد دوَّنَّا هذه النصوص المضادَّة للحقائق الكاثوليكيَّة». ونحن بيَّنَّا سابقًا أنَّه يوجد إلى اليوم في مكاتب أوربَّة مخطوطات مارونيَّة كالتي

وصفها الأب إليانو. وكفى بهذا تزكيةً لذلك الرجل العظيم الذي تشهد له كلّ آثاره الباقية إلى اليوم وتنبئ بغيرته في خدمة الطائفة المارونيّة ولو لم يكن له من الفضل إلاّ سعيه في إنشاء المدرسة المارونيّة في رومية لكان ذلك أكبر دلائل محبّته نحوها.

سفارة الأب إيرونيموس دنديني إلى لبنان (١٥٩٦-١٥٩٧)

كان مرّ على سفارة الأب يوحنّا إليانو الثانية إلى لبنان خمس عشرة سنة وعلى وفاته ستّ سنوات. وكان تعيَّن على محاماة الموارنة في رومية بعد الكردينال كرافّا سنة ١٥٨٩ الكردينال جبرائيل پاليوتّي ثمّ الكردينال ألدوبرَنْديني سنة ١٥٩٦. أمّا الحبر الأعظم فكان البابا إقليميس الثامن جلس على السدَّة البطرسيَّة في آخر كانون الثاني من السنة ١٥٩٢ فتولَّى تدبير الكنيسة ١٣ سنة. وكان البطريرك سركيس الرزّي لا يزال يرعى طائفته بكلّ عناية. قال الدويهيّ في تاريخ الطائفة المارونيَّة (ص ١٨٢):

> «وفي السنة ١٥٩٥ أقام البطريرك سركيس في عيد ميلاد الربّ يوسف بن موسى أخيه أسقفًا وأرسله سفيرًا إلى البابا إقليميس الثامن في بعض مصالح الطائفة ولتهنئته بعرش الخلافة. فأجلَّهُ البابا غاية الإجلال وعند عودته أرسل في صحبته قسّيسَين من الشركة اليسوعيَّة وهما إيرونيموس دنديني وفابيوس برونا».

> ولهذه السفارة شأن عظيم في تاريخ الطائفة المارونيَّة فلا بدَّ من تقديم بعض الملحوظات عليها:

كان رئيس هذه السفارة الأب إيرونيموس دَنديني. ولد في مدينة سيزانو من أعمال إيطالية سنة ١٥٥٤ من أُسرة شريفة ودخل الرهبانيَّة سنة ١٥٦٩ وهو أوَّل يسوعيّ علَّم الفلسفة في باريس ثمَّ عُهدت إليه عدَّة مهامّ من تعليم ورئاسات شتَّى تدلّ على ما كان له من الاعتبار لدى رؤسائه وعند أهل عصره.

فبينما كان يعلّم اللاهوت السنة ١٥٩٦ في مدينة پروزة إذ طلبه الحبر الأعظم إقليميس الثَّامن ليذهب إلى لبنان بصفة قاصد رسوليّ ليتحرَّى أمور

الموارنة ويستقصي أحوالهم الدينيّة فيوقف على صحّتها إمام الأحبار. وقد شرح ذلك هو عينه في أخبار رحلته قال (ص ٤ من طبعة باريس سنة ١٦٨٥) ما تعريبهُ:

«كانت بلغت مسامع الحبر الأعظم والكرادلة منذ مدّة طويلة بعض الوشايات بحقّ الموارنة. وكان قومٌ نسبوا إليهم عدّة أضاليل وبدع. وكان الموجودون منهم في رومية يسعون جهدهم في تزكية طائفتهم إلاّ أنّ الأمور لم تنجلِ فكان البعض ينفون ذلك والبعض يصدّقونه حتّى صعب الوقوف على الحقيقة. وإذ كان الكرسيّ الرسوليّ يصرف المبالغ العظيمة لتهذيب أحداث الطائفة في المدرسة المنشأة لهم، وقد أتى منهم إلى رومية آخرًا فرقةٌ عديدة وأكثرهم لا يستطيعون أن ينكبُّوا على الدروس لغضاضة سنّهم حتّى زادت المصاريف بورودهم، فسبّب ذلك بعض الاستياء في الحاشية البابويّة لا سيّما وقد بلغهم أنّ الذين كانوا أنهوا دروسهم ورجعوا إلى مواطنهم في العام المنصرم لم تُعْهَد إليهم وظائف يقومون بها مع كونهم أتقنوا الدروس الفلسفيّة واللاهوتيّة وبلادهم في غاية الحاجة إلى عملة نشيطين لتأييد الدين. وبناءً عليه عزم قداسة الحبر الأعظم على أن يرسل إلى بلاد الموارنة رجلًا ثقةً يبحث بحثًا مدقّقًا عن أحوالهم الدينيّة وأمورهم الأدبيّة فيوقف الكرسيّ الرسوليّ عند رجوعه عمّا لحظه وتبيّنه. ثمّ يسعى في سفارته بحسن اختيار الأولاد المرسلين إلى المدرسة المارونيّة من حيث بلوغهم السنّ المناسب وذكاء عقلهم، كما يجب عليه أن يهتمّ بأمر التلامذة الذين أنهوا دروسهم ليولُّوهم رعاية النفوس وتدبير كنائس طائفتهم».

هذا ما كتبه الأب دنديني في أسباب سفارته إلى لبنان كما دوّنه في أوّل تاريخ رحلته التي ستُذكَر خلاصتها. ومن قوله هذا يتّضح أنّ التُهم في صحّة إيمان الموارنة لم تصدر كما ظنّ البطريرك سركيس من الأب إليانو المتوفَّى قبل ستّ سنين بل من أناس أحياء كما يلوح من كلامه. ولعلّ هؤلاء كانوا من الشرقيّين الذين أتوا رومية من طوائف أخرى فاطّلعوا على كتب الموارنة التي أتى بها سابقًا الأب إليانو وكان الهراطقة دسُّوا فيها أضاليلهم فنشروا ذلك في رومية وعاكسهم الموارنة الذين فيها.

فلمّا تعيَّن الأب دنديني لهذه السفارة توجَّه إلى أمّ المدائن فامتثل بين يدي الحبر الأعظم ليقف على سائر نيّاته والتمس من فضله أن يمدّه بكلّ النِعَم

الروحيَّة تسهيلًا لأعماله كما التمس منه الرخصة لزيارة الأراضي المقدَّسة. فنال من فضل قداسته كلّ ما طلبه لخير الموارنة وتنمية العبادة بينهم وسمح له بمنح الغفرانات وتعليقها على المسابح والأيقونات وتماثيل حمل الله ورخّص له بحلّ الخطايا المحفوظة والمسامحة بالتأديبات الكنسيَّة. ثمَّ سلَّمهُ براءةً تاريخها ١٢ حزيران ١٥٩٦ إلى البطريرك سركيس يذكر فيها عناية الكرسيّ الرسوليّ بالطائفة المارونيَّة رغمًا عن بُعدها عنه، ثمّ يذكر أنَّ عنايته هذه هي التي دفعت الحبر الأعظم إلى تعيين الأب إيرونيموس دنديني الممتاز بتقاه وعلمه وغيرته ليزور الطائفة المارونيَّة ويعزّيها في مصائبها ويستعلم عن كلّ أحوالها فيوقف عند عودته قداسته على كلّ حاجاتها. ويختم بذكر ما يرسله معه من الهدايا كعربون انعطافه إليه وإلى أبنائه الموارنة[1].

ثمَّ اجتمع الأب دنديني برئيسه العامّ الأب كلوديوس أكوافيفا فعيَّن له كرفيق ومستشار الأب فابيوس برونو من أفاضل آباء الرهبانيَّة الذي تقلَّد بعد رجوعه رئاسة المدرسة المارونيَّة وسعى بترقيتها ودفع إبراهيم الحاقلاني إلى تأليف غراماطيقه السريانيّ اللاتينيّ. ولدينا المفكّرة التي أعطاها الرئيس العامّ المرسَلَين في ١٩ بابًا وهي مملوءَة حكمة وتقًى يوصيهما بها كيف يجب عليهما أن يتصرَّفا في بعثتهما بخصوص واجباتهما الروحيَّة والرهبانيَّة، ثمَّ في معاملاتهما مع رؤساء الطائفة المارونيَّة وشعبها وفي زيارة كنائسهم وأديرتهم ورعاياهم ليحقّقا آمال الكرسيّ الرسوليّ ويوثّقا روابط الإيمان والطاعة الواجبة نحوه. وإذ كان الأبوان يجهلان العربيَّة والسريانيَّة عيَّن لهما الرئيس العامّ بصفة ترجمانين اثنين من تلامذة المدرسة المارونيَّة اللذين كانا أنجزا فيها دروسهما القسّ موسى العنيسيّ الذي كان عاد إلى لبنان في السنة السابقة والشدياق يوسف إليان الحلبيّ الذي رافقهما في السفر. على أنَّ جهل المرسلَيْن للغات البلاد أضرَّهما كثيرًا إذ لم يستطيعا أن يتحقَّقا بنفسهما كثيرًا

(١) أطلب نصّ هذه البراءة في اللاتينيَّة في مجموع البراءات المارونيَّة للأب طوبيّا العنيسيّ T. Anaissi: *Bullarium Maronitarum*, p. 106. وفي تاريخ الكنيسة الإنطاكيّة بالعربيّة للخوري ميخائيل غبريل (ج ٢ ص ٣٨٦).

من الأمور التي وقف عليها الأب إليانو قبلهما. وكأنَّ قصر الوقت لم يسمح لهما بمطالعة كتابات ذلك الأب ورسائله التي وصف فيها لبنان وأهله وسائر أموره أحسن وصفٍ. وذلك أيضًا كان خللًا إذ حُرما عدَّة معلومات كانت أفادتهما في القيام بمهمَّتهما وفي الدفاع عن التُّهم التي أشاعها البعض بحقّ الأب المذكور زورًا.

أَبحر القاصد ورفيقه وترجمانه من مينا تقرب البندقيَّة بعد أن لبسوا ثياب زوَّار الأراضي المقدَّسة وذلك في ١٤ تمُّوز ١٥٩٦. وكان مركبهم مجهَّزًا بالمدافع لردّ غارات القرصان إلاَّ أنَّ سفرهم كان ميمونًا والريح في الغالب موافقةً. وقد وصف الأب دنديني في رحلته ما حدث لهم في طريقهم على جزائر اليونان وكندية وقبرس فيتَّسع في أخلاق السكَّان وعاداتهم وأديانهم وخواصّ بلادهم. وزار في قبرس الموارنة المستوطنين فيها. ثمَّ ركبوا سفينة أخرى نقلتهم إلى طرابلس فبلغوها في أواخر شهر آب ونزلوا ضيوفًا فيها على أحد تجّار البنادقة فاستراحوا قليلًا من أتعاب السفر ولا سيَّما الأب فابيوس الذي بقي مريضًا بضعة أيّام.

وقد خصَّ هنا الأب دنديني عدَّة فصول من كتابه لوصف أخلاق أهل طرابلس وعاداتهم المختلفة دينًا ودنيا ولا سيَّما الأتراك والمسلمين ليوقف مواطنيه على أمورهم في كلّ أطوار حياتهم.

الأب دنديني في لبنان

ثمَّ ينتقل الأب إلى ذكر صعوده إلى قنُّوبين مارًّا بقرية إهدن حيث قدَّم الذبيحة الإلهيَّة في معبدٍ على اسم القدّيس يعقوب «أشبه بقبر منه بكنيسة». ولمَّا قرب من قنُّوبين وجد عدَّة كهنة أتوا لاستقباله باسم السيِّد البطريرك سركيس الذي كان مريضًا يلزم الفراش. وكان وصوله في غرَّة أيلول إلى قنُّوبين فدخل على البطريرك فوجده جالسًا على فراشه وقدَّم له براءة الحبر الأعظم ورسائل الكردينال پاليوتّي محامي الطائفة ورئيس الرهبانيَّة اليسوعيَّة العامّ فقبَّل البراءة ووضعها على رأسه إجلالًا ثمَّ دار الحديث بين القاصد

والسيّد البطريرك مدّةً عن أحوال الحبر الأعظم والمدرسة المارونيّة وغير ذلك.

وفي الغد شرح الأب دنديني للسيّد البطريرك الغَرَض من سفارته وما يرغبه الحبر الرومانيّ من الخير للموارنة فطلب منه أن يجمع السادة الأساقفة ليتفاوضوا في أمور الطائفة ويتذاكروا في أحوالها الدينيّة والأدبيّة. وهنا أخذ البطريرك سركيس يتشكّى ويتجنّى ويتذمّر تارةً على الحبر الأعظم الذي لم يرسل له سوى براءة بسيطة بدلًا من منشور رسميّ كما لأسلافه، وتارةً على الذين شوّهوا على زعمه صيت الموارنة في رومية وخصوصًا على الأب إليانو مدّعيًا أنّه اتّهم الموارنة بتُهم باطلة وأنّه زوّر باسمهم بعض الكتابات (كذا) وأنّ المجمع الذي عُقد بحضرته وحضرة الأساقفة الممضى بتوقيعهم كانت أعماله مغشوشة وأشياء أخرى اندهش الأب دنديني لاستماعها ولم يكن مطّلعًا على حقيقتها فبقي محتارًا في الجواب عنها[١]. وإنّما حاول إخماد غضب البطريرك الذي كان المرض يزعجه ويثير طباعه حتّى تمكّن من تطييب قلبه وقدّم له ما أرسله له الحبر الرومانيّ من حُلَل أسقفيّة وآنية ثمينة للحفلات الدينيّة. أمّا المجمع الذي طلب الأب دنديني إقامته فرأى أنّ ما يجري في الشام وقتئذٍ من الحروب بين الأمير فخر الدين الكبير وآل سيفا وأمراء الأتراك يحول دون اجتماع الأساقفة إلاّ اثنين منهم ففضّل تأجيله إلى زمن آخر ريثما يشفى البطريرك وتهدأ الأمور.

وكان الأب فابيوس بقي في تلك الأثناء في طرابلس فلمّا عوفي لحق برفيقه وسار كلاهما يتجوّلان في أنحاء لبنان ليستطلعا أحواله ويراقبا شؤون أهله وكلّ ما يألفونه من العادات في عيشتهم الفرديّة والعائليّة والاجتماعيّة. فعيّن لهم البطريرك ليسير في خدمتهم أحد شمامسته المدعوّ يوسف خاطر فزاروا قرى لبنان وفحصوا أرزها وأراضيها ومزروعاتها وحيوانها وطيورها واجتمعوا بأهلها فوقفوا على عاداتهم وتفقّدوا أحوال رهبانها وراهباتها

(١) وقد رأيت في ما سبق بطلان كلّ هذه الشكايات التي لم نجد لها سندًا في كلّ ما لدينا من كتابات الأب إليانو.

وفحصوا أديرتهم وكنائسهم. وبحثوا عن أمور الإكليروس. وقد نشر الأب دنديني كلّ ذلك في رحلته التي تحتوي من المعلومات عن لبنان وعن الموارنة ما لم يسبقه إليه كاتب آخر، فجاء كتابه كمرآة تاريخ ذلك الزمان وصورة حيَّة تمثّل كلّ أطوار حياتهم منذ ولادتهم إلى وفاتهم، فيصف ملبوسهم رجالًا ونساءً ومأكولهم ومشروبهم وأفراحهم وأحزانهم وتعمُّقهم في الدين وقلَّة معارفهم. وهناك بيان لما يلحقهم من الدولة من الجور وضروب المظالم والإهانات. وفيه أيضًا ذكر عادات شتَّى بطلت بين الموارنة منذ زمن طويل منها تعمُّم رجالهم باللفَّة المنيَّرة وحَلْقهم لشعر رؤوسهم مع إرخاء لحاهم وتقلُّدهم السيوف وتنكُّبهم الأقواس (ص ٨٩) ومنها مناولة الشعب على الشكلين: الخبز والخمر (ص ١١٤ و١١٩) ومناولة الأطفال الصغار. ومنها مباشرة القدّاس وتهيئة الذبيحة قبل أن يلبس الكاهن الحلَّة الكهنوتيَّة كما يفعل كهنة السريان حاضرًا (ص ١١٠-١١١) وقد سبق أنَّ هذه الحلَّة كانت أيضًا في أيّام دنديني كحلَّة السريان أي الغفَّارة (ص ١١١). ومنها أنَّهم في الصوم يقدّمون الذبيحة عند العصر ويفطرون بعدها (ص ١١٦). وللأب دنديني فصلٌ عن رهبان وراهبات ذلك العهد في لبنان (ص ١١٤-١١٨) يفيدنا عن عيشتهم ومناسكهم وذلك قبل إنشاء الرهبانيَّات الحديثة بنيّف ومائة سنة يذكر فيه ما استحسنه من عاداتهم وما استنكف منها.

وممّا أفادنا هناك (ص ١٥٠) ذكر الأعياد التي كانت شائعة عند الموارنة. وأضاف إليها الكلندار السنويّ مع جدول الأعياد المفروضة بالاتّفاق مع المجمع وهي هذه: ختانة الربّ. الغطاس. دخول العذراء إلى الهيكل. مار متّيّا الرسول. عيد البشارة. مار يعقوب ومار فيلبُّوس الرسولان. مار يوحنّا المعمدان. مار بطرس ومار بولس. تجلّي الربّ. انتقال العذراء. مار برتلماوس الرسول. ميلاد العذراء. مار متّى. ارتفاع الصليب. مار ميخائيل. الرسولان مار سمعان ومار يهوذا. عيد جميع القدّيسين. مار أندراوس الرسول. مار توما الرسول. ميلاد الربّ. القدّيس إسطفانوس أوَّل الشهداء. ما عدا آحاد كلّ السنة واليومين التابعين لعيد الفصح وصعود الربّ. واليومين التابعين لعيد العنصرة. الثالوث الأقدس. عيد جسد الربّ وشفيع المكان.

فهذا الجدول أقدم كلندار نعرفه للكنيسة المارونيَّة وهو يسبق ٧٧ سنةً كلندارًا آخر نشرناه سابقًا عن بعض مخطوطات مكتبتنا الشرقيَّة في مجلَّة **المشرق** (٨ [١٩٠٥]: ٨٧١-٨٧٤). وما من شأنه أن يُذهل القرّاء أنَّ لا ذكر فيه لزعيمَي الكنيسة المارونيَّة القدّيس مارون الناسك ومار يوحنَّا مارون. وقال الأب دنديني إنَّ الكلندار المذكور وُزّعت نسخه على كلّ الكنائس وأمروا الكهنة أن يعلنوا يوم الأحد في القدّاس بالأعياد الواقعة في الأسبوع.

مجمع قنُّوبين في سنة ١٥٩٦

بعد أن قضى القاصد الرسوليّ ثلثة أسابيع في قنُّوبين والقرى المجاورة ودقَّق النظر في المناشير البابويَّة المرسلة إلى الموارنة من إينوكنت (زخيا) الثالث سنة ١٢١٥ وإسكندر الرابع سنة ١٢٥٦ ولاون العاشر سنة ١٥١٥ وغريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٧٧ ليتَّخذ مضامينها كموادّ يعرضها على المجمع المنويّ، رأى أنَّ صحَّة السيِّد البطريرك قد تحسَّنت نوعًا وأنَّ أمور البلاد قد هدأت بعض الهدوء فرغب إلى غبطته أن يستدعي الأساقفة إلى قنُّوبين، فوافقه البطريرك ولبَّى الأساقفة دعوة رئيسهم وانتظم عقد المجمع في ٢٨ من شهر أيلول على الحساب الغربيّ الموافق لليوم ١٨ منه[1] في الحساب الشرقيّ الذي كان يجري عليه وقتئذٍ الموارنة كبقيَّة أهل الشرق.

فافتتح الأب دنديني المجمع بتلاوة براءة الحبر الأعظم التي يفوّض إليه فيها أن يعقد مجمعًا مليًّا للوقوف على أحوال الطائفة ويسعى في كلّ ما يؤول إلى خيرها بواسطة الإكليروس وخصوصًا السادة الأساقفة.

ثمَّ تخطَّى الأب إلى عقائد الإيمان التي كان الحبر الرومانيّ يودّ أن يطَّلع على معتقد الموارنة فيها. فما كاد يعرض ذلك على المجمع حتَّى «طفق السيّد البطريرك يحتجّ بعبارة مطوَّلة احتجاجًا قويًّا على مجمع كان انعقد في السنين الماضية منكرًا انعقاده أو تثبيته منه أو من الأخ سالفه. ثمَّ حرم أغلاطًا جمَّة

---

(١) جاء في ذيل المجمع اللبنانيّ (ص ٩) المطبوع حديثًا «في ثاني أيلول» والصواب «في الثامن عشر أيلول».

عزاها بعض الناس إليه وإلى قومه ورمى بالحرم القائلين بها[٢]». مؤكّدًا أنّه لم يزل مرتبطًا بالكنيسة الرومانيّة وأنّه سيثبت دائمًا على إيمانها. ثمّ قام رئيس الشمامسة مدفوعًا بغيرةٍ عظيمة قائلًا: «نعم إنّنا نريد أن نتبعها ولا ننفصل عنها حيثما سارت ولو انحدرت إلى الجحيم» (كذا في رحلة الأب دنديني ص ١٣٥).

فيلوح من هذا الكلام تعلّق الموارنة بالكنيسة البطرسيّة وأنفتهم من كلّ الأضاليل الشائعة في المشرق. على أنّنا لا نفهم كيف أمكن البطريرك سركيس «أن يحتجّ على المجمع المنعقد سابقًا سنة ١٥٨٠ منكرًا انعقاده أو تثبيته منه أو من الأخ سالفه» وأعمال ذلك المجمع باقية إلى اليوم في ترجمتها اللاتينيّة التي نشرها المرحوم الأب أنطون ربّاط في كتابه «مآثر تاريخيّة للكنائس الشرقيّة» (ص ١٥٢-١٦٩) وليس هناك ما يمسّ البتّة شرف الطائفة المارونيّة وفي آخرها إمضاء السيّد البطريرك ميخائيل الرزّي وأخيه وخلفه سركيس. وإنّما فيها إعلان صريح بإيمان الموارنة وتشبّثهم بالكرسيّ الرسوليّ. أمّا أصله العربيّ فلم يُفقد تمامًا وقد نشرنا سابقًا (ص ٧٢-٧٣) خلاصته التي أرسلها البطريرك ميخائيل الرزّي إلى كنائس لبنان بصفة «وصايا يجب على الجميع قبولها وحفظها». ولا شكّ أنّ البطريرك سركيس نسب إلى الأب إليانو ما هو براء منه وكثيرًا ما دافع هذا الأب عن الموارنة وعن صدق إيمانهم وعزا ما وجد في كتبهم من الأضاليل إلى الجهل أو إلى خبث النسّاخ الهراطقة. وبه تسقط أيضًا احتجاجات البطريرك الدويهيّ على الأب إليانو الذي ثبت حبّه الخالص للموارنة ودفاعه عنهم بما سبق نشره[٣].

وليست أعمال مجمع قنّوبين هذا الثاني إلاّ صورة أخرى للمجمع السابق. وقد أحسن الطيّب الذكر المطران يوسف نجم بتعريب بنوده عن أصلها

(٢) في الذيل المذكور (ص ١٠).

(٣) إنّ للأب بطرس مرتينوس اليسوعيّ في تاريخ لبنان الذي لا يزال مخطوطًا[*] دفاعًا طويلًا عن الأب جوان باطشتا إليانو وردًّا عن التهم الغريبة التي أشاعها بعض الجهّال في حقّه وأثبتها الدويهيّ في تاريخه.

(*) طُبع هذا الكتاب لاحقًا.

اللاتينيّ في ذيل المجمع اللبنانيّ (ص ٩-١٧) وهذه البنود في عدد ١٣ بندًا صدَّقوا عليها في هذا المجمع باتّفاق الأصوات مصرِّحين باعتقادهم في السيّد المسيح أقنومًا واحدًا إلهيًّا في طبيعتين ومشيئتين وفعلَين وفي انبثاق الروح القدس من الآب والابن وفي معنى التقديسات الثلث الواردة في كتبهم (Trisagion) وفي وجود المطهر وعموم الخطيئة الأصليَّة ودخول الأنفس البارَّة إلى السماء قبل الدينونة مع بعض اعتقاداتهم في الأسرار المقدَّسة لا سيَّما التثبيت والقربان الأقدس.

وهناك أيضًا ٢١ قانونًا بخصوص الفرائض الدينيَّة والعيشة المسيحيَّة[٤] أقرَّها الآباء وألحُّوا في التماس تثبيتها بسلطان قداسة البابا فوعدهم بذلك القاصد الرسوليّ. ثمَّ انحلَّ المجمع في غرَّة تشرين الأوَّل وهو اليوم العشرون من أيلول على الحساب الشرقيّ.

وفاة البطريرك سركيس الرزّي وانتخاب خلفه

بعد ارفضاض المجمع أراد الأب دنديني أن يتجوَّل في بعض أنحاء لبنان ليعاين أديرة الرهبان فانطلق إلى حبس قزحيًّا ودير مار أنطونيوس المجاور له وكان الرئيس على قزحيًّا المطران يوسف ابن أخي البطريرك سركيس وكان معه شقيقه سركيس الذي كان تلقَّى العلوم في مدرسة الموارنة في رومية. أمَّا دير مار أنطونيوس فوجد فيه الأب دنديني ثلثة إخوة وكلّهم أساقفة. ثمَّ انتقل الأب دنديني إلى إهدن فتجمهر أهلها وأتوا لاستقباله وتحفَّوا به وأكرموه إكرامًا عظيمًا فوزَّع عليهم عددًا وافرًا من المسابح والصلبان والأيقونات فشكروه أيّ شكرٍ على تلك الهبات الثمينة.

ثمَّ صعد الأب من إهدن إلى دير مار سركيس الذي يبعد عنها ميلًا فسار أمامه نخبة من رجال إهدن يتغنَّون بالتسابيح كمألوف عادتهم عند زيارة السيّد

---

(٤) تجدها مطبوعة في ذيل المجمع اللبنانيّ (ص ١٣-١٣) وفي تاريخ الموارنة للدويهيّ مع صورة المجمع (ص ٢٨٧-٢٩١).

البطريرك. فدخل الدير بكلّ أبّهة ورونق وبعد الصلاة في الكنيسة عاد رئيس الدير الذي كان أسقفًا طاعنًا في السنّ ضريرًا. وما كاد يدور الحديث بينهما حتّى ورد ساعٍ من قنّوبين يعلم القاصد بأنّ السيّد البطريرك أُصيب بنوبةٍ قويّة وأنّه على وشك النزاع فقام الأب المذكور من ساعته وانفتل راجعًا بكلّ سرعة إلى قنّوبين لكنّه عند وصوله عرف أنّ البطريرك كان فارق الحياة قبل ساعتين وانتقل إلى رحمة ربّه وذلك في ٥ من تشرين الأوّل[١] الموافق لليوم ٢٥ من أيلول. فوجده الأبوان قد عُرض في الكنيسة بحلّته البطريركيّة جالسًا على عرشه في يده العكّاز وعلى رأسه التاج وحوله النائحات والنادبات بجلبة عظيمة. وفي الغد تقاطر الناس من كلّ صوب فدفن البطريرك بحفلة حافلة في معبد القدّيسة مارينا المجاور لدير قنّوبين.

وقد وجدنا للبطريرك المذكور في سجلّات رهبانيّتنا رسالة وجّهها سنة ١٥٩٢ إلى رئيس الرهبانيّة اليسوعيّة العامّ الأب كلوديوس أكوافيفا يوصيه بقسّيسين يرسلهما إلى بلاد الفرنج لجمع الحسنات لدير قنّوبين هذا نصُّه بحرفه الواحد:

الحقير بطرس بطريرك الموارنة

لحضرة الأخ الجنيرال

البركة الإلهيّة والسلام الروحانيّ الذي خصّ به سيّدنا تلاميذه لمّا دخل إليهم والأبواب مغلقة تلك البركات التي خصّهم بها وذلك السلام الذي أهداهم إيّاه ذلك يكون بعينه حالّ على الأخ العزيز صاحب الفهم والمعرفة والمشورة الصالحة الأخ البارّ والإناء المختار صاحب الفضل علينا وعلى أولادنا الذين في المدرسة هو وتلاميذه. وأيضًا نخصّ في البركة الإلهيّة الجوقة اليسوعيّة الروحانيّة تكون البركة حالّة عليهم وبين أيديهم وعلى رزقهم ومقتناهم آمين.

والذي نعرض على المسامع الكريمة أكرمها الله بأن واصل لعند محبّتك إخوتنا القسّ إبراهيم والقسّ يعقوب ولهم خاطر أنّهم يمشوا في البلاد صوب

(١) أمّا الدويهيّ فيزعم أنّ وفاتهُ كانت في ٧ منه.

المزارات ونحن مشرفتك (؟) إن أين ما راحوا يكونوا مكرّمين وإن كان يرسم فضلك حتّى يحوّشوا للدير شويّة نفقات لأنّه كثر علينا ظلم الترك والمَحْل قطع بلادنا وخلّى داخله وخارجه مثل البرّ. وهذا الكرسيّ يا أخي هو ملجأ الفرنج في الفضل وفي كلّ ضيقة يجيء عليهم بقوّة المسيح وعلى يدينا في الكرسيّ يسرّ كثير ما لهم عدد (كذا) إذا اطّلعوا عليه الملوك والتجّار بشيء نخرج عليه ما هو عيب. الله يكون معك يا أخي أنّك تمشي لنا درب مثل معرفتك ليكون لنا بها نجيّ على دربك ويبقى لك الأجر والحسنة عند الله: ومثل محبّتك ما يدلّ على صواب وعندك فهم يغني عن طول الشرح وبعد البركة والسلام عليك وعلى إخوتك العزيزين تلاميذنا كلّ واحد باسمه والشكر والخير لله ربّ العالمين آمين.

برز من دير قنُّوبين جبل لبنان المبارك بيد الحقير بطرك الموارنة طائع ومعتقد كرسيّ بطرس بابا رومية سنة ١٥٩٢ مسيحيّة ثامن يوم من شهر تشرين الآخر.

قال الدويهيّ في تاريخه: «وفي النهار التاسع خلفه في البطريركيّة يوسف ابن أخيه موسى الرزّي وله من العمر ٤٦ سنة وهو الثامن من البطاركة في دير قنُّوبين».

أمّا الأب دنديني فيقول إنّ انتخاب خلف البطريرك سركيس صار في ١٩ يومًا بعد وفاته وأنّ الأساقفة والأعيان رغبوا إليه أن يُعيّن خلفًا للسيّد سركيس فمَن شاءه اختاروه لكنّ القاصد الرسوليّ أبى أن يتداخل بالأمر ونزل إلى طرابلس ينتظر نتيجة الانتخاب فتمّ ذلك في ١٣ ت [١] بموجب الحساب الغربيّ الموافق للثالث منه في الحساب الشرقيّ. ووقع اختيار الإكليروس والشعب على المطران يوسف الرزّي رئيس حبس قزحيًّا وابن أخي البطريرك المتنيّح فخلفه على محبسة قزحيًّا أخوه سركيس تلميذ رومية السابق ذكره.

وما كاد البطريرك الجديد يتبوّأ سدّة أسلافه حتّى أرسل واستدعى من طرابلس الأب دنديني. فلمّا قدم أعرب عن سروره برؤيته وأكّد له أنّه مصمّم النيّة على السلوك بموجب كلّ رغائب الكرسيّ الرسوليّ فانتهز الأب تلك الفرصة ليعرض عليه عدّة أمور لم تتقرّر في المجمع الأخير فأجابه إليها لكنّه

أجَّل ذلك إلى زمن رجوعه من عند أمير البلاد ابن سيفا وهو ذاهب ليزوره كما كانت العادة جاريةً قبله.

فلمّا خرج البطريرك لمقابلة الأمير أراد الأب دنديني أن يغتنم تلك الفرصة ليزور القدس الشريف مع رفيقه ريثما يكون رجع البطريرك يوسف إلى قنُّوبين فسافر إلى طرابلس ليركب قاربًا يقوده إلى يافا، لكنَّه حدثت وقتئذٍ أمطار وأنواء شديدة منعته من السفر فعاد إلى قنُّوبين بعد رجوع البطريرك من زيارته لأمير البلاد وحضر جنَّازًا حافلًا أُقيم في ١٣ ت ٢ لراحة نفس البطريرك عمّه حضره عدد لا يحصى من الشعب.

فاجتمع الأب دنديني في أثناء ذلك بالبطريرك يوسف وفاوضه أوَّلًا في أمر تلامذة رومية العائدين منها بعد دروسهم كي يعطوهم المراتب التي هم أهلٌ لها فيخدموا الطائفة بعلومهم وآدابهم، فأجابه البطريرك إلى ذلك بأن أقام أسقفًا على أفقسيَّة (قبرس) موسى العنيسي من العاقورة وسقَّف يوحنّا الحوشبيّ وجعله معاونًا له في تدبير شؤون دير قنُّوبين[2]. وسقَّف أخاه سركيس مطرانًا على دمشق فخلفه على رئاسة دير قزحيًّا. وكلّ هؤلاء من تلامذة المدرسة المارونيَّة في رومية. وبإيعاز الأب دنديني سِيمَ جرجس عميرة كاهنًا ثمَّ أسقفًا «رغمًا من معاكسة بعض السالكين على غايات بشريَّة» (ص ١٧٢) سامهُ كاهنًا المطران موسى العنيسي ثمَّ رقَّاه البطريرك بمساعدة مطرانين آخرين إلى رتبة الأسقفيَّة وعهد إليه بتأليف كتب لإرشاد الكهنة وهو الذي كان طبع سابقًا غراماطيقًا سريانيًّا لاتينيًّا وعُني بطبع كتاب القدَّاس في مطبعة المديشيس.

ولمَّا رأى الأب دنديني حسن استعداد البطريرك الجديد لإصلاح الأمور المخلَّة وتحوير العادات الباطلة استلفت نظره إلى بعض ما يحسن به استدراكه بعد إثبات المجمع المقدَّم ذكره، فالبطريرك يوسف «لم يكتفِ بأن أثبت ذلك

(٢) في تاريخ الدويهيّ (ص ١٨٥) أنَّ تسقيفه كان سنة ١٦٠٣ وفيها أرسله سفيرًا إلى البابا بولس الخامس. أمّا المستفاد من أقوال الأب دنديني أنّ تسقيفه كان بحضوره وكذلك يؤخذ من رواية دنديني أنّ سيامة سركيس الرزّي وجرجس عميره كانت سنة ١٥٩٦ لا السنة ١٦٠٠.

المجمع وسلّم بكلّ ما فيه بابًا بابًا وأمر بأن يرعاه الجميع بكلّ اجتهاد، بل جمع إليه كلّ الأساقفة بحضرة سفير الكرسيّ الرسوليّ إيرونيموس دنديني وزاد عليه القوانين الآتية» وهي ستّة تجدها مفصّلةً في ذيل المجمع اللبنانيّ (ص ١٧-١٩) وكان تاريخ هذه المزيدات في ٣ تشرين الثاني[٣] سنة ١٥٩٦.

وقد نشر المرحوم رشيد الشرتوني في **المشرق** (٧ [١٩٠٤]: ٦٨٩-٦٩٣) قوانين مجمع ضيعة موسى كإيضاح وتتمّة لمجمَعي قنّوبين في السنتين ١٥٨٠ و١٥٩٦.

ولمّا رأى الأب دنديني أنّ سفارته لدى الموارنة قد تمّت على مقتضى رغائبه استعدّ لوداع البطريرك والسادة الأساقفة وأراد قبل فراقهم أن يسلّم السيّد البطريرك مفكّرةً في بعض الأمور لئلّا تبرح عن باله.

فممّا ورد هناك أن لا يرسلوا أولادًا إلى المدرسة المارونيّة قبل بلوغهم السنة الرابعة عشرة من عمرهم ومعرفتهم القراءة والكتابة وأن يُعطوا عند رجوعهم من رومية رتبًا موافقة لمعارفهم. ومن وصاته للبطريرك أن يعيّن أسقفًا لقبرس يقيم فيها وكذلك في العاقورة. ومنها أن يرسل إلى رومية مَن يقدّم الطاعة باسمه للكرسيّ الرسوليّ (وقد تمّ ذلك سنة ١٥٩٨ كما روى الدويهيّ ص ١٨٣ إذ أرسل الخوري جرجس بن يونان من قرية إيليج مع الشدياق يوسف اليان الحلبيّ تلميذ رومية) وفي وصاته أيضًا أشياء كثيرة في إصلاح الرهبان كفصل بيوتهم عن أديرة الراهبات وتقييدهم بالعيشة العموميّة وفَرْض سنة ابتداء على طالبي الترهُّب يبرزون بعدها النذور الرهبانيّة الثلثة مع عدم السماح للإخوة بامتلاك شيء من المال. وهناك وصايا أخرى للإكليريكيّين والكهنة لا سيّما لإرشاد الشعب والوعظ أيّام الآحاد والأعياد.

وليس في بقيّة رحلة الأب دنديني ما يهمُّنا فإنّه زار مع رفيقه الأب برونو الأراضي المقدّسة ثمّ رجع إلى طرابلس وبقيا فيها إلى أن أمكنهما أن يبحرا إلى إيطالية في أوائل كانون الثاني سنة ١٥٩٧ بعد مرورهما بالإسكندريّة ثمّ بقبرس ومنها إلى البندقيّة فلم يبلغاها إلاّ بعد أتعاب وأخطار كثيرة في أواسط

(٣) لا «تشرين الأوّل» كما ورد سهوًا في ذيل المجمع اللبنانيّ (ص ١٩).

شهر حزيران. ثمَّ رحلا إلى رومية فدخلا المدينة المقدَّسة في ١٧ تمُّوز. وإذ كان الحبر الأعظم عليلًا لم يمكن الأب دنديني أن يعرض عليه أخبار سفارته إلاَّ في شهر تشرين الأوَّل، فسُرَّ قداسته بنجاح السفارة ووعد بأنَّه يداوم اهتمامه بالأمَّة المارونيَّة مثنيًا على إكليروسها وشعبها، وإشعارًا بمحبَّته نحوها عيَّن لحمايتها ابن أخيه الكردينال ألْدُوبرنديني خلفًا للكردينال پاليوتّي.

ثمَّ نشر الأب دنديني رحلته بعد سنةٍ باللغة الإيطاليَّة في رومية فنقلها إلى الإفرنسيَّة العلَّامة المستشرق ريشرد سيمون سنة ١٦٧٥ وعلَّق عليها عدَّة ملحوظات في مئتي صفحة تدلُّ على سعة علمه بأحوال الشرق وحسن نظره وجودة فكرته.

علائق الموارنة واليسوعيّين في أوائل القرن السابع عشر

كانت سفارة الأب دنديني خاتمة الصِلات الرسميَّة بين الطائفة المارونيَّة والرهبانيَّة اليسوعيَّة في آخر القرن السادس عشر. إلاَّ أنَّ الصِلات الودِّيَّة زادت توثُّقًا بينهما بواسطة المدرسة المارونيَّة في رومية.

فإنَّ تلك المدرسة بعد إنشائها بعشر سنين أخذت تؤدّي للموارنة خدمًا مشكورة. وقد سبق ذكر تسقيف ثلثة من تلامذتها أعني موسى العنيسي من العاقورة على قبرس وجرجس عميرة على إهدن ويوحنَّا الحوشبيّ على دير قنُّوبين. وكان موسى أقدمهم بين تلامذة رومية تولّى تدبير كرسيّ الأفقوسيَّة إلى وفاته سنة ١٦١٤. أمَّا يوحنَّا فهو ابن حاتم بن شمعون بن فهد الحوشبيّ الحصرونيّ، فإنَّه بعد دروسه في رومية كان دخل في الرهبانيَّة الدومنيكانيَّة وهو أحد الفاحصَيْن للغراماطيق السريانيّ اللاتينيّ الذي ألَّفه جرجس عميرة سنة ١٥٩٦ وقد أمضى اسمه باللاتينيَّة على هذه الصورة Ego Fr. Joannes Baptista Leopardus (ابن فهد) Maronita e Libano Ord. Prædicatorum ثمَّ سقَّفهُ البطريرك يوسف الرزّي سنة ١٦٠٣ وأوفده إلى الكرسيّ الرسوليّ لبعض شؤون الطائفة وكانت وفاته سنة ١٦٣٢ في رومية. وأمَّا جرجس عميرة فهو الذي بعد أسقفيَّته على إهدن أُقيم بطريركًا على طائفته فدبَّرها عشر سنوات

وتوفّي سنة ١٦٤٤، وفي أيّامه كان الحبيس الفرنسويّ فرنسوا دي شسْطويل(*) الذي نُشرت ترجمته في المشرق (٢٠ [١٩٢٢]: ٥٧٠ و٦٤٩.

وممَّن شرَّف طائفته المارونيَّة والرهبانيَّة اليسوعيَّة المكرَّم إبراهيم بن جرجس البشرَّاني المولود في حلب سنة ١٥٦٣ وكان والده من بشرّي وهو من جملة التلامذة الموارنة الأوَّلين الذين أُرسلوا من حلب إلى المدرسة المارونيَّة في رومية فما لبث أن طلب الدخول في الرهبانيَّة اليسوعيَّة في ٢٨ ك ١ سنة ١٥٨٢ فكان أحد رفقاء القدّيس لويس غنزاغا في درس اللاهوت. وبعد كهنوته أُرسِل إلى الهند لمعرفته اللغة السريانيَّة فبشّر هناك في الملبار نصارى السريان المعروفين بنصارى مار توما. ثمَّ رأى الرؤساء ما صارت إليه رسالة اليسوعيّين في الحبشة من الضيق باستشهاد بعض أبنائها فأوعزوا إلى الأب إبراهيم بأن يذهب لمساعدة المرسلين هناك. إلاَّ أنَّ حاكم مصوَّع المسلم أوقفه عند نزوله من السفينة إلى البرّ وعرف أنَّه من المرسلين الكاثوليك فعرض عليه الإسلام فأبى متكرّهًا فأمر بسجنه وتعذيبه ثمَّ بقطع رأسه فمات شهيد إيمانه والأمل معقود بتثبيته طوبويًّا عمَّا قريب (اطلب تفاصيل استشهاده في كتاب المرحوم الأب ربَّاط (RABBATH: *Documents* I, 315-320) وفي تاريخ الحبشة لعَمَّنويل أَلْميدا (*Hist. d'Ethiopie*, par le P. Em. ALMEIDA p. 174-179).

وقد مرَّ لنا ذكر نيقولا جرجي ويوسف جرجي ورجَّحنا كونهما أخوين للأب إبراهيم الشهيد وذكرنا دخولهما في الرهبانيَّة اليسوعيَّة. وفي عهدهما كان مارونيَّان أصلهما من قبرس يُدعى الواحد لويس مبارك (Luigi Benedetto di Nicosia in Cypro) والآخر كورنيليوس (Cornelio Sozomeno) اسمهما مدوَّن بين المبتدئين في الرهبنة اليسوعيَّة في ٢٦ ك ١ وفي ٤ تشرين الأوَّل من السنة ١٥٧٩ في رومية ولم نعرف من أمرهما شيئًا.

وقد انضمَّ إلى الرهبنة ذاتها تلميذان آخران من أوَّل تلامذة الموارنة في مدرسة طائفتهما وكلاهما من قبرس وهما المطوشيَّان مرقس بن إسطفان وبطرس بن جبرائيل. فمرقس بن إسطفان المطوشيّ مات شابًّا بعد أن أبرز

(*) de Chasteuil

نذوره الرهبانيّة[١]. أمّا بطرس فإنّه كان ولد سنة ١٥٦٩ ودخل المدرسة المارونيّة سنة ١٥٨٢ ثمّ طلب بعد دروسه الانضواء إلى أبناء القدّيس إغناطيوس فأجاب الرؤساء إلى طلبه في ١٧ ك ٢ سنة ١٥٩٧ وبعد كهنوته انكبّ على التأليف والتعليم وخدمة الكرسيّ الرسوليّ وكانت وفاته سنة ١٦٢٥. وفيها دخل الرهبانيّة في رومية في ١٨ آب ١٦٢٥ شابّ آخر مارونيّ من تلامذة المدرسة المارونيّة يُدعى يعقوب جبران اللبنانيّ.

ومن تلامذة المدرسة المارونيّة الأوّلين الذين عُرفوا بهمّتهم يوسف إليّا الحلبيّ، وهو الذي اشتهر بعد ذلك باسم يوسف إليان أو إلياني وقد دُعِي أيضًا باسم يوسف كاثري، أنهى دروسه سنة ١٥٩٥ فعاد إلى وطنه مع موسى العنيسي وقد سلّمهما الحبر الأعظم إقليميس الثامن درع الرياسة للبطريرك سركيس الرزّي. وفي براءته المؤذنة بذلك يثني قداسته عليهما. ثمّ عاد يوسف إليان إلى رومية بإيعاز البطريرك يوسف الرزّي لتقدمة الطاعة باسمه والتماس درع الرئاسة سنة ١٥٩٩. وكان الأب دنديني في رحلته إلى لبنان اتّخذ يوسف إليان كترجمانه. ولم نقف على سنة وفاته.

وممّن اشتهروا بين تلامذة رومية الأوّلين سركيس الرزّي ابن موسى الرزّي أخي البطريرك سركيس، فالبطريرك سركيس عمّه والبطريرك يوسف الرزّي شقيقه. بعد دروسه في رومية عاد إلى لبنان وترهّب في محبسة قزحيّا ثمّ سقّفه أخوه على دمشق وجعله نائبه. فلمّا جاء الأب دنديني إلى لبنان سنة ١٥٩٦ وجده أسقفًا في قزحيّا وفي السنة ١٦٠٧ أوفده أخوه البطريرك مع القسّ إلياس إبن الحاجّ يوحنّا والقسّ جرجس بن مارون من إهدن إلى بولس الخامس لتهنئته بارتقائه إلى رئاسة الكنيسة. وفي تلك الأثناء توفّي البطريرك يوسف وأُقيم له خلفًا البطريرك يوحنّا بن مخلوف. فلمّا عاد الوفد المارونيّ إلى لبنان بقي المطران سركيس في رومية لمراقبة المطبوعات الشرقيّة فيها وبقي في رومية إلى سنة ١٦٢٢ فرجع إلى وطنه لزمن قصير ثمّ عاد إلى رومية وفيها توفّي سنة ١٦٣٨.

---

(١) أطلب تاريخ الأب سكّيني Sacchini, *Hist. Soc. Jesu* I, V, 34.

وقد اشتهر أيضًا بين تلامذة المدرسة المارونيّة الأوّلين الصهيونيّان أنطونيوس وجبرائيل. فأنطونيوس هو ابن أوفيمياني الصهيونيّ تلقّى العلوم في مدرسة الموارنة في رومية ثمّ سلك على الطريقة الرهبانيّة في إهدن ورُقّي إلى درجة الكهنوت وصار برديوطًا. وأشهر منه جبرائيل الصهيونيّ الأهدنيّ من عائلة كرم الذي ولد في لبنان سنة ١٥٧٧ ثمّ أُرسل إلى رومية وعمره سبع سنوات فقط وبعد نهاية دروسه فاز بشهادة الملفنة وكُهّن سنة ١٦٢٠ وقد اشتهر بالتعليم والتأليف في البندقيّة وباريس وكترجمان للأمراء إلى سنة وفاته ١٦٤٨.

ومثله شهرةً إبراهيم الحاقلانيّ كان أيضًا من تلامذة المدرسة المارونيّة الأوّلين ثمّ نال له اسمًا طيّبًا بمآثره المتعدّدة كمعلّم ومراقب المطبوعات وكترجمان وكمؤلّف ونقل كتبًا عديدة إلى اللغات الأوروبيّة. كانت وفاته سنة ١٦٦٤ وهو طاعن بالسنّ.

ولا يسعنا أن نضرب الصفح عن تلميذ آخر لمدرسة الموارنة في رومية من أقدمهم وهو كسبر الغريب القبرسيّ، فهذا بعد دروسه عاد إلى وطنه واشتهر في قبرس بعلمه وقداسته وغيرته على الدين بين جميع طوائف الجزيرة. ولمّا جلس يوحنّا مخلوف على السدّة البطريركيّة سنة ١٦٠٨ بعد يوسف الرزّي اختاره ليذهب إلى رومية ويطلب له التثبيت من بولس الخامس فسلّمه البابا درع الرئاسة وفوّض إليه أن يوشّح به السيّد البطريرك ويتلقّى منه اليمين. ولم نعلم في أيّ سنة توفّي.

ومن هؤلاء بواكير المدرسة المارونيّة في رومية ميخائيل عبيد الأهدنيّ ابن أخت المطران يوحنّا، لمّا عاد إلى الشرق سكن في دير مُرت مورا سنة ١٦٠٠ ثمّ أُقيم مطرانًا سنة ١٦٠٢ وأراد أن يمكث في دير مار سركيس عند خاله فلم ترضَ بذلك العائلة الدويهيّة. قال المطران شبلي في ترجمة الدويهيّ (ص ٨): «فحرق صكّ الدير الذي كان عند خاله فنزلوا إلى طرابلس إلى المفتي ابن جاموس وكتبوا صكًّا آخر عن رزنامة المدينة».

وكانت المدرسة المارونيّة في رومية قد قلّ عدد تلامذتها في أوائل القرن السابع عشر فكتب الرؤساء إلى البطريرك يوسف الرزّي في ذلك فلمّا كانت السنة ١٦٠٣ ذهب المطران يوحنّا الحوشبيّ إلى رومية وأخذ معه شبّان. ولنا بعض التفاصيل عن رحلتهم في مقدّمة الكتاب الكرشونيّ الذي وضعه ميخائيل الحصرونيّ في الحساب الغريغوريّ سنة ١٦٣٧، قال ما نصُّه:

«لمّا كانت سنة ١٦٠٣ مسيحيَّة التي تقابل السنة ١٠١٤ هجريَّة بعث البطريرك يوسف من بيت الرزّ من جبل لبنان المطران يوحنّا الراهب الدومنيكانيّ الملقَّب الحوشبيّ ابن شدياق حاتم ابن الشدياق شمعون من قرية حصرون إلى عند أبي الآباء ورئيس الرؤساء بابا رومية المتكنّى إقليموس الثامن لأجل مصالح طائفتنا. فأخذ معه أربعة شمامسة ليتعلّموا في مدرستنا اثنين من شدرا واسمهما الشمّاس إسحاق وأخوه سركيس واثنين من قرية حصرون الشمّاس يوحنّا ابن الشدياق قرياقوس وانا لله عبد(*) الشمَّاس ميخائيل بن سعاده بن أنطونيوس ابن الشدياق شمعون ابن الشيخ فهيد ابن عمّ المطران المذكور الذي اجتهد وتعب في الوعظ وتعليم الكهنة والطائفة عشرين سنة واتنيَّح في رومية في جبل كنيسة صلبوت ماري بطرس كما وصّى وشاء. ولمّا وصلنا جميعنا بالسلامة إلى مدينة المدائن رومية كلّ واحد منّا تعلّم على ما سهَّل له الله تعالى...».

وفي السنة ١٦٠٨ لمّا أرسل البطريرك يوحنّا مخلوف القسّ كسبر ليطلب له التثبيت أرسل معه إلى رومية القسّ جرجس بن مارون وبصحبته ١٣ شابًّا فأكرم البابا مثواهم وأظهر لهم كلّ تعطُّف. ذكر الدويهيّ ذلك في تاريخه (ص ٤٥٣).

ثمَّ عاد البطريرك يوحنّا سنة ١٦٢٤ وأرسل إلى رومية اثني عشر ولدًا ليتلقّوا فيها الدروس وكان يرافقهم الخوري يوحنّا بن قرياقوس الحصرونيّ الموفد من السيّد البطريرك ليهنّئ البابا أوربانوس الثامن المُقام حديثًا حبرًا أعظم وبمعيَّته الأب عبد الأحد مغري (P. Dominique Magri) اليسوعيّ.

خِدَم تلامذة رومية الأوَّلين لطائفتهم وللكرسيّ الرسوليّ وللعلم

إنَّ تلامذة رومية أصبحوا بعد نهاية دروسهم سندًا يُعتمد إليه في تهذيب

(*) كذا في نصّ شيخو.

أبناء ملَّتهم وقد رأيتَ أنَّ عددًا منهم ترقَّوا إلى الرتبة الأسقفيَّة فكانوا رعاةً صالحين يتولَّون سياسة رعاياهم الروحيَّة بالوعظ وتوزيع الأسرار وإصلاح ما يرونه من الخَلَل في الطقوس والعادات.

ولأنَّ المدارس كانت وقتئذٍ قليلة جدًّا سعى بعضهم بتعليم الأحداث. ولمّا علم البابا أوربانوس الثامن حاجة لبنان إلى مدارس لتهذيب الشبيبة أراد أن تُفتح لهم مدرسة في الجبل أخذ على الكرسيّ الرسوليّ تجهيزها وكلفة نفقاتها وانتدب تلامذة رومية للتعليم فيها عند رجوعهم إلى لبنان سنتين أو ثلاث سنين. وهذه هي مدرسة دير سيّدة حوقا التي أنشأها الحبر الأعظم بقوَّة براءة حرَّرها في ٢٤ تمُّوز سنة ١٦٢٥ تجدها بنصّها الشائق في مجموع البولّات المارونيَّة الذي نشره طوبيّا العنيسيّ (*Bullarium Maronitarum*, p. 132-134) وشفعها قداسته بعد أسبوع فقط بقانون مفصَّل ذي ٢٢ بندًا لترتيب تلك المدرسة وحسن نظامها، وهذا الفصل الجليل قد نُشر في ذيل الطبعة الجديدة من المجمع اللبنانيّ ويفتتحها إمام الأحبار بقوله «قد كنّا من أمدٍ قريب قد أنشأنا وأسَّسنا مدرسةً في جبل لبنان بسلطاننا الرسوليّ...». ومن قوله هذا يلوح أنَّ الفضل الأعظم في إنشاء تلك المدرسة إنَّما كان لرئيس الكنيسة على خلاف ما ورد في التواريخ الشائعة التي تنسبها خصوصًا إلى البطريرك يوحنّا مخلوف.

على أنَّنا لا نعلم شيئًا من أخبار المدرسة المذكورة ونجاحها ولا عن بقيَّة المدارس التي عُني بتدبيرها تلامذة رومية في لبنان ولعلّ أحوال الجبل في القرن السابع عشر وما حدث فيه من الاضطرابات وجور الحكّام لم تسمح بإتقانها واجتناء أثمارها إلى أن احتلَّ بعد مدَّة المرسلون في لبنان فصرفوا المجهود في تثقيف الشبيبة.

وكان البطريرك جرجس عميرة في أيّام أسقفيَّته على إهدن كتب إلى رئيس الرهبانيَّة اليسوعيَّة العامّ الأب كلوديوس أكوافيفا يطلب إليه بأن يسعى في فتح رسالة لرهبانه في لبنان لحاجة البلاد إليهم. ومكتوبه هذا في سجلّات الرهبانيَّة اليسوعيَّة في رومية تاريخه ٢٥ كانون الأوَّل سنة ١٥٩٦ يفتتحه بالثناء

على زوّار الكرسيّ الرسوليّ الأبوين يوحنّا باطيشتا إليانو ودنديني لِما خلّفا من آثار الحكمة والبنيان الصالح في سفارتهما. ثمّ يفيض الكلام في فقر أبرشيّته وكنائسها ويلتمس من الرئيس العامّ المساعدات ليُحسن القيام بواجبات أسقفيّته وخلاص الأنفس ويختم رسالته بقوله: «إنّي أستمدُّ من أبويّتكم نعمةً أخرى كنت ذكرتها سابقًا لحضرتكم وهي أن ترسلوا أربعةً أو خمسة من آباء رهبانيّتكم فيسكنوا عندنا حيثما شاؤوا في لبنان. ولا شكّ أنّهم سيعملون هنا خيرًا عظيمًا بعد ما رأينا أعمالهم في الزمن القليل الذي صرفوه بيننا».

وقد أدّى تلامذة رومية الأوّلون خدمًا أخرى لوطنهم ولأرباب العلم بما سعوا في نشره من التآليف الدينيّة والعلميّة. وكان أوّل ما أبرزوا من ذلك كتب طائفتهم الطقسيّة، وقد مرّ لنا ذكر النوافير التي طبعوها في المطبعة المديشيّة سنة ١٥٩٤ وفي آخرها أسماء بعض تلامذة رومية الذين عُنوا بنشرها وهم جرجس الكرمينيّ (Carmeniensis) وميخائيل الأدنيتيّ وجبرائيل الصهيونيّ. ولعلّ جرجس الكرمينيّ هو جرجس الكرمسدّانيّ أو هو جرجس عميرة الذي تولّى مدّةً في رومية نظارة مطبوعات ملّته الطقسيّة قبل رجوعه إلى وطنه. وفي السنة ١٥٩٦ طبعوا هناك خدمة القدّاس بالسريانيّ والكرشونيّ وكتاب الشحيم أي الفرض المارونيّ. ومن مطبوعات تلامذة رومية الدينيّة المزامير بالسريانيّ والكرشونيّ الذي طُبع في قزحيّا سنة ١٦١٠ وقد وصفناه لعظم شأنه وصفًا مطوّلًا في المشرق (٣ [١٩٠٠]: ٢٥٤-٢٥٦) والظاهر أنّ الذي تولّى طبعه هو سركيس الرزّي مطران دمشق الذي رُسم على صفحته الأولى شعاره مع اسمه. وقد اطّلع على هذا الكتاب جرجس عميرة إذ كان مطرانًا على إهدن.

والمطران سركيس المذكور دُعي بعد ذلك إلى رومية ليهتمّ بالمطبوعات الشرقيّة وإليه عهد سنة ١٦٢٥ البابا أوربانوس الثامن إعداد ترجمة منقّحة للأسفار المقدّسة ففعل وإنّما تأخّر طبعها في ثلثة أجزاء بالعربيّة واللاتينيّة إلى السنة ١٦٧١.

ومن مطبوعاتهم الدينيّة كتاب التعليم المسيحيّ للكردينال بلّرمين اليسوعيّ عرّبه يوحنّا الحصرونيّ وطبعه سنة ١٦١٣ في رومية في مطبعة سافاري دي

براڤ (Savary de Brèves) ثمّ جدَّد طبعه في مطبعة انتشار الإيمان سنة ١٦٢٧. وفي السنة ١٦١٤ طُبعت هناك المزامير بالعربيّة واللاتينيّة بعناية تلميذَي مدرسة الموارنة جبرائيل الصهيونيّ ومنصور شَلَق العاقوريّ.

أمّا الكتب العلميّة التي يعود الفضل بتأليفها ونشرها إلى تلامذة رومية فهي أوّلًا الغراماطيق السريانيّ اللاتينيّ الذي ألّفه جرجس عميرة سنة ١٥٩٦ بعد نهاية دروسه وهو في سبعة أجزاء صفحاته ٤٨٠.

وفي السنة ١٦١٦ نشر في باريس «القسّ جبرائيل الصهيونيّ الهدناني والشمّاس يوحنّا الحصرونيّ المارونيّان كتاب صناعة النحويّة (كذا) يشتمل على خمسة أجزاء». وفي السنة ١٦١٩ نقلا إلى اللاتينيّة كتاب **نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والآفاق** للشريف الأدريسيّ ونشراه في باريس تحت اسم **الجغرافيا النوبيّة** وهذا الكتاب كان طُبع سابقًا باختصار في رومية بالعربيّة سنة ١٥٩٢.

وفي السنة ١٦٢٢ طَبع منصور شَلَق في رومية **مبادئ اللغة العربيّة**. ثمّ طبع الأب بطرس المطوشيّ اليسوعيّ المارونيّ **نحو اللغة العربيّة** سنة ١٦٢٤. وفي السنة ١٦٢٧ عاد منصور شلق فطبع مدخلًا للغة العربيّة. وفي السنة ١٦٢٨ نشر إبراهيم الحاقلانيّ **خلاصة اللغة العربيّة** وغراماطيق اللغة السريانيّة باللاتينيّة وعارضه الشدراويّ سنة ١٦٣٥ فطبع غراماطيقًا آخر للّغة السريانيّة. وكلُّهم من تلامذة مدرسة الموارنة في رومية. وكان العلماء يُقبلون على مطالعة تآليفهم بكلّ شوق.

ومن الخدم التي استحقّ عليها تلامذة رومية الأوّلون شكر الكرسيّ الرسوليّ سعيهم في إدخال الحساب الغريغوريّ المعروف بالغربيّ في طائفتهم والدفاع عنه. وقد تمّ ذلك سنة ١٦٠٦ في عيد القدّيسين بطرس وبولس الذي احتفل به الموارنة عشرة أيّام قبل بقيّة الطوائف الشرقيّة في سواحل الشام ولبنان. ثمّ جرت عليه الطائفة في مدن الداخليّة كالشام وحلب إلاّ جزيرة قبرس التي تأخّرت عن ذلك بضع سنوات. وكان بين الذين اشتهروا في

المناداة بهذا الحساب المطران يوحنّا الحوشبيّ الدومنيكانيّ وكاد يذهب ضحيَّة غيرته في هذا الجهاد إذ كان في حلب. فرفع المنفصلون عن الكنيسة أمره إلى واليها طالبين منه أن يحكم عليه بالإعدام لتقرُّبه من الفرنج. فلمَّا دُعي إلى المحكمة أثبت أمام الحاكم صحَّة هذا الحساب وغلط الحساب الشرقيّ فأفحم خصومه وخرج من الحكمة ظافرًا.

ولمَّا كانت السنة ١٦٣٥ أُقيم المطران جرجس عميرة بطريركًا على الطائفة خلفًا ليوحنًّا مخلوف فأرسل الخوري ميخائيل سعادة الحصرونيّ إلى رومية لتأدية فروض الطاعة والتماس درع الرئاسة. وإذ طالت الأمور هناك رأى الخوري ميخائيل فرصة مناسبة لتهذيب كتابٍ أوعز إليه مجمع الكرادلة بتأليفه في قاعدة الحساب الغربيّ الجديد واختلافها عن الحساب القديم وبيان صحَّة تلك وغلط هذه. فقام بهذا العمل وشرح أصوله وفصوله، ولمَّا أنجزه أمر المجمع المقدَّس بطبعه فطُبع بالحرف الكرشونيّ سنة ١٦٣٧ على نفقة المجمع المذكور وقد ألحقه بجدول للأعياد المنتقلة من السنة ١٦٣٧ إلى السنة ١٨٥٦ في ٦٨ صفحة، فكان لتأليفه هذا فائدة عظيمة سهَّلت إدخال هذا الحساب بعد مدَّة في طوائف أخرى.

وقد أدَّى تلامذة رومية الأوَّلون خدمةً غيرها للكرسيّ الرسوليّ، فإنَّه انتدب أفرادًا منهم لقضاء بعض حاجات الكنيسة، فمنهم الأب بطرس المطوشيّ القبرسيّ اليسوعيّ المارّ ذكره فإنَّ البابا بولس الخامس وكَلَ إليه وإلى الأب حنّا أنطون ماريتّي (G. A. Marietti) اليسوعيّ بأن يرافقا الأنبا آدم سفير بطريرك الكلدان إيليّا السادس إلى آمد ويوثّقا هناك العلائق بين الكلدان والكرسيّ الرسوليّ. وفي مجموع البولّات المارونيَّة (ص ١٢٦–١٢٧) رسالةٌ للحبر الأعظم في تاريخ ٨ نيسان ١٦١٤ وجَّهها إلى بطريرك الموارنة يوحنّا مخلوف يوصيه فيها بالأبوين ليسهّل لهما على قدر طاقته سفارتهما. على أنَّ هذه السفارة لم تأتِ بفائدة لسبب تقلّب بطريرك الكلدان إيليّا بين النسطوريَّة والكثلكة، فطلب أن يُعهد حضور مجمع ملّته إلى الآباء الفرنسيسيّين بدلًا من الآباء اليسوعيّين، فحضره في آمد الأب توما دي نوفاره أوبيشيني فخُدع

بمراءاة النساطرة. ومنه ترى أن لا سند إلى ما رواه السيّد مطران يوسف الدبس في **تاريخ سورية** (٧: ٣٢٧) حيث يقول إنَّ الأبوين اليسوعيَّين «ذهبا إلى آمد وجمع البطريرك أساقفته بحضرتهما وجحدوا ضلال نسطور» وقد ترك لنا الأب ماريتّي (لا مارينوس كما ورد في تواريخ الموارنة) رسالةً موسَّعة في هذه السفارة نشرها فقيد الآداب الشرقيَّة الأب أنطون ربَّاط (Rabbath: *Documents II*, 421-422).

وكان تلاميذ رومية غير الأب بطرس المطوشيّ استحقّوا شكر قداسة البابا بولس الخامس بما نقلوه من اللاتينيَّة إلى الكلدانيَّة ومن الكلدانيَّة إلى اللاتينيَّة بخصوص هذه السفارة، وقد خصَّ منهم بالذكر في رسالةٍ وجَّهها إلى بطريرك الكلدان «إسحاق الشدراويّ العالِم باللاهوت المقدَّس ويوحنّا الحصرونيّ».

ونضيف إلى هذه الخدم المشكورة التي أدَّاها تلامذة الموارنة للكنيسة ترشيحهم لتعليم اللغات الشرقيَّة أي العربيَّة والسريانيَّة في رومية أوَّلًا ثمَّ في بعض حواضر البلاد الأوروبيَّة. وقد امتاز في ذلك بين التلامذة الأوَّلين بطرس مطوشيّ الذي علَّم في المدرسة الرومانيَّة، وجبرائيل الصهيونيّ الذي علَّم مدَّةً العربيَّة والسريانيَّة في مدرسة الحكمة في رومية ثمَّ دُعي إلى باريس فعلَّم في كلِّيَّتها وشرَّفه الملك لويس الثالث عشر بلقب ترجمان ملكيّ. واشتهر أيضًا في تلك الحقبة بالتعليم في رومية إبراهيم الحاقلانيّ قبل أن ينقطع إلى التأليف في باريس مع الصهيونيّ.

فكلّ هذه المآثر لتلامذة مدرسة الموارنة الأوَّلين في رومية ألفتت إليهم الأنظار. ومذ ذاك الحين شاع في أوروبَّة اسم الموارنة.

وكان الآباء اليسوعيُّون معلّموهم لا يألون جهدهم في تدبير المدرسة وإرشاد الذين أنهوا دروسهم ليحسنوا المتاجرة بوزناتهم. وفي سجلَّات الرهبانيَّة اليسوعيَّة رسائل كتبها بعضهم إلى معلّميهم ينوّهون فيها بفضلهم ويشكرون جميلهم لا سيَّما رؤساء المدرسة الذين تولَّوا إدارتها وهذه أسماؤهم: خلَفَ الأبَ يوحنّا برونو في رئاسة مدرسة الموارنة الأب

إيرونيموس فوروفانتوس الرومانيّ (١٥٩٠-١٦٠٦) ثمَّ الأب أنطون لونغوس الفيرنسيّ (١٦٠٦-١٦١٠) ثمَّ الأب يعقوب كمپيوناس (١٦١٠-١٦٢٢) ثمَّ الأب أنيال كاناليوس (١٦٢٢-١٦٢٥) ثمَّ الأب فابيوس برونو (١٦٢٥-١٦٣٢) وهو الذي بإغرائه ألَّف الحاقلانيّ غراماطيقه السريانيّ كما يصرّح بذلك في مقدَّمته اللاتينيَّة.

وكان رئيس الرهبانيَّة اليسوعيَّة العامّ الأب كلوديوس أكوافيڤا يرعى تلك المدرسة بعين ساهرة ويكاتب الذين عادوا إلى وطنهم. وفي تاريخ الموارنة للدويهيّ (ص ٤٥٣) «أنَّ البابا بولس الخامس أمر سنة ١٦١٢ الأب كلوديوس أكواويوا رئيس شركة اليسوعيَّة أن يُخرج جسد القدّيس أميريطن (كذا) من بيت الشهداء ويرسله مع قوم أمناء إلى البطريرك يوحنّا (مخلوف) على موجب طلبه. ورأس هذا القدّيس هو إلى هذا اليوم مصون بكلّ كرامة داخل بيت مذبح كنيسة الكرسيّ».

ويحسن بنا هنا أن نورد أثرًا عزيز الوجود يُطلعنا نوعًا على تلامذة رومية الذين تخرَّجوا في مدرسة الموارنة من أوَّل إنشائها إلى أواسط القرن السابع عشر فنثبته بعد مقدَّمة لتعريفه وتعريف كاتبه.

نظر في الأثر المذكور

بين مخطوطات المكتبة الفاتيكانيَّة التي وصفها العلَّامة السمعانيّ في آخر الجزء الأوَّل من المكتبة الشرقيَّة كتاب موسوم بالعدد ٢١ (Bibl. Or. I, 577.) (Codex XXI, n° 4) من قطع الثمن يتألَّف من ٦٤ صفحة كتبه سنة ١٦٦٩ بالكرشونيّ القسّ إلياس الغزيريّ راهب دير مار شلّيطا وضمَّنه بعض القصائد العاميَّة للمطران جبرائيل ابن القلاعي في المجامع والهرطقات وفي إيمان الموارنة المستقيم وحروب لبنان. يليها ثلث زجليَّات لناسخ الكتاب القسّ الياس الغزيريّ: الأولى في وصف رومية العظمى، والثانية في مديح تلاميذ المدرسة المارونيَّة القديمة في رومية التي كانت تحت تدبير الآباء اليسوعيّين من السنة ١٥٨٤ إلى ١٧٧٣، والثالثة في رثاء البطريرك يوحنّا الصفراويّ من بيت البوّاب الذي خلف البطريرك يوسف حليب سنة ١٦٤٨ ودبَّر الكرسيّ الإنطاكيّ إلى سنة وفاته في ٢٣ كانون الأوَّل سنة ١٦٥٦.

وقد تلطَّف سيادة المطران عبدالله الخوري النائب البطريركيّ وأرسل لنا نسخة من مديحة تلاميذ رومية للقسّ إلياس الغزيريّ لننشرها في جملة كتاباتنا عن المدرسة المارونيَّة القديمة. ولا نعلم أهذه النسخة منقولة عن النسخة الڤاتيكانيَّة أم عن أصل آخر. وعلى كلّ حال إنَّنا نقدِّم لسيادته خالص شكرنا.

ولا بُدَّ لهذه الزجليَّة من شروح وتذييلات فتولّينا ذلك لتعريف التلامذة الذين تخرّجوا في تلك المدرسة الشهيرة في الثمانين السنة الأولى لفتحها أعني من السنة ١٥٨٤ إلى سنة تاريخ الزجليَّة ١٦٦٩. وقد ورد في هذه القصيدة أسماء كثيرة لا يمكن الاستدلال على أصحابها لجواز إطلاقها على غير واحد. والظاهر أنَّ المؤلِّف لم يذكر كلّ التلامذة وقد فاته كثير منهم إمَّا سهوًا وإمَّا اختصارًا. وقد روى منها أبياتًا الطيِّب الذكر المطران بطرس شبلي في ترجمة البطريرك إسطفان الدويهيّ. أمَّا المؤلِّف القسّ إلياس الغزيريّ الراهب المارونيّ الحلبيّ فلم نقف على شيء من تاريخه.

مديحة تلاميذ رومية

للقسّ إلياس الغزيريّ راهب دير مار شلّيطا سنة ١٦٦٩

١ على اسم الآب الأبويَّهْ وفي كلمته الأزليَّهْ وروح قدسُه في السويَّه
أرتّب أبيات إفراميَّهْ[١]

٢ أنبا وأبيّن بالأخبارْ في جملة الإخوة الأطهارْ المجتمعين من كلّ الأقطارْ
بمدرسة المارونيَّهْ

٣ نبدي من الحبيس سركيس[٢] مطران طاهر وكان قدّيسْ رزّي أصلهُ على التأسيسْ
تابع أمانة روميَّهْ

(١) الأبيات الإفراميَّة تتألَّف من أربعة شطور ثلثة منها على رويّ واحد والرابع على رويّ يعود في ختام كلّ الأبيات.

(٢) هذا الحبيس سركيس الرزّي من باقونا قد مرَّ لنا ذكرهُ. كان من أوَّل تلامذة رومية وابن أخي البطريركين ميخائيل وسركيس الرزّي وأخا البطريرك يوسف الرزّي ترهَّب بعد دروسه وسُقِّف على دمشق ثمّ أرسله أخوه البطريرك إلى رومية لتقدمة الطاعة باسمه وهناك اشتغل بطبع الكتب الطقسيَّة لطائفته وعُني خصوصًا بطبع التوراة اللاتينيَّة العربيَّة في ثلثة مجلّدات. توفّي في رومية سنة ١٦٣٨.

٤ حافظ وساعي بالقوانينْ رتبة واعتقاد المؤمنينْ ومن أخيهِ لسنا مفترقينْ
عن طوائف الشرقيَّهْ

٥ عمُّه كان بطرك مخايلْ والآخر سركيس طايلْ كانوا بطاركه بالقبايلْ
اثنينهم كانوا أخويّهْ

٦ وبطرك يوسف ابن خيّهُمْ دبّر الرعيَّه من بعدهُمْ ثلاثتهم زايد عزّهمْ
تابعين درب البابيَّهْ[٣]

٧ بطرك يوسف راد يعملْ رتبة مارون[٤] ويكمّلْ تتكون صالحه ولا تُبدلْ
على رتبة الرسوليَّهْ

٨ إفرام مارون حقَّاني تابعين كرسيّ الروماني[٥] أخوه سركيس البقوفاني
مطران مدينة سوريَّهْ[٦]

٩ تلميذ رومية كان يا ناسْ وطبع شحيم وكتاب قدّاسْ وتوراة وخدمة الشمَّاسْ
ومات برومية بهنيّهْ

١٠ وموسى كان من عاقورهْ[٧] مطران وسمعته مشهورهْ تلميذ المدرسة المذكورهْ
في العلوم اللاهوتيّهْ

١١ ومطران حنّا الحصروني[٨] فسَّر ناموس كرشوني راهب حافظ قانوني
داير يكرز بالرعيّهْ

(٣) يريد أنّهم ثبتوا في إيمان البابا خليفة مار بطرس. وقد مرَّ لنا ذكر هؤلاء البطاركة الثلثة.

(٤) يريد برتبة مارون أي الطقس المارونيّ.

(٥) يريد أنَّ مار مارون كمار إفرام على إيمان واحد.

(٦) مدينة سوريَّة هي دمشق التي سُقِّف عليها الراهب سركيس الرزّي.

(٧) هو القسّ موسى بن سعاده العنيسي العاقوريّ من أوّل تلامذة رومية الذي عُني بطبع القدّاس المارونيّ في مطبعة الماديشيس سنة ١٥٩٤ مع جرجس عميره. رقَّاه البطريرك يوسف الرزّي مطرانًا على قبرص سنة ١٥٩٨ وتوفّي سنة ١٦١٤.

(٨) هو يوحنّا الحصرونيّ الحوشبيّ سقّفهُ البطريرك يوسف الرزّي على دير قنُّوبين وكان قبلًا ترهّب برهبانيّة مار عبد الأحد الدومنيكان. توفّي سنة ١٦٣٢.

١٢ وبطرك جرجس هدناني[٩] مشهور بعلم السرياني ومطران إسحاق شدراني[١٠] يكرز كلامه بعجليَّة[١١]

١٣ وبطرك أندراوس يعقوبي[١٢] من التلاميذ محسوبي صار مارونيّ مكتوبي تبع أمانة البطرسيَّة

١٤ ومطران مخايل حصروني[١٣] رتَّب حساب بالكرشوني وبيَّن فرق الماروني من طوائف الشرقيَّة[١٤]

١٥ ومطران سركيس الجمري[١٥] ومطران إسطفان يا حبري[١٦] الله يزيدلُّه العمري من إهدن المسميَّة

١٦ وخوري جرجس بن عنَّاب[١٧] كان معلِّم وصاحب جواب حيث رتَّب من علمه كتاب مناره السريانيَّة

١٧ والأب نصرالله خوري هو ابن شلَق العاقوري[١٨] كان فهيمًا وصاحب شوري خلَّف المدرسة بكلِّيَّة

(٩) هو البطرك جرجس عميره الذي جلس على السدَّة البطريركيَّة من ٢٧ ك ١ ١٦٣٣ إلى ٢٩ تمُّوز ١٦٤٤.

(١٠) هو إسحاق الشدراويّ مطران طرابلس المتوفّى سنة ١٦٦٥. أطلب في المشرق (٢ [١٨٩٩]: ٩٣٩-٩٤٥) أخبار رحلته إلى فرنسا سنة ١٦٦٠.

(١١) يريد أنّه كان حاذقًا بليغًا في الوعظ.

(١٢) هو أوّل بطاركة السريان الكاثوليك أندراوس أخيجان. كان ارتدَّ عن اليعقوبيّة ثمّ درس في المدرسة المارونيّة في رومية وتوفّي سنة ١٦٧٧.

(١٣) هو ميخائيل بن سعاده الحصرونيّ سقَّفهُ البطرك يوسف حليب على دير مار جرجس بقورقافا ومعاونًا للكرسيّ. طبع في رومية سنة ١٦٣٧ بالكرشوني كتابه في الحساب الغربيّ المعروف بالغريغوريّ. كانت وفاته السنة ١٦٦٩.

(١٤) أي بيّن امتيازهم عن بقيّة الطوائف بخضوعهم للحساب الغريغوريّ.

(١٥) كان من إهدن وسُقِّف على كرسيّ دمشق ثمَّ على قبرص. ومات في مرسيليا سنة ١٦٦٨.

(١٦) يريد إسطفان الدويهيّ ولم يكن بعد ارتقى إلى السدَّة البطريركيَّة وإنّما كان تسقَّف سنة ١٦٦٨ على أسقفيّة قبرص. توفّي سنة ١٧٠٤.

(١٧) لا نعرف جرجس المذكور.

(١٨) نصرالله بن شلق العاقوريّ أحد مشاهير الطائفة المارونيّة أنشأ مدرسة راثًا لأبناء ملّته وأقام بأوروبّا إلى حين وفاته سنة ١٦٣٥.

١٨	قسّيس إبراهيم الحلبيّ	تبع الشهداء بدربي	من رهبان يسوع ربّي
		تشهّد ببلاد هنديّة[١٩]	
١٩	طالب منّه الشفاعةْ	لضعفي وأيضًا للجماعةْ	الذين يمشون بالطاعةْ
		بحبّ العذراء النقيّةْ	
٢٠	وقسّيس سمعان تولاني[٢٠]	كان قدّيس بالرهبانِ	أريدُهُ يطلب من شاني
		حتّى أنجو من الخطيّةْ	
٢١	قبرُه في بشِعْله موجودْ	بلزق الحايط هو ممدودْ	كنيسة العذرا أمّ الجود
		يشفي وجع البرديّةْ	
٢٢	قبرُه يقصده الأعوامْ	الموجوع فوق منّه ينامْ	بيوم واحد من الأيّامْ
		يشفيه من كلّ وجعيّةْ	
٢٣	قبل موته بيوم واحدْ	أنباه الله العليّ وأكّدْ	كهنة بشعلي فيهِ تشهدْ
		ومعهم أكابر مسميّةْ	
٢٤	وهو كان معروف من سيرتُه	من الطاعة ومن غيرتُه	حافظ قانون رهبانيّتُه
		في الطهارة والعفّيّةْ	
٢٥	خوري يوسف عبد المسيح[٢١]	الحدثي على التصحيح	كان في شغله دوم فصيح
		في البرّ والبحريّةْ	
٢٦	كهنةْ من جزيرة قبرصْ	لوقا ويعقوب مع بطرس[٢٢]	في كتابهم الناس تدرسْ
		كرشونيّ وسريانيّةْ	

(١٩) هو إبراهيم جرجس الحلبيّ الذي دخل في الرهبانيّة اليسوعيّة وأُرسل للتبشير في الهند ومات شهيد إيمانه في مصوّع سنة ١٥٩٥.

(٢٠) هو القسّ سمعان بن هارون التولاويّ ذهب إلى المدرسة المارونيّة سنة ١٦٤١ مع إسطفان الدويهيّ ثمّ رجع إلى لبنان سنة ١٦٥٥ وصار راهبًا من رهبان القدّيس أنطونيوس وتوفّي بعد سنين قليلة برائحة القداسة.

(٢١) هو القسّ عبد المسيح ابن إلياس الحدثيّ خدم طائفته في بلاد بشاره وأرسله البطريرك يوسف العاقوريّ إلى رومية لطلب التثبيت سنة ١٦٤٤ واشتغل هناك عدّة سنين بطبع كتب الطقس المارونيّ. لم نقف على سنة وفاته.

(٢٢) لوقا القبرصيّ من قرباصيا سقّفه البطريرك الدويهيّ على قبرص سنة ١٦٧١ وتوفّي سنة ١٦٧٣. ويعقوب هو ابن ميخائيل من الأفقسيّة الذي ذكرناه في جملة التلامذة المرسلين إلى رومية سنة ١٥٨٣. أمّا بطرس فهو بطرس بن جبرائيل المطوشي اليسوعيّ المتوفّى سنة ١٦٢٥. له=

٢٧ كهنةٌ من قرية حصرونْ حنّا رزق الله وآخرونْ مخايل وفرحات بغير فنونْ
ويوسف معهم جمليّة.[٢٣]

٢٨ وخوري حنّا الحوارني وخوري بطرس غوسطاني وخوري يوسف تولاني
وقسّيس أنطون رزّيه.[٢٤]

٢٩ خوري بطرس هدناني وخوري جرجس حقلاني وقسّيس جرجس عرباني
وقسّيس جرجس وغيريّه.[٢٥]

٣٠ خوري حنّا من غزير وخوري صافي من شننعيرْ أخوهُ صادق قسّيس كبيرْ
في قانون الرهبانيّة.[٢٦]

=غراماطيق سريانيّ باللاتينيّة طُبع في رومية سنة ١٦٢٥.

(٢٣) إنّ الحصرونيّين الذين تخرّجوا في المدرسة المارونيّة متعدّدون. أمّا المذكورون هنا فيصعب تعريفهم بمجرّد أسمائهم ولعلّهم غيّروا هذه الأسماء لمّا صاروا كهنة. فمن المحتمل أنّه أراد «بحنّا» يوحنّا بن قرياقس الحصرونيّ المعروف من بيت صندوق الذي اشتغل في باريس بالتوراة مع إبراهيم الحاقلانيّ ثمّ سامه البطرك يوحنّا مخلوف أسقفًا. توفّي سنة ١٦٢٦. ولعلّه أراد بمخائيل مخائيل الحصرونيّ المعروف بابن صابون الذي أرسله البطريرك يوحنّا الصفراويّ إلى رومية سنة ١٦٤٨ ليطلب له التثبيت. أمّا يوسف فهو يوسف بن شمعون الحصرونيّ الذي درس في رومية من السنة ١٦٥٤ إلى ١٦٦٨ ثمّ سقّفه الدويهيّ على طرابلس. توفّي سنة ١٦٩٥. أمّا رزق الله وفرحات الكاهنان فلم نجد لهما ذكرًا.

(٢٤) بطرس الغوسطانيّ هو المطران بطرس بن مخلوف الآتي ذكره (ص ١٣٨) ويوسف تولاني هو يوسف الرامي (المذكور ص ١٤٠). وأنطون رزّيه هو أنطونيوس بن سركيس الرزّي من بان الذي كان سافر إلى رومية مع أندراوس أخيجان وموسى البشرّانيّ سنة ١٦٤٦. ثمّ ترهّب بعد رجوعه إلى لبنان في قنّوبين وتوكّل على أملاك ديره ثمّ أُصيب بالوباء سنة ١٦٧٠.

(٢٥) نعرف اثنين من هؤلاء الأربعة: ١ - الخوري بطرس الأهدنيّ ابن إبراهيم ابن عمّ إسطفان الدويهيّ سافر إلى رومية معه سنة ١٦٦٤ وسكن دير مار قبريانوس بإهدن بعد رجوعه ثمّ رقّاه سنة ١٦٨٠ البطريرك الدويهيّ إلى أسقفيّة صيداء. توفّي في أيّار سنة ١٦٨٣. ٢ - جرجس الحاقليّ الذي دخل المدرسة المارونيّة سنة ١٦٣٩ وأنفذه إلى رومية البطريرك يوسف العاقوريّ لقضاء بعض الأمور وخدم طائفته مدّةً في القدس الشريف. توفّي سنة ١٦٦٩.

(٢٦) يريد حنّا بن عويضة الغزيريّ الذي أرسله البطريرك يوسف حليب إلى رومية سنة ١٦٤٦ مع أندراوس أخيجان بعد ارتداده. وأراد بصافي صافي بن القديسيّ من شننعير الذي دخل المدرسة المارونيّة مع حنّا بن عويضة وعند عودته إلى لبنان خدم وطنه شننعير ثمّ عجلتون وصار ترجمانًا بين الشيخ أبي نوفل الخازن والفرنج المقيمين في سورية. أمّا أخوه القسّيس صادق فلم نقف له على ذكر.

٣١ والكاهنَيْن الحقيقيّهْ مرهج ومتّى البانيّهْ[٢٧] وكلاء كرسيّ البطركيّهْ
بروميـة عنـد البابيّـهْ

٣٢ قسّيس فليفِلْ الراهبْ من شرّ الناس كان هاربْ والبدري عليهِ نجاوبْ
قسّيس جرجس معوشيّهْ[٢٨]

٣٣ ومن عينتورين قسّيس يوسف معلّم بغير تقييس راهب ثابت على التأسيس
من رهبنة اليسوعيّهْ[٢٩]

٣٤ وشمّاس إبراهيم الحقلاني[٣٠] مشهور بعلم الكلداني عمل غراماطيق سرياني
يورث الحياة الأبديّـهْ

٣٥ علمُهْ مشهور بين الناسْ عند البابا والجلّاسْ دائم كان مرفوع الرأسْ
لَبْواب الكردينـاليّـهْ

٣٦ وشدياق موسى بن أيُوبْ[٣١] خادم العذراء محبوبْ نقي طاهر من جميع العيوبْ
ممتلي من القدوسيّـهْ

(٢٧) مرهج البانيّ هو أحد مشاهير تلاميذ رومية يدعى أيضًا مرهج النيرونيّ وباللاتينيّة Faustus Bannesius Naironus بعد درسه في المدرسة المارونيّة علّم اللغات الشرقيّة في الكلّيّة الرومانيّة. ووضع عدّة تآليف. توفّي في أواخر سنة ١٧١١ وسيأتي ذكر أخويه نقولا ويوحنّا (ص ١٤٢). أمّا متّى البانيّ فلم نجد له ذكرًا. وأراد بالبابيّه الكرسيّ الرسوليّ البابويّ.

(٢٨) القسّ فليفل ذاكره الدويهيّ قريبًا (ص ١٣٩). أمّا جرجس المعوشيّ فلا نعرفه ولا نفهم معنى قوله «والبدري عليه نجاوب».

(٢٩) هو الأب يوسف العينطورينيّ الحلبيّ والمارونيّ اليسوعيّ دخل الرهبنة اليسوعيّة واشتهر في إيطاليا بصفة واعظ وتوفّي في ٢٤ ك ١ سنة ١٦٨٦.

(٣٠) إبراهيم الحاقلانيّ من الموارنة الذين عظمت في أوروبّا سمعتهم. علّم في الكلّيّة الرومانيّة واشتغل في باريس بطبع التوراة المتعدّدة اللغات (البوليغلوتا). توفّي في رومية سنة ١٦٦٣.

(٣١) موسى بن أيُوب البشرّانيّ كان سافر إلى رومية مع أندراوس أخيجان وصافي الشننعيريّ. وقد اتّسع صاحب الزجليّة بذكر قداسته وموته الصالح فخصّه بثمانية أبيات منها ولم نعرف من أخباره سوى ما يُروى هنا مع ما خصّه الدويهيّ بذكره (ص ١٤٣) وذكر أخيه يوسف (ص ١٤٤).

٣٧ بيوم انتقاله بالقدرَهْ حضرتهُ مريم العذرا تكلّمت معهُ بالحضرَهْ
تنال ملكوت السماويّهْ

٣٨ قبل موته بخمسة أيّامْ جآتهُ السيّده بالمنامْ وقالت لهُ ما بقي لك مقامْ
بين الناس البشريّهْ

٣٩ ويوم الخامس تنيَّخْ بدير قنّوبين تريَّخْ ونفسُهْ بالملكوت تفرَحْ
شهوده ثلاثهْ حقيقيّهْ

٤٠ بطرك أندراوس محسوبْ ومن حصرون خوري يعقوبْ والمرتّب خاطئْ معيوب
المعروف بكلّ رزيّهْ

٤١ الثلاثة فيه تشهدْ وقدّام العذراء تسجدْ التي لها الناس تعبُد
قطّ ما عملتْ ولا سيّهْ

٤٢ يا شدياق يا بشرَّانيّ يا موسى نور أعياني أريدك تطلب من شأني
بخدمتك الروحانيّهْ

٤٣ لأنّك شرّفت التلاميذْ مدرسة مارون على التوكيدْ حقّ لك علينا التعبيدْ
لأنّك حفظت البتوليّهْ

٤٤ وغير ذلك نبيّن الآن شمّاس يوسف بن فتيان[٣٢] وأيضًا يوسف اللّي من بانْ[٣٣]
بدرجة الشمّاسيّهْ

٤٥ ناس أطهار بخدمتهُمْ حافظين قانون رتبتهُمْ العذرا هي عبادتهم
من الشرّ دَوْم أجنبيّهْ[٣٤]

٤٦ وأولاد المطران إسحاقْ يعقوب ويوحنّا شدياقْ[٣٥] اثنينتهم كانوا أرفاقْ
وتعلّموا أيضًا سويّهْ

(٣٢) هو الشمّاس يوسف فتيان الحصرونيّ الذي كان أُرسل إلى المدرسة المارونيّة سنة ١٦٤١ مع إسطفان الدويهيّ. توفّي في رومية في ٢٦ نيسان سنة ١٦٧٣ بعد أن أوقف جميع ماله للطائفة.

(٣٣) هو يوسف العيساويّ البانيّ الذي بعد دروسه في المدرسة المارونيّة علَّم في رومية اللغتين السريانيّة والعربيّة في مدرسة انتشار الإيمان وعُني مع مرهج النيرونيّ بتنقيح طبعة العهد الجديد في السريانيّة والكرشونيّة التي طُبعت في رومية سنة ١٧٠٣.

(٣٤) أي كانوا متجنّبين دائمًا الشرّ.

(٣٥) المطران إسحاق هو الشدراويّ المارّ ذكره الذي كان متزوّجًا قبل كهنوته. أمّا ولداه يعقوب ويوحنّا فلم نجد أحدًا أورد ذكرهما.

٤٧ ومخايل الكرمسدَّاني ويوحنّا البطحاني والعاقوري ترجماني أنطون عند الخواجكيَّة[٣٦]

٤٨ وشمّاس بطرس غبلاني الراهب الحقّاني شهادتنا فيه طوباني يثبتوها المالطيّة[٣٧]

٤٩ وشمّاس بطرس تولاني ويوسف حطيطا غوسطاني اثنينهم تبعوا الجسداني ومشيو بالسداجيّة[٣٨]

٥٠ وشمّاس يوسف من الفتوخْ من غدراس لتحوم نروخْ وجرجس فمُّه دَوْم مفتوخْ يطلب خلاص من الحميديّة[٣٩]

٥١ ومن حدشيت أيضًا اثنينْ موسى وجبير سنتيتَّيْن إبراهيم قبرسي من الجملتَين فيهِ كملت العذّيّة[٤٠]

٥٢ وشمّاس بولس عنَّيده وجرجس ليَّا بتوكيده قراياهم ليس بعيدهْ تقارب جبل المسميّة[٤١]

٥٣ وشمّاس نعمه تابعهم رفيقهم وكان من جملتهُمْ وفي العلم أشطر منهُمْ مجتهدًا وكان لهجيّة[٤٢]

٥٤ وإليَّا الكسرواني ويوحنّا ابن الباني لسَّا بيقرَوا يا إخواني[٤٣] بمدرسة الرومانيّة

---

(٣٦) إكتفى الدويهيّ بذكر مخائيل ويوحنّا (ص ١٣٨). يريد بالخواجكيَّة الأشراف.

(٣٧) لا نعلم مَن هو الشمّاس بطرس غبلاني الراهب ولأيّ سبب تشهد له المالطيّة.

(٣٨) الشمَّاس بطرس تولانيّ هو غير بطرس التولويّ الحلبيّ الذي أتى بعد ذلك. اطلب الدويهيّ لاحقًا (ص ١٤٠) ونجهل أخباره وأخبار يوسف حطيطا الغوسطانيّ. ويؤخذ من قوله «تبعوا الجسداني» أنّهما بقيا بين العلمانيّين ولم يتكهَّنا ومشيا بعيشة المسيحيّين البسطاء.

(٣٩) كذلك نجهل أخبار الشمّاس يوسف الفتوحيّ. وقوله «من غدراس لتحوم نروح» يريد أنَّ ناحية الفتوح واقعة بين غدراس وتحوم قرية من بترون السفلى. وقوله «يطلب الخلاص من الحميديّة» يشير إلى ظلم بني حماده المتاولة.

(٤٠) حدشيت في بلاد البترون. ولم نتحقَّق مَن هما موسى وجُبير ستيتّيْن (كذا). سيأتي ذكر إبراهيم القبرسيّ (ص ١٤٧). أمّا العذّيّة فيريد بها زجليَّته.

(٤١) أطلب تاريخ الدويهيّ لاحقًا (ص ١٤٦) وجبل المسمّيه هو جبل الأرز.

(٤٢) الشمّاس يوسف نعمة مذكور لاحقًا (ص ١٤٦). وقوله «كان لهجيّة» أي كان فصيحًا.

(٤٣) إليّا الكسروانيّ ويوحنّا الباني كانا كما يقول من الدارسين حين كتب المؤلِّف زجليَّتهُ ولا نعلم ماذا صار بهما بعد ذلك. ولسَّا بمعنى إلى هذه الساعة أي إلى الآن.

٥٥ وجميع الذين ذكرناهم المستأهلين شكرناهمْ والغشيمين حقرناهم
والله عالم بالنيّةْ

٥٦ لأجل التلاميذ اللاتينيّين حتّى يكونوا محترصين ولا يضيّعوا أيّام وسنينْ
في لعب المسكرتيّه(٤٤)

٥٧ أيّها التلاميذ تعلّموا وفيما ذكرنا أن تفهموا وإن تكاسلتوا ستندموا
وأيش تنفع الندميّةْ

٥٨ الكاسب دَوْم هو فرحانْ راضي عليهِ الرحمانْ والخاسر يوجد حزنانْ
جسداني وروحانيّةْ

٥٩ عند الناس دائم مرذولْ وعند الله ليس لهُ قبولْ وعقله من همُّه مشغولْ
وما يوجد لهُ حنيّةْ

٦٠ ترتّبت هذه الأسطار أوّل يوم من شهر أيّار نطلب منكم التذكارْ
يا سامعين المديحيّةْ

٦١ بأيّام البابا إقليمسْ التاسع وكيل مار بطرسْ وسيّدنا البطرك جرجسْ
على ملّة المارونيّة(٤٥)

٦٢ «سايلا» عبدكم المكتوب(٤٦) اقرأوا اسمهُ بالمقلوب والعذرا طاهره من العيوبْ
تحرسكم من البليّةْ

أثر جليل للبطريرك إسطفانوس الدويهيّ
تاريخ المدرسة المارونيّة في رومية

مقدّمة

ذكرنا في جملة مخطوطات السعيد الذكر البطريرك إسطفانس الدويهيّ تاريخًا كتبهُ في تلامذة المدرسة المارونيّة في رومية (اطلب المشرق ٢١ [١٩٢٣]: ٢٤). وقلنا هناك إنَّ هذا التاريخ أخذتهُ يد الضياع إلاَّ كرّاسًا منه في

(٤٤) المسكرتية أي المتعاطون السكر.

(٤٥) جلس البابا إقليميس التاسع على كرسيّ البابويّة من حزيران ١٦٦٧ إلى ك ١ ١٦٦٩. البطرك جرجس هو جرجس السبعلانيّ (١٦٥٧-١٦٧٠).

(٤٦) وسايلا بالمقلوب هو «إلياس» مؤلّف هذه الزجليّة.

مكتبة سيادة المرحوم بولس مسعد رئيس أساقفة دمشق. وهذا الكرّاس الثمين قد أطْلعنا عليه حضرة شقيقه الخوري الفاضل عبدالله مسعد وسمح لنا بنشره فنلبّي بطيب الخاطر إلى رغبته فننشره كتتمّة لأخبار تلك المدرسة العامرة التي أدَّت للكنيسة وللطائفة المارونيّة أجلّ الخدم. والكرّاس المذكور يتناول تاريخ المدرسة المشار إليها من السنة ١٦٣٩ إلى ١٧٠٢ أعني إلى أواخر بطريركيَّة الدويهيّ المتوفّى سنة ١٧٠٤ وكأنَّه تابع لما نشرنا سابقًا عن تلك المدرسة ومفسّر لزجليَّة القسّ إلياس الغزيريّ.

قال السيّد الدويهيّ:

سنة ١٦٣٩ عندما قلَّ عدد التلاميذ (في مدرسة رومية المارونيَّة) قدمَ جوان باطيشتا كورتي من الشركة اليسوعيَّة يطلب تلاميذ فأرسله البطرك جرجس بن عميرة إلى بلاد كسروان لعند المطران يوسف العاقوريّ ليجمع له الأولاد. فاختار خمسة عشر ولدًا وهم فَرَح من غوسطا. وبطرس بن مخلوف من بيت دوميط من غوسطا. ويوسف فليفل منها. وجرجس بن عبدالله الحقلانيّ. وميخائيل بن داود الكرمسدَّانيّ. ويوسف بن جبرائيل العاقوريّ. وميخائيل بن داود من بكركي. وجبرائيل بن موسى منها. وجرجس بن عفيف من صيداء. وداود بن يوسف من مجدليون. ويوحنّا بن الياس من بيت مبارك من بطحا. ومنصور بن بطرس البانيّ. وبطرس بن سمعان الطرابلسيّ. ففرح الغوسطاويّ. مات في البحر.

﴿بطرس بن مخلوف﴾ بعدما أكمل ثلث سنين من الفلسفة وسنة من علم اللاهوت نَقَلَ المعيّد الشتويّ من السريانيّ إلى اللاطينيّ ثمَّ رجع إلى بلاده سنة ١٦٥١ في سبعة من تشرين الأوَّل فلبس إسكيم الرهبنة بدير مار شلّيطا وسيم قسّيسًا. ثمَّ لمَّا ارتقيتُ درجة البطريركيَّة أوقفناه عندنا كاتبًا. وفي السنة ١٦٧٤ في أربعة من تمُّوز قدَّمناه مطرانًا على مدينة الأفقسيَّة بقبرس فبذل مجهوده في سياسة تلك الرعيَّة وصار له تعب ومعارضة من طائفة الروم. ثمَّ في السنة ١٦٨٠ سفَّرناه إلى رومية فوقع بيد المغاربة واحتمل مشقَّات وافرة

لأجل استفكاك ذاته والأولاد الذين كانوا بصحبته. وفي السنة الثانية في عشرة من أيّار رجع لعندنا بسلامة. إجتهد كثيرًا في نشوء الديورة وجمع قصص القدّيسين في مجلّدين كبار ثمَّ اختصرهم بنوع سنكسار وصنَّف ميامر وتشمشتات (فروض) سريانيّ.

﴿يوسف فليفل﴾ كان دخل سابقًا في رهبنة مار أنطونيوس بدير مار شلّيطا مقبس وإذ لم يوافق التلاميذ في أكل الظفر (الزفر) عرض عليه مدير المدرسة أن يبرز له أمرًا من طرف البابا حتّى يتظفَّر فما أثر بتغيير نذره إنَّما ثبت مدَّة يسيرة في المدرسة ثمَّ رجع إلى ديره فسيِّم قسّيسًا وخدم الله بكلّ سذاجة وطهارة.

﴿جرجس الحقلانيّ﴾ درس علم النيّة سنتين ثمَّ عاد إلى بلاده فسامه البطرك يوسف العاقوريّ قسّيسًا وأنفذه إلى رومية بقضاء مصالح الطائفة. وبعد عودته توجَّه إلى القدس الشريف فخدم أوَّلًا الطائفة بكلّ انتباه فحسدوه رهبان القدس ومنعوه عن وضع البخور في القدّاس ليقلّعوه من القدس وما زال يجاهد حتّى قضى أجلهُ سنة ١٦٦٩.

أمّا الباقي فقد اقتصرنا من ذكرهم لأنَّهم ما تقدَّموا إلى درجة الكهنوت وصار نفعهم قليلًا.

سنة ١٦٤٠ دخل المدرسة ﴿مرهج بن ميخائيل بن نمرون البانيّ﴾ وهو أخو نقولا الذي تقدَّم ذكره. فمرهج لمّا دخل المدرسة كان ابن خمسة عشر سنة. وبعدما أكمل علم الفلسفة وسنتين من علم اللاهوت قصد المسير لجبل لبنان ورمى الطاعة للبطرك يوحنّا صحبة قاصده الخوري ميخائيل الحصرونيّ وكان ذلك في السادس عشر من تشرين الأوَّل سنة ١٦٤٩. وعندما دخلوا بلاد الشام كان البطرك في زيارة بكفيًا فأرسل الكهنة ورؤساء الكهنة وشعبًا كثيرًا إلى لقائهما برهجة وبخاخير. وبعدما لبس درع البطريركيَّة قسَّم مرهجًا قسّيسًا.

فثبت عنده مدَّةً من الزمان ثمَّ جعله وكيل الكرسيّ الإنطاكيّ برومية وأرسل

صحبته أربعة أولاد ليتهذّبوا بالعلوم وكان ذلك سنة ١٦٥٠، فبذل جهده في خدمة الطائفة وقصّاد البطاركة وكان ذا نظر طائل وعقل رزين حتّى إنّه استمدّ محبّة البلاط الرومانيّ فأنعموا عليه بأن يدرّس اللغات الشرقيّة في دار العلوم. وفي السنة ١٦٩٦ (صنّف سيرة) أوسطاكيوس وصنّف جملة كتب منها كتاب عن أصل الملّة المارونيّة وصحّة أمانتها منذ الزمان القديم ثمّ عن مناضلة آراء المبتدعين في بلاد الغرب من برهان علماء الشرق. ثمّ (كتب) عن شجرة البنّ وإفادة القهوة وغير ذلك أخرجها في الطبع باللغة اللاتينيّة.

سنة ١٦٤١ أرسل البطرك جرجس صحبة القسّ سمعان التولاويّ راهب مار أنطونيوس والشمّاس يوسف فتيان الحصرونيّ اثنيهما (وكلاهما) من تلاميذ المدرسة، أربعة أولاد وهم: يوسف الراميّ فتكنّى بروميه بولس التولاويّ وأخوه بطرس أولاد أخت القسّ سمعان المذكور. وبطرس بن القسّ إبراهيم من بيت أميّة الهدنانيّ. وإسطفان بن ميخائيل بن القسّ موسى الدويهيّ من قرية إهدن اثنيهما (كلاهما) يجانسان البطرك الذي أرسلهما وكان دخولهم رومية في شهر حزيران.

﴿يوسف الراميّ﴾ بعدما درس سنتين في الفلسفة حكم عليه الأطبّاء بالعودة إلى بلاده لئلّا يقع في الاستسقاء. وكان خروجه من رومية في أوائل التشارين سنة ١٦٤٩ فلبس إسكيم مار أنطونيوس وسيم قسّيسًا واجتهد كثيرًا في علم الأولاد في عشقوت وبسكنتا وقبرس وبيت شباب. كان طويل الروح وتلمذ كثيرين وأنشأ دير مار جرجس بحردق بأرض بيت شباب وسيم عليه خوري برديوط. وفي الدير المذكور انتقل إلى رحمة ربّه بكلّ ثناء في أوائل سنة ١٧١٢ (١٧٠٢؟).

أخوه ﴿الشدياق بطرس﴾ تزوّج في بيت شباب ومات فيها.

﴿بطرس ابن القسّ إبراهيم الهدنانيّ﴾ كان ابن عشر سنين. درس علم المنطق وعلم النيّة وعلى شَوْر الأطبّاء عاد إلى لبنان بلاده فسيم كاهنًا وسكن دير مار قبريان بإهدن ثمّ أوقفناه عندنا يازجي (كاتبًا) وكان له يد طويلة في

الخطّ السريانيّ والعربيّ والفرنجيّ. وفي السنة الرابعة أعني سنة ١٦٧٠ أقمناه مطرانًا على مدينة صيداء فخدم الرعيَّة التي تسلّمها بكلّ تقوى وفي السنة ١٦٨٨ في ستَّة من أيَّار انتقل إلى راحة الصالحين في وادي صفره وهو في زيارة الرعيَّة.

﴿إسطفان ابن الشدياق ميخائيل بن القس موسى الدويهي﴾ من قرية إهدن[1] دخل المدرسة في أواخر السنة الحادية عشر من عمره. أكمل علوم الفلسفة واللاهوت في مجادلات: الأولى (كذا) على اسم الكردينال كپون كفيل المدرسة والثانية على اسم البطريرك يوحنّا الصفراوي. وعند خروجه من المدرسة سنة ١٦٥٥ في ثلثة من نيسان اختاره سادات المجمع عن الانتشار (مجمع انتشار الإيمان) أنَّه يكون مرسلًا بعلومه وذلك بهمَّة المعلّم إبراهيم الحقلانيّ. وفي السنة الثانية بعيد البشارة رسمهُ البطريرك يوحنّا قسًّا على دير رأس النهر. فبذل مجهوده في التلمذ (أي التعليم) وتصنيف الكتاب عن سرّ القربان المقدّس.

وعندما قصد بيكات (Fr. Picquet) قنصل الملَّة الفرنساويَّة بحلب رسامة القسّ أندراوس أخيجان ليكون مطرانًا على طائفته السريانيَّة بحلب كان هو المساعد له عند البطرك يوحنّا. ثمَّ في السنة ١٦٥٧ دخل معه في دخول الصوم إلى حلب فثبت ثمانية أشهر يعضد المطران المذكور في الشور والوعظ وكان يوعظ جماعته في كنيسة ماري الياس. ولمَّا رجع إلى جبل لبنان أخذ السكنى بدير مار يعقوب الحباش وكان خرابًا فرمرمهُ (فرمَّمهُ) واستمرّ فيه خمس سنين. وفي السنة ١٦٦٨ بعد عيد الكبير قصد زيارة الأماكن المقدَّسة فأخذ صحبته والدته وأخاه الحاجّ موسى. وعند العودة قدَّمهُ البطرك جرجس إلى مطرنيَّة الأفقسيَّة بقبرس وبإذنه جال في رعايا الجبّة والزاوية وعكَّار وقبرس يتعب على خلاصهم وببلاغة تعب في دورانه وفحص الكتب وجمع كتاب تواريخ.

(١) هو البطريرك إسطفان الدويهيّ الشهير صاحب هذا التاريخ.

وعندما حكم الباريء بانتقال البطرك جرجس إلى مجازاة تعبه مع الأبرار اختير على رضا رؤساء الكهنة والشعب ليسوس الكرسيّ الإنطاكيّ موضعه. وكان ذلك في عشرين من أيّار سنة ١٦٧٠ وهي سنة الوباء الكبير، فسام الشمّاس يوسف بن الخوري يعقوب الحصرونيّ قسّيسًا وسفَّره إلى رومية لأجل رمي الطاعة إلى قدس البابا زخيا (إينوشنسيوس) العاشر ولطلب درع كمال الرئاسة. وخرج وهو في الدورة إلى زيارة الرعايا وبنى الحارة التي بلزق كنيسة مار شلّيطا مقبس. وفي السنة ١٦٧٢ عاود إلى قنُّوبين وجاءه درع التثبيت من رومية مع القسّ يوسف وأوقفه عنده يازجيًّا (كاتبًا). ولو إنَّ دهره كان عسيرًا فبذل كلّ جهده في جمع الرتب الكنائسيَّة بتمامها. وبسط الشرح ليس فقط في سرّ القربان المقدَّس بل في جمع النوافير المقبولة وقصص الآباء الذين ألَّفوها وفي الشرطونيَّات الكهنوتيَّة وفي أسرار البيعة وفي تكريسات الكنائس والميرون وما يليها. وضبط جميع رسومات المواعظ الكنائسيَّة بترتيب واضح ليتميَّز بعضها من البعض وبرهن عن أصل الملَّة المارونيَّة ودوام اتّحادها مع الكنيسة الرومانيَّة.

سنة ١٦٤٢ دخل المدرسة ﴿يوحنّا بن نمرون﴾ هو أخو نقولا ومرهج. فبعد كمال علمه سيم كاهنًا برومية ثمَّ تولَّى تدبير مدرسة راوونًّا (Ravenne) وعندما خلت قلَّدوه خزانة كتب مار بطرس سنة ١٦٦٣. عند موت صهره إبراهيم حقلانيّ سنة ١٦٤٦ قدم من حلب إلى المدرسة.

﴿يوسف بن الحاجّ جرجي العنتاريّ﴾[٢] صحبة عبد المسيح الحلبيّ. فبعدما تهذَّب في علم المنطق دخل الشركة اليسوعيَّة وبعد التجربة وتمام العلوم الرياضيَّة والإلهيَّة سيم قسّيسًا فاعتنى على الوعظ وبلغ فيه مرتبةً عالية حتَّى إنَّه جلس على غالب منابر رومية وجذب إليه خواطر أكابرها ورؤسائها وصار له ثناء عظيم في الوعظ وتهذيب الشعب. ثمَّ في سنة ١٦٨٦ طلبه سلطان مالطة وبعدما كرز في الجزيرة الحدود (الآحاد) التي تتقدَّم ميلاد الربّ

(٢) كذا في الأصل «العنتاريّ يريد به الأب يوسف المعروف بالعينطورينيّ اليسوعيّ».

انتقل إلى راحة الصالحين في بيرمون العيد.

وفي السنة المذكورة أرسل البطرك يوسف العاقوريّ أربعة أولاد للمدرسة صحبة عبد الغال أخيجان السريانيّ الحلبيّ، والأولاد هم: فيلبّوس وهو موسى ابن الخوري أيّوب البشرّانيّ. وأنطونيوس بن سركيس الرزّ البانيّ. وحنّا بن عويضا الغزيريّ. وصافي بن القديسيّ من شننعير.

﴿فعبد الغال أخيجان﴾ كان في الأصل يعقوبيًا وارتدّ إلى طاعة الكنيسة على يد الأب أماتيوس (Aimé Chézaud) اليسوعيّ وكان عذب اللسان حسن الخطّ السريانيّ والعربيّ وعندما قدم إلى جبل لبنان أرسله السيّد البطريرك إلى رومية ليتثبّت في صحّة الإيمان. ثبت في المدرسة سنتين بمنزلة ناظر على الأولاد ودرس علم النيّة على يد جرجس الحقلانيّ الذي كان يترجم له. ولمّا رجع إلى لبنان سامه البطريرك يوحنّا قسّيسًا. وفي السنة ١٦٥٦ عندما قصد شمعون بطرك اليعاقبة الدورة على رعاياه ليوفي الدراهم التي كان تسلّمها في حلب پيكات قنصل الملّة الفرنسويّة وكانت بكثرة، عرض عليه رسامة أخيجان أن يكون مطرانًا ومتوكّلًا موضعه. وحين أخذ خاطره وخرج في الدورة كاتب القنصل البطرك يوحنّا بسبب رسامته وتكفّل له بجميع ما يصدر من تحت رأسه من الضرر، فسامه مطرانًا على كنيسة السيّدة بحلب وشارطه أن لا يتعاطى أمور الموارنة ولا يدخل كنيستهم.

وأمّا القنصل فلشدّة غيرته على انتشار الإيمان، حين توفّي البطرك شمعون سنة ١٦٥٩ تكلّف دراهم كثيرة حتّى أبرز له خطًّا شريفًا من السلطان محمّد أنّه يكون بطركًا على الملّة السريانيّة، وما اقتبله الشعب إلاّ بشرط أنّه يوفي الديون التي كانت على كنيستهم ويستفكّ أثاثها المرهونة ولا يكلّفهم شيء على الخطّ الشريف ولا على خرجيّته. وعندما ملك الكرسيّ وسُمّي إغناطيوس قسّم أخاه روحيجان مطرانًا على حلب موضعه وكنّاه بديونيسيوس فتعب على جماعته تعبًا شديدًا وردّ منهم كثيرين. واحتمل من أخيه أصلان ومن المخالفين مشقّات جزيلة. ثمّ في السنة ١٦٧٧ انتقل من هذه الحياة الزائلة إلى الرهينة ليقبل مجازاة تعبه.

﴿موسى ابن الخوري أيّوب البشرّانيّ﴾ ولد في حلب وبعدما دخل المدرسة درس سنتين في الفلسفة وسنتين في علم النيَّة ثمَّ عاد إلى قنُّوبين وخدم في الشمّاسيَّة للمطران يعقوب الراميّ وقبل ما يدخل الرهبنة والكهنوت خطفه الوباء. وكان جزيل الخضوع والطهارة ورُسمت صورته بين الفضلاء الذين ربيوا (ربوا) في المدرسة.

﴿أنطونيوس الرزّيّ﴾ بعدما أكمل علوم الفلسفة واللاهوت ترهَّب في دير قنُّوبين وخدم البطرك جرجس في الكتابة، وحين توجَّه البطرك المذكور إلى ناحية كسروان جعله وكيلًا بدير الكرسيّ فسابق عليه الوباء الشديد وخطفه في شهر أيّار سنة ١٦٧٠.

﴿حنّا بن عويضا الغزيريّ﴾ بعدما تمَّم درس العلوم الرياضيَّة والإلهيَّة رجع إلى البلاد صحبة أنطونيوس الرزّي في ٣ من أيّار سنة ١٦٥٨ فتزوَّج ثمَّ ارتسم كاهنًا على قرية غزير فخدمها بكلّ انتباه وغيرة. إنتقل لرحمة ربِّه في ٢١ شباط سنة ١٧٠٤ بشيخوخة صالحة.

﴿صافي القديسيّ﴾ درس الفلسفة واللاهوت ورجع صحبة أرفاقه الذين تقدَّم ذكرهم وبعدما تزوَّج سيم كاهنًا على دلبتا فأرسل وأخذه إلى عجلتون الشيخ أبو نوفل قنصل بيروت ليخدم أهل عجلتون ويكون ترجمانًا بينه وبين الفرنج تجّار بيروت. ثمَّ انتقل إلى رحمة الخالق سنة ١٦٧٦.

سنة ١٦٤٨ في ١٦ أيّار دخل المدرسة ﴿يوسف ابن الخوري طانيوس البانيّ﴾ وله من العمر ثمانية عشر سنة. وبعدما أكمل العلوم الرياضيَّة والإلهيَّة رجع إلى البلاد وثبت فيها ثلاث سنين ثمَّ عاود إلى رومية فأوقفه سادات المجمع ليدرِّس تلاميذ المجمع المذكور عن الانتشار (أي مجمع انتشار الإيمان) في اللغة السريانيَّة. صنَّف كتاب علم النيَّة وكتاب غراماطيق.

سنة ١٦٤٩ سفَّر البطرك حنّا الصفراويّ الخوري ميخائيل صابونا الحصرونيّ إلى رومية لسبب التثبيت وأخذ صحبته ﴿يوسف ابن الخوري أيّوب البشرّانيّ﴾ وهو أخو موسى الذي تقدَّم ذكره. استمرَّ قليلًا في المدرسة

وطلع قليل النفع.

سنة ١٦٥٠ القسّ مرهج بن نيرون عند عودته إلى رومية أخذ صحبته للمدرسة أربعة أولاد وهم: توما ابن الخوري برد الحدشيتيّ. وجبرائيل بن الفتى الحدشيتيّ. وجرجس زراقط من صيداء. وصادق القديسيّ من شننعير.

﴿توما ابن الخوري برد﴾ كان عمره عشرين سنة وبعد درس الفلسفة واللاهوت توجّه إلى عند والدَيْه في حمّانا فتزوّج ثمَّ سِمْناه كاهنًا سنة ١٦٧٢ فخدم حمّانا والإشبانيَّة في جهة المتن. وفي السنة ١٦٩٩ انتقل بالوفاة إلى رحمة ربّه ودُفن في دير مار يوحنّا قتاله الذي كان سعى في عمار كنيستهِ.

﴿جبرائيل بن الفتى﴾ و﴿جرجس زراقط﴾ خرجا من المدرسة قبل أن يتمّما علمهما وطلع نفعهما شحيحًا.

﴿صادق القديسيّ من شننعير﴾ درس الفلسفة وعلم النيَّة وعندما رجع إلى بيت أهله ترهَّب بدير مار شلّيطا مقبس ثمَّ سيم قسّيسًا. وبعد وفاة الخوري صافي خدم قرية عجلتون ثمَّ انتقل إلى رحمة خالقه.

سنة ١٦٥٣ سار صحبة رجل كاهن إفرنجيّ ولدان وهما ميخائيل ولد فرحات الحصاراتيّ ويوسف بن مؤنس من غدراس.

فـ ﴿ميخائيل الحصاراتيّ﴾ كان ابن اثنتي عشر سنة لمّا دخل المدرسة. درس الفلسفة ثمّ رجع لبلاده صحبة جبرائيل بن الفتى سنة ١٦٦١ في ٢٣ تمُّوز. ترهَّب في دير سيّدة حوقا وسيم كاهنًا ثمَّ انتقل إلى العالم الباقي بكلّ طهارة وخضوع في الوباء سنة ١٦٧٠.

و ﴿يوسف مؤنس﴾ دخل المدرسة ابن عشر سنين. درس الفلسفة وعلم النيَّة ثمَّ في ١٩ نيسان سنة ١٦٦٥ رجع إلى بلاده وسيم كاهنًا على قرية غدراس في الفتوح.

في أوَّل سنة ١٦٥٥ دخل رومية الخوري يعقوب عوَّاد الحصرونيّ قاصد البطرك حنّا وصحبته أربعة أولاد وهم: يوسف شمعون وهو نعمة ابن الخوري

يوسف الحصرونيّ. وجرجس بن إليّا كذلك حصرونيّ. وجرجس التحوميّ. وبولس بن العانيده الحدثيّ.

﴿يوسف بن نعمة الحصرونيّ﴾ كان ابن عشر سنين وبعدما أكمل علوم الفلسفة واللاهوت خرج من المدرسة في ٢١ تشرين الأوّل سنة ١٦٦٨. خدم في اليازجيّة (الكتابة) عند البطرك جرجس ثمّ عندنا. وبعدما ارتقى لدرجة الكهنوت سنة ١٦٧٠ في ٢٦ أيلول سفَّرناه لرومية إلى البابا قليموس العاشر لأجل العادة وطلب التثبيت. وبعدما قضى مصالحنا عاود بسنتين سِمْناه على سيّدة قنُّوبين ثمَّ مطرانًا على طرابلس سنة ١٦٧٥ في ١٤ تمُّوز بدير مار شلّيطا. صنَّف كتابًا عن علم النيَّة لتهذيب الكهنة وجاهد كثيرًا في زيارة الرعايا في الوعظ وارتشاد الشعب. وتعب قدَّامنا في نسخ الكتب التي جمعناها والتي ألَّفناها بكلّ حرص واجتهاد. ثمَّ قضى أجله بكلّ ثناء في دير قنُّوبين وأوقف له جميع تخلُّفاته وانتقل إلى شركة الرعاة الصالحين في الحادي عشر من كانون الأوَّل سنة ١٦٩٥ دام ذكره مخلَّدًا.

﴿جرجس بن إليّا الحصرونيّ﴾ دخل المدرسة ابن عشر سنين ثمَّ درس الفلسفة واللاهوت في سنة ١٦٦٨ في أواخر نيسان ثمَّ تزوَّج في حصرون وسيم عليها وعلى عرقوب الحدث كاهنًا سنة ١٦٨٠ في ٨ من أيلول وخدمهم بكلّ انتباه ومات سنة ١٧٠٠ في ٦ كانون الأوَّل.

﴿جرجس التحوميّ﴾ كان عمره إحدى عشرة سنة درس الفلسفة وعلم النيَّة. وسنة ١٦٦٨ خرج من المدرسة برفقة يوسف مؤنس. تزوَّج في طرابلس ثمَّ سِمْناه عليها كاهنًا وكانت وفاته بها سنة ١٧٠٠ في أواخر تشرين الأوَّل.

﴿بولس العانيده﴾ كان ابن ١٥ سنة وبعدما درس الفلسفة واللاهوت سار إلى حلب. تزوَّج امرأةً مسلمة وأسلم ولكن يقول عنه واحد من اليسوعيَّة إنَّه قبل وفاته ندم عمَّا سلف منه.

سنة ١٦٦٠ سار من حلب ﴿حنّا بن نمرون﴾ وله من العمر ١٥ سنة. دخل المدرسة في شهر آب. درس علم النيَّة وفي السنة ١٦٧٠ في نيسان رجع

صحبة الخوري إلياس عويضا قاصد البطرك. تزوَّج في حلب ثمَّ سِمْناه كاهنًا على كنيسة مار الياس سنة ١٦٧٩ في ١٧ تشرين الأوَّل.

بعد سنتين قدم من حلب ﴿فرنسيس ولد نمرون﴾ أخو حنّا الذي تقدَّم ذكره ودخل المدرسة في شهر آب وله من العمر ١٣ سنة وبعد ثلاث سنين أخرجوه لعماوة ذهنه.

سنة ١٦٦٤ خلت مدرسة الطائفة التي كانت في راونًا وضبط المجمع عن الانتشار (مجمع انتشار الإيمان) على علايفها لأنَّ نشوءها كان على خرجيَّة الكردينال كپّوني مطران المدينة وعلى الدراهم التي أوقفها القسّ رزق الله (ابن شلق) من حلب من قرية العاقورة ورسم على مدرسة الموارنة أن تزيد ولدَيْن عن جاري عادتها وأنَّ خَرْج الولدَيْن يكون على المجمع على حساب وقفيَّة ابن شَلَق. ولهذا السبب في أوَّل نيسان انتقل من راونًا إلى مدرسة رومية إبراهيم من الكليبينيّ بقبرس ابن الخوري جرجس الترتجيّ والياس ولد حنّا بن مبارك من قرية بطحا.

﴿إبراهيم القبرسيّ﴾ كان عمره ٢٨ سنة درس علم النيَّة وفي السنة ١٦٦٦ رجع لقبرس فسِمْناه سنة ١٦٦٩ في ٧ أيّار قسّيسًا على كنيسة مار رومانوس وفي الشهر المذكور سنة ١٦٩٣ انتقل لرحمة الله.

﴿إلياس بن مبارك﴾ كان عمره ١٨ سنة درس علم الفلسفة واللاهوت. وفي السنة ١٦٧١ خرج من المدرسة وسار إلى البندقيَّة حيث كان قاطنًا والداه وارتسم كاهنًا وخدم دير الراهبات في البندقيَّة وهناك انتقل لرحمة ربِّه.

سنة ١٦٦٨ دخل المدرسة ديونوسيوس ويوحنّا ولدا الشمّاس ﴿إبراهيم الحقلانيّ﴾ الذي تزوَّج برومية قونسطنسة بنت ميخائيل البانيّ ورُزق منها هذين الولدين.

﴿فديونيسيوس﴾ كان ابن ١٢ سنة درس نصف الفلسفة ثمَّ خرج من المدرسة ودخل رهبنة شمامسة مار لورنسيوس في السنة ١٦٧٤. ثمَّ سيم كاهنًا واجتهد على التتلمذ (التعليم) وصار له حظٌّ كبير حتّى إنَّ ملكة زواتسيه

(Suède) التي كانت قاطنة برومية طلبت في السنة ١٦٧٨ من البابا زخيا (إينوشنسيوس) الحادي عشر ليكون مقيَّدًا في مصالحها.

﴿يوحنّا﴾ دخل المدرسة مع أخيه وله من العمر عشر سنين وقبل أن يدرس علم الفلسفة خرج صحبة أخيه ودخل معه رهبنة شمامسة مار لورنسيوس وقبل أن يكمل التجربة خرج ودخل رهبنة أخرى.

سنة ١٦٦٩ أرسل البطرك جرجس أربعة أولاد صحبة فرا بطرس من رهبان القدس وهم: بطرس التولاويّ بن عبدالله من بيت زيتو وعمره ١١ سنة. وأنطونيوس الهدنانيّ وهو باخوس بن الشدياق أنطون أخي المطران بولس وعمره ١٥ سنة. ونعمة بن يمّين الهدنانيّ وعمره ١٥ سنة. وعبدالله ولد حبقوق البشعلانيّ وعمره ١٠ سنين.

﴿بطرس التولاويّ﴾ تمَّم علوم الفلسفة واللاهوت وتملْفَن ورجع إلى بلاده صحبة المطران بطرس بن مخلوف سنة ١٦٨٢. قلّدناه عندنا كاتبًا وقدَّمناه لدرجة الكهنوت في ٨ أيلول من السنة المذكورة ثمَّ في السنة ١٦٧٥ أرسلناه إلى حلب ليوعظ في كنيسة مار الياس فجاد في الوعظ وعلَّم الأولاد وهدى الرعيَّة بكلّ ثناء وأدخل بينهم عبادة المسبحة الورديَّة. وفي السنة ١٦٩٨ قدَّمه المطران جبرائيل البلوزانيّ على جميع الكهنة وسامه بردوط.

﴿باخوس الدويهي﴾ أكمل العلوم وتمَلْفَن صحبة بطرس التولاويّ ورجع إلى البلاد صحبة يعقوب بن عوَّاد. وفي حال وصوله سِمْناه قسًّا على دير رأس النهر في ٢٩ حزيران سنة ١٦٨٢ ولأنَّ عمَّه المطران بولس من جَوْر الدهر كان ساكنًا في دير القمر سار إلى عنده وخدم دير القمر ثمَّ إنَّه رجع إلى إهدن وفي حال وصوله مرض وانتقل إلى راحة الصالحين سنة ١٦٨٥.

﴿نعمة بن يمّين﴾ استمرَّ في المدرسة سنتين ثمَّ خرج منها وسار إلى حلب وهناك توفّي بالسلام.

﴿عبدالله البشعلانيّ﴾ اعتراه الحال ووجع العينين وبعدما درس نصف سنة على مشورة الأطبّاء في أواخر سنة ١٦٧٧ رجع إلى بلاده وأخذ السكنى في

دير مار أنطونيوس قزحيّا وفي السنة ١٦٩٣ مات بتقوى الله.

سنة ١٦٧٠ عندما ارتقينا الكرسيّ البطريركيّ وبلغَنا أنّ المدرسة في عازة الأولاد أرسلنا صحبة فرا جوان من بيامُنْت الذي كان مستحبسًا بدير مار أسيا ستّة أولاد وهم: يعقوب الحصرونيّ بن الخوري حنّا ولد عوّاد ابن عشر سنين. وجرجس بن سركيس من بيت الهدنانيّ وعمره عشر سنين. وجرجس بن منّاع الحصرونيّ ابن خمسة عشر سنة. وإبراهيم بن خيرالله حجوة الغزيريّ. ويوسف بن إسكندر القرطبانيّ ابن ١٢ سنة. وكان دخولهم المدرسة في أوائل سنة ١٦٧١. وعبدالله بن باسيل البجّانيّ كان ابن ١١ سنة.

﴿يعقوب بن عوّاد﴾ بعدما درس علم المنطق والنيَّة عاود سنة ١٦٨٢ مع باخوس الهدنانيّ. وفي السنة ١٦٨٥ في ٩ شباط سِمْناه قسًّا على كنيسة حصرون وأرسلناه لرومية مع ستّة أولاد للمدرسة. وبعد عودته قلَّدناه عندنا يازجي (كاتبًا). في السنة ١٦٩٠ وبعد ثلاث سنين سِمْناه بردوط. ثمَّ في السنة ١٦٩٦ في ٩ تمُّوز رفعناه إلى مطرنيَّة طرابلس فجاهد قدَّامنا جهاد الأبطال في اليازجيَّة ونَسْخ الكتب وفي ارتداد الرعيَّة التي تسلَّمها بالوعظ والهدى[٣].

﴿جرجس بن عبيد﴾ بعدما أكمل سائر العلوم وعمل مجادلةً لاهوتيَّة على اسم البابا زخيا العاشر خرج من المدرسة في آخر شهر آذار سنة ١٦٨٣ وفي السنة التي بعدها سِمْناه كاهنًا في ٧ تشرين الثاني على سيّدة الحارة السفلى بإهدن. زار المواضع المقدَّسة واجتهد على درس كتب البيعة وتلمذ الأولاد واعتنى على الوعظ حتَّى إنَّه صار عبرةً صالحة يهتدي بوعظه الشرق والغرب. وفي ٢٧ آب سنة ١٦٩٠ رفعناه إلى مطرنيَّة إهدن بدل ابن عمّنا المطران بولس المرحوم وصرَّفناه في زيارة الرعايا ليجذبهم في فعل البرّ. عمَّر أقبية ومساكن داخل قلعة زغرتا لسكنة الرهبان وعلم الأولاد[٤].

(٣) هو الذي صار بعد ذلك بطريركًا على طائفته سنة ١٧٠٥ وتوفّي في ٩ شباط ١٧٣٣.

(٤) يُعرف أيضًا بجرجس بنيامين. تنزَّل عن الأسقفيَّة ودخل بعد ذلك في الرهبانيَّة اليسوعيَّة في رومية في ٤ كانون الأوّل سنة ١٧١٤ واشتهر فيها بتقواه وغيرته. توفّي سنة ١٧٥٥.

﴿جرجس بن مناع الحصرونيّ﴾ من الحال الذي وقع فيه درس علم النيّة ورجع صحبة عبدالله البشعلانيّ ثمَّ سار إلى كسروان وارتسم كاهنًا ثمَّ في السنة ١٦٩٨ انتقل إلى رحمة الباري بدير مار يوحنّا رشميّا بكلّ عبادة.

﴿إبراهيم الغزيريّ﴾ أكمل علم الفلسفة واللاهوت وسنة ١٦٨٤ في نيسان خرج من المدرسة وسار إلى رشميّا واجتهد في عمار دير مار يوحنّا الذي أنشأه أبو صابر فترهَّب فيه. وفي السنة ١٦٨٥ سيم كاهنًا وترأَّس عليه. ثمَّ سنة ١٦٩٦ أرسلناه لرومية فاعتنى مع القسّ ميخائيل المطوشيّ في تأليف أحرف الطبع وطبعوا في جبل فيسكون الشبيَّة والخدمة ومزامير الصلاة ورجع للبلاد في السنة ١٧٠٠ فأخذه الخوري بطرس التولاويّ صحبته إلى حلب.

﴿يوسف القرطباويّ﴾ بعدما أكمل علوم الفلسفة واللاهوت عاود صحبة جرجس بن عبيد وسنة ١٦٨٧ في أواخر حزيران سِمْناه كاهنًا على سيّدة قنُّوبين وقلّدناه في الكتابة عندنا. كان طبعه ليّنًا طائعًا. وفي ٢٠ من أيّار سنة ١٦٩٤ انتقل بقنُّوبين إلى راحة الأبرار بكلّ ثناء وبضربة الوباء.

﴿عبدالله بن باسيل البجّانيّ﴾ أكمل علوم الفلسفة واللاهوت بكلّ اجتهاد وخرج برفقة إبراهيم الغزيريّ. تزوّج في بيت شباب وسيم عليها كاهنًا سنة ١٦٨٥ واعتنى على خلاصهم في الوعظ وعِلْم الأولاد وتجديد كنيستهم[٥].

سنة ١٦٧١ سفَّرنا ولدنا القسّ يوسف الحصرونيّ بسبب التثبيت وأرسلنا صحبته ولدَيْن على خرجيَّة ابن شَلَق وهم بطرس بن القسّ سليمان بن مبارك من بطحا. وصافي بن بولس القديسيّ من شننعير. فبطرس بعد درس العلوم الطبيعيَّة والإلهيَّة رجع صحبة قاصدنا القسّ يعقوب الحصرونيّ وفي سنة ١٦٨١ في ٢٩ حزيران سِمْناه قسًّا على سيّدة قنُّوبين. خدم قرية غوسطا بكلّ انتباه. ثمَّ في السنة ١٦٩١ أرسلنا معه تلاميذ رومية فتعلّق به أمير فلورنسا وأخذ خاطر البابا والمجمع أن يكون ناظرًا على مخازن الكتب. وفي السنة

(٥) صار بعد ذلك أسقفًا على طرابلس سنة ١٧١٠ وحضر المجمع اللبنانيّ وتوفّي في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٧٣٦.

١٧٠٠ عيِّن له علوفة وأوقفه في مدينة بيصا (Pise) لعلم اللغات الشرقيَّة[٦].

﴿صافي القديسيّ﴾ تعلّم ورجع صحبة بطرس بن مبارك واعتنى أيضًا على علم الأسطرلاب. وفي وصوله لبين جماعته سار إلى بعقلين واجتهد على علم الأولاد ولكنَّ حكمَتْهُ حمَّى شديدة وفي أربعة أيّام نقلته إلى الحياة الباقية بحزن كلّ مَن كان يعرفه وكانت وفاته في شهر أيلول سنة ١٦٨٨.

سنة ١٦٧٦ رحل من قبرس صحبة فرا توماس من رهبان القدس أنطونيوس بن حنّا نكّي من ساماتوس وأخوه فيليبّيّ وبعد مدَّة أشهر استقبلوهم في المدرسة.

﴿أنطونيوس بن نكّي﴾ بعد ستّ سنين دخل هو وأخوه شركة اليسوعيَّة. فالأوّل بعد التجربة واكتساب العلوم أرسلوه إلى دير عين طورا في كسروان وسنة ١٦٩٨ رسموه كاهنًا وصار نسمةً صالحة في النسك والخضوع[٧]. وأخوه فيليبّيّ انتقل إلى رحمة الله في رومية.

سنة ١٦٧٩ رحل صحبة رهبان الكرمل على شور البطرك ﴿الياس بن جبرائيل البشرّانيّ﴾ القاطن في عكّا وكان عمره ١٣ سنة. وبعدما استمرَّ في المدرسة سنتين ونصف اعتراه المرض ووجع العينين وعلى مشورة الأطبّاء رجع لبلاده صحبة يعقوب الحصرونيّ وباخوس الدويهيّ. ثمَّ سنة ١٦٩٣ في ٢٦ تمُّوز سِمْناه كاهنًا ليخدم جماعتنا في عكّا وجيرتها.

سنة ١٦٨٠ في شهر أيلول دخل رومية المطران بطرس بن مخلوف وأخذ صحبته ثلثة أولاد هم: تلميذه مخايل القبرسيّ من مطوشي. وميخائيل بن نعمة الهدنانيّ من بيت أُميَّة. وتوما القدسيّ ولد موسى الحصرونيّ وعمر ثلاثتهم ١٣ سنة. فصدف أنَّهم وقعوا بيد المغاربة وأخذوهم إلى طرابلس الغرب فألهم الله ليونرد السمين من مدينة مسّينا الذي كان مستأسرًا هناك حتّى

(٦) ثمَّ دخل بعد ذلك في الرهبانيَّة اليسوعيَّة ونشر مع السماعنة أعمال مار إفرام وتوفّي في رومية سنة ١٧٤٢.

(٧) الأب أنطون نكّي صار بعد ذلك رئيسًا على الرسالة اليسوعيَّة في سورية وتوفّي في آب من السنة ١٧٤٦.

استفكّهم لأنّه كان متوكّلًا في خَرْج الأسرى وتكلّف نحو ثلثة أكياس دراهم إلى استفكاكهم وكسوتهم وكراء دربهم وزوّادتهم ولكن كافأه البابا إينوشنسيوس مكافأة فضله.

﴿مخائيل المطوشيّ﴾ بعدما أكمل علم الفلسفة واللاهوت عاود سنة ١٦٩٣ في حزيران. وثاني سنة في عشرة من نيسان سِمْناه قسًّا على الكفريّات. ثمَّ سنة ١٦٩٦ أنفذناه إلى رومية صحبة القسّ إلياس بن جرجس الهدنانيّ وكان إرسالهم صحبة الخوري إبراهيم الغزيريّ ولكن ما وصل إلى قبرس إلاّ كان سافر الخوري إبراهيم ومعه سبعة أولاد. ثمَّ القسّ ميخائيل أخذ أربعة أُخر ثمَّ اجتمعوا كلّهم في رومية وولّفوا أحرف الطبع وساروا إلى جبل فيسكون وطبعوا هناك بعض كتب تحت كنف الكردينال.

﴿مخائيل بن نعمة الهدنانيّ﴾ درس سنتين الفلسفة. وفي تاسع سنة من دخوله رجع إلى بلاده وتزوّج بطرابلس وسِمْناه عليها قسًّا فخدمها خدمة الراعي الصالح. ثمَّ في السنة ١٦٩٨ قضى أجله.

﴿توما القدسيّ﴾ عندما استأسروا رفاقه في طرابلس الغرب أخذوه إلى القلعة وبذلوا مجهودهم ليسلّموه في عشق النساء وفي عقاب النار فما استطاعوا أن يغيّروا ثباته. ثمَّ بشفاعة والدة الخلاص وبمعونة مختصّة من لدن الباري استفكّه من القلعة ليونردو المتقدّم ذكره المتكفّل تدبير تلاميذ المدرسة. وفي ٩ آذار سنة ١٦٩١ دخل رومية ودرس علم الفلسفة والنيَّة. وفي السنة العاشرة خرج منها ورجع إلى القدس فتزوَّج وسِمْناه قسًّا على مغارة الصليب في ٢٨ آذار سنة ١٧٠٠.

سنة ١٦٨٢ في شهر حزيران رحل من قبرس صحبة رهبان القدس ﴿إسطفان بن حنّا نكّي﴾ وهو أخو أنطون وفيليبّي من ساماتوس اعتراه وجع العينين وبعد علم المنطق وعلم النيّة رجع صحبة مخائيل المطوشيّ وتزوَّج في قبرس.

وفيها في شهر حزيران رحل من حلب ﴿أندراوس بن داود البشرّانيّ﴾

استمرَّ في المدرسة سنةً ونصف ورجع صحبة القسّ يوسف العنتاريّ ثمَّ تزوَّج في القدس الشريف وفي السنة ١٧٠١ قُتل وهو داخل القدس في متجره.

سنة ١٦٨٤ دخل المدرسة ﴿برتلماوس بن جرجي القبرسيّ﴾ ثبت سنةً ونصف وخرج. وكان أبوه (جرجي) ربيَ سابقًا في المدرسة ثمَّ سار إلى راوِنّا وتزوَّج هناك.

وفي السنة ١٦٨٥ انتهت المائة عام منذ انتقال التلاميذ من (المسكن المسمَّى) ناوفيتوس إلى مدرسة الطائفة. ولهذا السبب في عيد مار يوحنّا الإنجيليّ الذي هو شفيع المدرسة ويصير عيده في ثاني يوم بعد ميلاد الربّ فخمسة أيّام قبل السنة المذكورة صمدوا هيكله في الشماعدين والقناديل من فضّة وفي أيقونات القدّيسين وثياب الكمخ. ثمَّ إنَّ حضرة الكردينال فرنسيس نرلي كفيل الملَّة المارونيَّة ومدرستها، لشدَّة كرمه وحبِّه لقيمان (لقيام) ناموسها، رسم أن يتجمَّل محفل هذا العيد وأنَّ قاعة المدرسة تكون موشَّحة بثياب كمخ الحرير المذهَّب وأن تتزخرف على حيطانها صور التلاميذ الذين تهذَّبوا بها في العلوم ثمَّ جمَّلوها بفعل الفضائل وبرئاسة الكنيسة ليتمّ بهذا إرشاد غيرهم. وكان جملتهم أربعة وعشرين منهم ثلثة بطاركة على كرسيّ أنطاكية أعني العبد الحقير في الرؤساء (إسطفانوس الدويهيّ). وجرجس بن عميرة. وأندراوس عبد الغال السريانيّ. ثمَّ اثني عشر مطرانًا وهم: سركيس الرزّي من بقوفا. وموسى العنيسي من العاقورة. وحنّا الدومنيكانيّ من حصرون. وحنّا من بيت صندوق من حصرون. وإسحاق من قرية شدرا. ومخائيل بن شمعون من حصرون. وسركيس الجمريّ من إهدن. وبطرس بن مخلوف من غوسطا. ولوقا القبرسيّ من قربصيا. وبطرس بن أميَّة من إهدن. ويوسف نعمة من حصرون. ومخائيل بن الصهيونيّ من إهدن. وهذا عوض جرجس الكرمسدَّانيّ لأنَّ جرجس الكرمسدَّانيّ الذي صنَّف اللكسيقون (القاموس السريانيّ) كان خوري وليس مطرانًا وجرجس المطران الكرمسدَّانيّ ما دخل رومية. والتسعة الذين تشرَّفوا في الفضيلة والهدى هم: إبراهيم بن جرجس البشرَّانيّ (من الرهبنة اليسوعيَّة) الذي استشهد، والخوري حنّا بن

عوَّاد الحصرونيّ والقسّ بطرس المطوشيّ من شركة اليسوعيَّة. والقسّ نصرالله بن شَلَق العاقوريّ. والقسّ جبرائيل الصهيونيّ. والمعلِّم إبراهيم الحقلانيّ. والقسّ سمعان بن هارون التولانيّ. والخوري مخائيل صابونا الحصرونيّ. والشدياق فيلبّوس موسى البشرّانيّ.

وتلاميذ المدرسة فسَّروا على المنبر بلغاتٍ مختلفة أوَّلًا مناقب البابا إينوشنسيوس الحادي عشر الذي استفكَّ المطران بطرس والأولاد الذين كانوا صحبته من يسر (أسر) المغاربة. والبابا غريغوريوس الثالث عشر الذي أنشأ المدرسة. ثمَّ مدحوا الكردينال نرلي وكيل المدرسة الذي بكرمه جمَّل محفلها والكردينال أنطون كرافًا الذي تعب بنشوئها ثمَّ أوقف لها جميع متخلِّفاته. ثمَّ شرحوا عن فضائل التلاميذ الأربعة والعشرين الذين تقدَّم ذكرهم وعن تعبهم وجهادهم في انتشار الأمانة المقدَّسة. وكان هذا المحفل شريفًا إلى الغاية حضره خمس كرديناليَّة وأساقفة ومطارنة وعلماء المدارس وشعب لا يُحصى حتَّى إنَّ الكردينال نرلي لزيادة فضله طبع كتابًا جميلًا على هذا المحفل ينشد فيه صحَّة ديانة الملَّة المارونيَّة واتّحادها مع الكنيسة الرومانيَّة منذ نشوئها ثمَّ يمدح فيها فضائل البارّ يوحنّا الثاولوغوس شفيع المدرسة ثمَّ مناقب الباباوات والكرديناليَّة المتفضّلين عليها ثمَّ مديح وصور التلاميذ الذين تقدَّم ذكرهم ويشهد فيه أنَّه اقتصر عن نشيد التلاميذ الآخرين لئلَّا يقلق مسامع السامعين بالطولة.

وفي السنة ١٦٨٥ في ٢٢ أيّار دخل رومية القسّ يعقوب الحصرونيّ وصحبته ستّة أولاد وهم: رزق الله ولد ابن أخينا الخوري مخائيل الدويهيّ وعمره ١٥ سنة. والياس ابن الخوري يعقوب الحصرونيّ وعمره ١٣ سنة ونصف. وسمعان بن سعاده الفغاليّ. وحنّا ابن أبو فرحات الحدشيتيّ. وفرح بن جرجس عويضا الغزرانيّ (الغزيريّ). وجرجس بن إبراهيم الغاوي الهدنانيّ.

و﴿رزق الله الدويهي﴾ عمل مجادلة كلّ الفلسفة. وفي دخول السنة الرابعة من اللاهوت أرسلوه لعندنا رؤساء المدرسة لنسعى لهم بإرسال أولاد جدد

وفي وصوله لقبرس وجد الأولاد متجهّزين ثمّ وصل لعندنا وفي آذار سِمْناه قسًّا على دير رأس النهر.

﴿إلياس الحصرونيّ﴾ تمَلْفَن في علوم الفلسفة واللاهوت وفي السنة ١٦٩٠ رجع وقيعدناه عندنا يازجي وسِمْناه كاهنًا في ٢٨ تمّوز على كنيسة مار لابا بحصرون ثمّ في سنة ١٦٩٢ قدّمناه إلى البردوطيّة وسفّرناه لرومية في ٢٤ آذار.

﴿سمعان الفغاليّ﴾ عمل مجادلة الفلسفة وبعد كمال اللاهوت ثبت أربع سنين لتعليم الأولاد المتجدّدين. وفي السنة ١٧٠٠ في تشرين الأوّل خرج من المدرسة، قعّدناه يازجي وسِمْناه قسًّا في ٢٤ من أيلول سنة ١٧٠٢...

(إلى هنا انتهى ما بقي من تاريخ تلامذة رومية للدويهيّ أعني إلى السنة ١٦٨٥ قبل وفاته بتسع عشرة سنة. وفّق الله أحد قرّائنا على اكتشاف ما فُقد منه وجازى الله مؤلّفه عن أتعابه ملء جزائه).

حلول الرهبانيّة اليسوعيّة في سورية

في السنة ١٦٢٥ تحقّقت نوعًا رغبة الطيّب الذكر جرجس عميرة في كتابه إلى رئيس الرهبانيّة اليسوعيّة العامّ إذ كان أسقفًا على إهدن وكان طلب إليه أن يُرسل بعضًا من رهبانه ليقيموا بين الموارنة على صورة ثابتة بعد القصادة الموقّتة التي عُهدت إلى الأبوين إليانو ودنديني.

فإنّ ملك فرنسة لويس الثالث عشر، لحسن الصِلات التي كانت بينه وبين ملوك آل عثمان، كان نال من الباب العالي بعض الامتيازات لدولته في الآستانة وفي أساكل الشام وبعض حواضرها كحلب ودمشق. لكنّه رأى أنّ تلك الامتيازات تكون أعمّ خيرًا وأفضل جدوى لنصارى الشرق لو مُنحت لمرسلين فرنسويّين يستوطنون الممالك العثمانيّة ويسعون في خدمة الطوائف الشرقيّة. ففاتَح في ذلك الكرسيّ الرسوليّ وكان الجالس حينئذٍ على عرش الخلافة البطرسيّة البابا أوربانوس الثامن. فبعد النظر في الأمر ومراجعة

مجمع انتشار الإيمان صدرت أوامر قداسته لثلث رهبانيَّات فرنسويَّة أعني بهم الكرمليّين والكبّوشيّين واليسوعيّين بأن يقصدوا أنحاء الشام ليبشّروا بالإيمان.

١ - اليسوعيُّون والموارنة في حلب

وكان اليسوعيُّون أوَّل مَن سبق إلى تلبية هذه الأوامر فأُرسل منهم اثنان وهما الأبوان غسپار مانيليه وجان ستيلًا فأبحرا إلى سورية في حزيران من السنة ١٦٢٥ ووصلا إلى الإسكندريَّة في أواسط تمُّوز وإذ عرفا أنَّ مدينة حلب من أكبر حواضر الشامّ وفيها من النصارى وتجّار الفرنج أكثر من سواها مع قلّة المرسلين فيها لمساعدة النفوس حيث لم يكن فيها غير الآباء الفرنسيسكان الإيطاليّين، قصدا تلك المدينة وعزما على استيطانها وعلى خدمة أهلها الروحيَّة تحت حماية قنصلها الفرنسويّ پيار دوليڤيه فكان دخولهما إليها في أوائل شهر آب من السنة.

وهنا حدّث ولا حرج بما نال الأبوين اليسوعيّين من المِحَن والمعاكسات وضروب الاضطهادات التي تعاورتهم كالسهام الراشقة من قِبَل قناصل الدول الأجنبيَّة والمنتمين إليها. وأُقفلت في وجههم كنائس الشهباء إلَّا كنيسة القدّيس إلياس للموارنة فأمكنهم أن يقدّموا فيها الذبيحة المقدَّسة ويجدوا عند أبناء طائفتها بعض التعزية في بلاياهم.

وفي رسائل المرسلين وتقارير السفراء والقناصل أنَّ الموارنة كانوا إذ ذاك في حلب أقلّ الطوائف عددًا وأنَّ كنيستهم كانت معبدًا صغيرًا بل حجرةً مجاورة لكنيسة الأرمن لا تسع أكثر من أربعين إلى خمسين شخصًا. ولم يكن حينئذٍ مقيمًا بينهم أسقف يرعاهم وإنَّما يقوم في خدمتهم وكيل أسقفيّ مع بعض الكهنة البسطاء.

وكان في نيَّة الأبوَيْن المرسلَيْن أن يصبرا على بلاياهما لولا أنَّ أعداءهما سعوا عند الوالي العثمانيّ قره قاش محمَّد باشا وأقنعوه بنفيهما من حلب بل من أنحاء الشام فلم يستطيعا إلَّا الرضوخ للقوَّة القاهرة.

وقد فصّل حضرة الأب تورنبيز اليسوعيّ تفاصيل أخبارهما في المشرق (١٥ [١٩١٢]: ٦٤٣-٦٤٨) فوصف سفرهما بحرًا إلى مالطة ثمَّ إلى الآستانة حيث توقّفا بعد مدّة إلى نوال فرمان شاهانيّ يسمح لهما في السكنى بحلب فرجعا إليها في أوائل السنة ١٦٢٧ وانتصرا بفضل المشير خليل باشا على كلّ أعدائهما فاطمأنّا بالًا وتفرّغا لأعمالهما الرسوليّة.

ونقتصر هنا وفقًا لغرضنا على ذكر ما أتياه من الخدم لطائفة الموارنة وحدها وقد باشرا أوّلًا بالعمل مع الفرنج ريثما يصحُّ لهما التعليم والتبشير باللغة العربيّة التي انكبّا على درسها.

وإذ تمكّنا من التكلُّم بها أخذا يشرحان التعليم المسيحيّ للصغار في الكنيسة المارونيّة وسعيا بإنشاء أخويّة لأبناء الطائفة. إلاّ أنّهما وُجدا في حالة من الفقر المدقع لانقطاع كلّ الحسنات عنهما تأثّرت منه صحّتهما، فأرسل سنة ١٦٢٨ الأب مانيليه رفيقه الأب جان ستيلّا إلى فرنسة ليلفت نظر الرؤساء والمحسنين إلى تلك الرسالة الجديدة المهملة. فوافق وصوله إليها إذ كان الطاعون فاشيًا في جهاتها فطلب من الرؤساء أن يخدم المطعونين وما لبث أن مات في أفنيون شهيد محبّته نحو القريب في ١٨ ك[١] ١٦٢٩.

أمّا الأب مانيليه فتأذّى كثيرًا لبُعد رفيقه وأصبح في حالةٍ من الضيق والعوز يُرثى لها فتّت في عضده ومنعته من خدمته النفوس إلى أن بلغ أمره مسامع الأب جيروم كويرو (P. J. Queyrot) الذي كان قضى سنين عديدة في رسالة استنبول ثمَّ في إزمير بصفة رئيس ديرها فقام من ساعته وأتى إلى الشهباء لمساعدة الأب مانيليه. وكان الأب كويرو جامعًا لكلّ صفات المرسل النشيط من تقًى عميق وعلم واسع ونشاط في العمل وحسن تدبير للأمور وهو يتكلّم بكلّ لغات الشرق. فانتعش الأب مانيليه لمجيئه وأخذ كلاهما في فلاحة كرم الربّ بغيرةٍ لم تعرف الملل. وكان الأب كويرو يعرف شيئًا من الطبّ فشاع صيته والتجأ إليه كثيرون من المرضى فشفاهم.

ولمّا كانت السنة ١٦٣٠ فشا طاعون جارف في حلب أودى بحياة ألوفٍ

مؤلَّفة من أهلها. فكان الأبوان ليلًا مع نهار يتجوّلان في بيوت المصابين ليؤدّيا لهم ما استطاعا من الخدم الروحيّة والجسديّة. فكان مَثَلهُما هذا مؤثّرًا في قلوب الجميع حتّى المعادين لهما. ومذ ذاك الحين تيسّرت لهما الأمور وجعلا ينقطعان إلى أعمال دعوتهما دون مانع، ففتحا مدرسةً للصغار وأنشأ الأب كويرو أخويّة للرجال في كنيسة الموارنة وألّف كتبًا عديدة روحيّة وعلميّة فبقي في حلب كمرؤوس أو رئيس إلى أواخر السنة ١٦٤٣، فطلبه البطريرك أفتيشيوس الصاقزليّ ليرافقه إلى دمشق ليخدم فيها طائفة الروم وكان في حلب قد شارك ربَّه بآلامه إذ تحامل عمّال الأتراك على الرهبان فأُلقي الأب كويرو في حبس مظلم مقيَّدًا بالأغلال وبقي هناك مدّةً إلى أن فداه أحد التجّار الفرنسويّين بمبلغ من المال.

وقدم إلى حلب في المعقد الرابع من القرن السابع عشر بعض المرسلين ذوي الفضل والفضيلة ممّن بقيت آثارهم إلى عهدنا هذا. منهم الأب جان أميو (J. Amieu) الذي وصل إلى حلب سنة ١٦٣٥ واشتهر فيها بتعليم الأحداث الموارنة وإعداد بعضهم للمدرسة الرومانيّة وكان يعظ في كنيستهم. وكان منبر الوعظ قريبًا من شبّاك يطلّ على ساحة كنيستَي الأرمن والروم فكان هؤلاء يتزاحمون لاستماع وعظه وإرشاداته فردّ منهم كثيرين إلى الإيمان القويم. وقد اشتهر هذا الأب بخدمة المرضى والمطعونين قبل أن ينتقل إلى سواحل الشام سنة ١٦٥٠ وينشئ دير طرابلس.

ومنهم الأب حبيب شيزو (Aimé Chézaud) الذي أدار أخويّة الموارنة في حلب وعُني بتهذيبهم وإرشادهم. إلّا أنّ تقرُّبه إلى الأرمن جذب إليه محبّة أهل تلك الطائفة وأساقفتها فانقطع إليهم وسافر إلى أصفهان لينشئ هناك رسالةً لخدمتهم وتوفّي هناك سنة ١٦٦٤، وكان هو أيضًا قاسى أوجاعًا كثيرة من قبل الأتراك في الشهباء وأُلقي في حبس مُنتن لادّعائهم بأنّه فتح معبدًا للصلاة دون فرمان الدولة وكانوا وجدوه يصلّي في غرفةٍ صغيرة. وكان هذا الأب بارعًا بالطبّ يعالج المرضى.

وفي العقد الخامس من ذلك القرن أُرسل إلى حلب يسوعيّان آخران مثل

السابقين فضلًا وبرارةً أحدهما الأب غليوم غوده (Guil. Godet) دخل حلب سنة ١٦٤٢ فعطَّرها برائحة قداسته مدَّة ثماني سنين وخدم بغيرة متَّقدة كلّ الطوائف الشرقيَّة ومات تكفيرًا عن ذنب أحد الرهبان الذي جحد النصرانيَّة. ومن خدمه للموارنة إنشاؤه أخويَّةً لشبَّانهم سنة موته ١٦٥٠. والآخر الأب فرنسوا ريغوردي (Fr. Rigordi) الذي قدم حلب سنة ١٦٤٣ ولم يُطل فيها الإقامة وسنذكره في جملة مرسلي دمشق وصيداء.

واشتهر في حلب في العقد السادس من القرن السابع عشر الأب فرنسوا ريغو (Fr. Rigault) الذي جاء إلى حلب سنة ١٦٥٠ مع الأب أدريان پارڤيليه (Adr. Parvilliers) وانصبَّ كلاهما على أعمال الرسالة بين الموارنة وبقيَّة الطوائف. وقد ضُرب المثل بغيرة الأب ريغو وصبره على الضرب والإهانات التي نالته من قبل المسلمين في حلب. أمَّا الأب أدريان فإنَّه حاز له اسمًا طيِّبًا بكتاباته.

وفي هذا العقد عينه سنة ١٦٥٣ قدم إلى حلب الأب نقولا پوارِسُّون (N. Poirresson) وتولّى رئاسة ديرها وخدم الطوائف الشرقيَّة مدَّة ٢٤ سنة مارس فيها أسمى الفضائل.

وأوسع منهم شهرة الأب يوسف بسُّون (J. Besson) مؤلّف كتاب **سورية والأراضي المقدَّسة** (*La Syrie et la Terre Sainte*) وفي كتابه معلومات شتَّى عن الموارنة وصفاتهم الدينيَّة وأحوالهم المختلفة وقد طُبع هذا الأثر الجليل باللغة الإيطاليَّة أوَّلًا ثمَّ في أصله الفرنساويّ في باريس سنة ١٨٦٢.

ومع أنَّ اليسوعيّين شملوا بعنايتهم جميع الطوائف في حلب إلاَّ أنَّهم كانوا يخصُّون بهمَّتهم طائفة الموارنة إذ وجدوهم كلَّهم كاثوليكًا بسطاء القلب يقبلون تعاليم مرشديهم برغبةٍ فيسقط البذار الجيّد في تربة صالحة. وكانوا مع بساطتهم فقراء يستحقُّون تطويب السيّد للفقراء بالروح. أمّا عددهم فكان أوَّلًا قليلًا ثمَّ ازداد حتّى بلغ بمهاجرة اللبنانيّين إلى حلب نحو مئتَي عائلة و٤٠٠٠ نفس منهم يرتزقون بالصنائع. وكان كهنتهم غالبًا من لبنان قليلي العلم

مرتبطين بالزواج فيسرُّون بمساعدة المرسلين لا سيَّما أنَّ الفقر كان يعرّض أبناء ملَّتهم لأخطار عديدة، فإنَّ أصحاب الأديان المخالفة كانوا يطمعونهم بالمال ليجذبوهم إلى مذهبهم. فانكبَّ المرسلون اليسوعيُّون على تدبير هذا القطيع الصغير فرعوه بكلّ حرص ولم يألوا جهدًا في تأصيل الإيمان في ذويه وأنعشوا فيه روح التقى والإقبال على الأسرار. فكان الموارنة يسبقون الجميع في ممارسة الفضائل المسيحيَّة واستماع الإرشادات والمواعظ ومباشرة العبادات الكنسيَّة والانضواء إلى الأخويَّات الروحيَّة.

وفي أواسط القرن السابع عشر أخذ البطاركة يرسلون إلى حلب أساقفة يقيمون فيها ويرعون أبناءها. وقد ذكر منهم الأب يوسف بوازو في إحدى رسائله المطران جبرائيل وهو جبرائيل بن يوحنّا البلوزانيّ الذي سقَّفه على حلب البطريرك جرجس السبعليّ سنة ١٦٦٣ فدبَّرها إلى السنة ١٧٠٤ ثمَّ خلف العلَّامة الدويهيّ في البطريركيَّة الإنطاكيَّة. قال الأب بوازو ما تعريبه في كتابه إلى سفير الدولة الفرنسويَّة في الآستانة[١]:

> إنَّ الموارنة يمتازون بين كلّ نصارى الشرق بخضوعهم للكنيسة الرومانيَّة واعتصامهم بها. وبما أنَّهم جميعًا كاثوليك يقبلون منّا كلّ ما نقوله لهم لنكشف عنهم ذاك الجهل العميق الذي ألقتهم فيه الدولة العثمانيَّة. بطريركهم مُقيم في قنُّوبين ولهم هنا (في حلب) رئيس أساقفة متَّقد الغيرة لخلاص شعبه وهو يلتمس حماية فخامتك ويطلب بنفوذ عزَّتك أن تنال له الرخصة لتوسيع كنيسته بهدم حائط يفصل الكنيسة عن بيت أحد أبناء ملَّته فيمكّن نساء الطائفة أن يحضرن منه الرتب الكنائسيَّة فلا يختلطن، كما يُقضي عليهنَّ بذلك حاضرًا، برجال من طوائف غريبة. وسيفصّل لفخامتك الأمر اثنان من مرسلينا بكتاباتهما وهما الأبوان بنيه (Benier) وديشان. فإن توفَّق الأمر على موجب رغبة الأسقف حظيتم ببركة جميع الكاثوليك وشكرهم المخلَّد.

وكان بطاركة الطائفة المارونيَّة يباركون مساعي المرسلين ويطرئون أعمالهم الخيريَّة. كيف لا وكان منهم بطريركان جليلان جرجس عميرة (١٦٣٣-١٦٤٤) ويوسف بن حليب العاقوريّ (١٦٤٤-١٦٤٨) تخرَّجا في

(١) راجع كتاب الآثار للمرحوم الأب أنطون ربّاط RABBATH: *Documents* II, 94-95.

مدرسة رومية المارونيّة تحت إدارة الآباء اليسوعيّين. ولمّا رفع بعض ذوي الغايات شكاوى عليهما إلى البطريرك يوسف لم يلبث أن وقف على تُهم أصحابها وزادت روابط الحبّ بين المرسلين والطائفة الحلبيّة توثُّقًا، لا سيّما بعد أن قدم إلى حلب بعض المرسلين المخلصين الحبّ للموارنة كالأب ميشال نو (Michel Nau) والأب إغناطيوس رينه كليسون (R. Clisson) والأب يوسف بوازو (J. Boisot) والأب ميشال ديشان (M. Deschamps) الذي استنفد وسعه لينال من الباب العالي بواسطة السفير الفرنسويّ فرمانًا لتجديد كنيسة الموارنة وتوسيعها كما رأيت[٢].

وقد ساعد المرسلين في إدراك غاياتهم المبرورة بعض من قناصل فرنسة الذين جاروهم غيرةً في نشر الدين وخدمة الكاثوليك ولا سيّما الموارنة، نخصّ منهم بالذكر أنج دي بونان (Ange de Bonin 1639-1642) وفرنسوا پيكه (Fr. Picquet, 1652-1661) والمركيز فرنسوا بارون (Fr. Baron 1661-1667) والفارس لوران دَرْڤيو (Chevalier L. d'Arvieux 1681-1695) فإنّهم دافعوا عن حقوق الكاثوليك دفاع الأبطال ونجّوهم من عدّة مصادرات وإهانات.

٢ - اليسوعيُّون والموارنة في دمشق

رسالة دمشق هي الثانية من رسالات اليسوعيّين في سورية بعد حلب. فُتحت سنة ١٦٤٣ لمّا تعيَّن بطريركًا على طائفة الروم الملكيّين مطران حلب ملاتيوس الصاقزليّ الذي دُعي بأفتيميوس عند ترقّيه السدَّة البطريركيّة، وكان المطران المذكور مشغوفًا بحبّ جيروم كويرو اليسوعيّ المرسل في حلب فطلب إليه أن يرافقه إلى دمشق ليكون كاتب أسراره فيها ومهذّبًا لأبناء طائفته. فأجاب إلى ملتمسه وسكن في دمشق في الدار البطريركيّة وأخذ يعلّم اللغة اليونانيّة أحداث الروم ويشرح للإكليروس أعمال الآباء اليونان كيوحنّا فم الذهب ويوحنّا الدمشقيّ فأصاب شهرةً واسعة لكنّه أثار حسد البعض. ولمّا

(٢) راجع كتاب الآثار السابق ذكره (٢: ٦٥ و١٠٠).

بارح السيّد البطريرك دمشق بعد تسعة أشهر اضطرَّ الأب اليسوعيّ أن يخرج أيضًا من المدينة.

لكنَّه بعد أن تغيَّب مدَّة عاد إليها مع أحد الإخوة المساعدين فسكن بيتًا مأجورًا وعاد إلى أعماله الرسوليَّة التي أكسبَتْهُ صيتًا عظيمًا لدى نصارى الشام. وإذ حدثت في تلك الأثناء حرب الدولة العثمانيَّة مع البنادقة وأُلقي الأجانب في الحبس، وكان من جملتهم الأخ اليسوعيّ المدعوّ غليوم بَنْجن، لم يجسر الأتراك على توقيف رئيسه الأب كويرو لِما شاع في البلد من سموّ فضله وقداسته.

وكان في دمشق رجل إيطاليّ يُعرف بميشال كوندوليو في خدمة الدولة العثمانيَّة وهو رئيس الطوبجيَّة، فهذا عَشِق الأب اليسوعيّ ودافع عنه بشهامة لدى أولي الأمر وأدَّى له ولإخوته خدمًا مشكورة أخصُّها أنَّه اقتنى للمرسلين ملكًا اتَّخذوه منزلًا لجماعتهم ومركزًا لأعمالهم الرسوليَّة فجعلوه تحت حماية القدّيس بولس الرسول. وترقَّت المدرسة التي فتحها الأب كويرو حتّى زاد تلامذتها على المئة. وبلغ عدد المتخرّجين فيها بعد عشر سنين ما ينيف على الألف. ومن ذاك الزمن خصوصًا تألَّفت في دمشق الطائفة الروميَّة الكاثوليكيَّة.

كانت وفاة الأب كويرو سنة ١٦٥٣ فبكاه النصارى على اختلاف طوائفهم ودفنوه بكلّ إكرام كأعزّ ساداتهم. وسار اليسوعيُّون على مثاله في خدمة الدمشقيّين في طول ذلك الجيل السابع عشر اشتهر بينهم الآباء پارڤيليه (Parvilliers) وريشليوس (Richelius) ورستو (Resteau) وكليسون (R. Clisson) وميشال نو (M. Nau) ولكلّهم مآثر طيّبة تشهد لها كتابات ذلك الزمان.

وقد ترقَّت مدرستهم في الفيحاء حتّى ضاق المكان عنهم واضطرّ المرسلون إلى نقلها إلى معاهد أوسع. وكانوا يقومون في المدينة بسائر الأعمال التقويَّة من وعظ وإرشاد وتعليم وتأليف كتب. وكانوا إذا سمح لهم

الوقت يتجوّلون في القرى المجاورة إلى المعرّة وصيدنايا حيث أرشدوا راهباتها.

وكان أكثر شغلهم مع الروم وهم العدد الأوفر من نصارى دمشق يبلغون إذ ذاك ٧٠٠٠ نفس. وكانوا يهتمّون أيضًا بالموارنة وهم في دمشق قليلون لا يتجاوز عددهم بضع المئات. وكانت كنيستهم صغيرة حقيرة وكهنتهم مقترنين بالزواج مهتمّين بأمور بيوتهم وكان أساقفتهم يسكنون لبنان يشغلهم البعد عن العناية بطائفتهم. فكان اليسوعيّون يتولّون تدبيرهم وتهذيب أولادهم ويردّون عنهم دسائس أعدائهم. على أنّ واحدًا من ملّتهم المدعوّ قرقماز مرق من دينه فأسلم وهيّج عليهم الشعب فنهبوهم وأعملوا النار في كنيستهم. فكان الآباء يعزّونهم في بلاياهم ويسعون في تجديد كنيستهم.

٣ - الموارنة واليسوعيّون في رسالة صيداء

رسالة صيداء أُنشئت سنة ١٦٤٤ أي سنةً واحدة بعد رسالة دمشق. وكان سببها أنّ الطاعون فشا في دمشق فتولّى خدمة المطعونين الأب فرنسيس ريغُرْدي اليسوعيّ غير هيّاب من فتك الوباء فشكره العموم على تفانيه. ولمّا أخذ الوباء ينتشر في صيداء كتبت الجالية الفرنسويّة المتاجرة هناك بأن يُرسل إليهم الأب المذكور ليقوم بخدمتهم كما فعل في دمشق وكان الكتاب مُمضى بختم رئيس الرهبان الفرنسيسيّين هناك الأب كروسه. فلبّى الأب ريغُرْدي دعوة الصيداويّين وأفرغ المجهود في إسعافهم وألقى عليهم عظات الصوم فأقبلوا عليها بمزيد الشكر حتّى إنّهم بعد بطلان الطاعون طلبوا إليه أن يسكن بينهم ويخدمهم في أمورهم الروحيّة، وصدّق رئيس الفرنسيسيّين على ملتمسهم فرضي الأب ريغردي وبعد مراجعة رؤسائه أتى إلى صيداء مع راهبين آخرين فسكنوا في بعض معاهد الخان الفرنسويّ التي عيّنها لهم القنصل والتجّار الفرنسويّون. تلك كانت مبادئ رسالتهم في صيداء التي جعلوها تحت حماية القدّيس إغناطيوس.

ما عتّم اليسوعيّون حتّى أنشأوا في صيداء عدّة مشروعات روحيّة منها في

خدمة الفرنسويّين ومنها لصالح الوطنيّين، فأقاموا للفرنسويّين أخويّة على اسم العذراء البريّة من الخطيئة الأصليّة أتت بأثمار عجيبة فانتظم فيها قناصلهم وأعيانهم فأصبحوا قدوةً لكلّ أهل صيداء، وكانوا يرشدون القادمين إلى المدينة على مراكب دولتهم ويتفقّدون أَسرى الحرب. وكانوا يلقون المواعظ في كنيستَي الموارنة والروم ويهتمُّون بإرشاد فقرائهم وتهذيب ناشئتهم. ولمّا عهد الرؤساء إلى الأب ريغُرْدي السفر إلى العجم لينشئ هناك في أصبهان رسالة لرهبانيّته قام بخدمة الصيداويّين بعده آباء ذوو غيرة وصلاح جروا على آثاره وسعوا بترقية أعماله وإنمائها، فاشتهر بينهم الآباء جان أميو (J. Amieu) وجِلْبرت (Gilbert) وريغو (Rigault) وپوارسون (Poiresson) وجان فُرسو (J. Verseau) وكلُّهم من مرسلي القرن السابع عشر أصبحت صيداء بهمَّتهم وبحلول التجّار الفرنج فيها من المدن الراقية.

وكان الآباء يتردَّدون على القرى اللاحقة بصيداء لا سيَّما المارونيَّة فيرشدون أهلها ويعلّمون فيها التعليم المسيحيّ. وكانوا في زمن الصوم الكبير يقصدون عكّا ويتولَّون فيها أعمال التبشير. وكذلك كانوا يفعلون في بيروت قبل أن يتبرَّع عليهم الشيخ أبو نوفل الخازن بدارٍ يسكنونها كلَّما دَعَتْهم إليها أعمال الرسالة. وكانوا يرشدون الشعب في كنيسة الموارنة المبنيَّة على اسم القدّيس جرجس وعلى بابها دُفن رئيس رسالتهم الأب جان أميو في ٦ تشرين الثاني سنة ١٦٥٣، وكان قصد بيروت بعد أن تجوَّل في أنحاء الجبل للتبشير ولتوزيع الأسرار إذ أُصيب بحمّى خبيثة كانت القاضية على حياته فمات ميتة الأبرار في دير الآباء الكبّوشيّين(٣).

٤ - الموارنة ورسالة اليسوعيّين في طرابلس

هو الأب جاك أميو السابق ذكره الذي تولَّى إنشاء رسالة رهبانيّته في طرابلس. وكان أرسل قبله الأب ريغُرْدي ليراقب أحوال المدينة ويُعدّ منزلًا

(٣) أطلب آثار النصرانيّة في المشرق للمرحوم الأب ربّاط (١: ٤٢٢-٤٣١).

للمرسلين سنة ١٦٤٥. فبعد عودته سافر هو إليها بحرًا وكان وصوله إليها في زمن مشؤوم إذ أتت أوامر من السلطان لنشوب الحرب بين الدولة العليّة والبنادقة أن يصادروا كلّ الأجانب ويقيّدوهم بالأغلال، فقبض العمّال على الأب أميو وحبسوه في سجن مظلم كابد فيه ضروب العذاب مدّة ثلثة أسابيع ثمّ أُطلق سراحه، ووجد في المدينة دارًا ذات ثلاث غرفٍ اقتناها للرسالة اليسوعيّة واتّخذ لها محاميًا القدّيس يوحنّا الحبيب لدخوله المدينة يوم عيده في ٦ أيّار. وكان نصارى طرابلس إذ ذاك لا يتجاوزون الألف ٧٠٠ منهم روم و٣٠٠ موارنة.

وما لبثت رسالة طرابلس أن أصبحت يانعة الثمار وفيها كان يُقيم غالبًا رئيس الرسالة في الشام لوقوعها في وسط أنحاء البلاد. وكان أوّل ما وجّهوا إليه نظرهم لمساعدة النصارى أن يفتحوا مدرسةً للأحداث تزاحمت فيها ناشئة البلدة وجارت مدرستهم في دمشق بنجاحها. وكانوا إذا وجدوا بين تلامذتهم الموارنة أولادًا نجباء أتقياء يعدُّونهم لمدرستهم المارونيّة في رومية فيرسلونهم إليها ليتخرّجوا فيها بالآداب الكهنوتيّة ويساعدوا طائفتهم بعد أن تفقّهوا فيها وأتقنوا علومها.

ثمّ أقبل الآباء في طرابلس على تهذيب الإكليروس وإرشاد الكهنة بإيعاز السادة الأساقفة. فكانوا حينًا يجمعونهم لرياضات سنويّة وحينًا يعرضون عليهم المشاكل اللاهوتيّة فيحلُّونها أمامهم وتارةً يصلحون ما يرونه من الخلل في إتمامهم الفروض الطقسيّة وتوزيع الأسرار.

ومن أشغال اليسوعيّين في طرابلس عيادتهم للمرضى. وكان بينهم ولا سيَّما من الإخوة المساعدين مَن يتقن الطبابة ويُحسن معالجة الأعلّاء. فكانوا يؤدّون للأهلين على اختلاف طوائفهم وأديانهم خدمًا جليلة لوجه الله لا يقبلون عليها أجرةً ما. وكانت عنايتهم هذه بالمرضى تتضاعف في أيّام الأوبئة فكانوا يقضون ليلهم مع نهارهم في علاج المطعونين وقد مات غير واحد منهم شهيد محبّتِهِ.

ثمَّ إنَّ اليسوعيّين اتَّخذوا مدينة طرابلس كمركز خاصّ لسياحاتهم الرسوليَّة في شماليّ لبنان وفي سواحل البحر من البترون جنوبًا إلى اللاذقيَّة وطرطوس شمالًا. فكانوا يتوقَّلون الجبل خصوصًا في أيّام الصوم ويعدُّون الموارنة هناك لعيد الفصح المبارك لا سيَّما في القرى المأهولة كإهدن وزغرتا وبشرَّاي وحصرون. ويسعون طاقة جهدهم في إصلاح الأعداء وتأليف القلوب وإزالة أسباب الشحناء والبغض. قد اشتهر بذلك الأب أميو منشئ تلك الرسالة ثمَّ الأب فرنسوا لَمْبار (Fr. Lambert) وبولس غوده (P. Godet) ونقولا بَزِير (N. Bazire) وغيرهم. وقد أدَّت بهم غيرتهم إلى أن طافوا أنحاء عكَّار ودخلوا جبال النصيريَّة وتفقَّدوا مَن كان فيها من النصارى.

٥ – الموارنة ورسالة اليسوعيّين في كسروان

إنَّ المركز الخامس الذي حلَّه اليسوعيُّون في القرن السابع عشر في الشام كان في كسروان في قلب النواحي التي كان الموارنة استوطنوها منذ عهد الأمراء بني عسَّاف. فهناك كان الشيوخ الخوازنة والحبيشيُّون بسطوا سلطتهم على أملاك واسعة أكسبتهم غنى ونفوذًا بين مواطنيهم لا سيَّما الخوازنة الذين عُهدت إلى شيخهم أبي نوفل نادر قنصليَّة فرنسة.

فأبو نوفل هذا كان المختار من الله لدعوة اليسوعيّين إلى كسروان وذلك أنَّ الأب اليسوعيّ فرنسوا لَمْبار الذي كان انضوى إلى الرهبانيَّة اليسوعيَّة بعد سنين قضاها مع مواطنيه في التجارة في مدينة صيداء وأسفارٍ طويلة تجشَّمها إلى العجم والهند ونجا فيها مرارًا من القرصان والغرق والموت، كان طلب من الرؤساء أن يعود إلى سورية ليخدم أهلها مع المرسلين، فركب سفينةً تنقله إلى صيداء لكنَّ أنواءً شديدة دفعت السفينة إلى جهات جونية فغرقت ونجا الأب فأخبر أهلها الشيخ أبا نوفل بالغريق فرحَّب به إذ علم أنَّه راهب يسوعيّ ودعاه إلى سكنى كسروان وأعطى الرهبانيَّة اليسوعيَّة أرضًا في جوار عين طورا يبنون فيها ديرًا لرسالتهم وكان ذلك في السنة ١٦٥٣. فعيَّن الرؤساء الأب لَمْبار كرئيس أوَّل لهذه الرسالة الجديدة التي عُرفت برسالة القدّيس

يوسف فخدمها خدمة أنشط الرسل وأقدس أولياء الله ثمَّ دُعي إلى طرابلس وفيها توفّي في ١٢ تشرين الأوَّل سنة ١٦٥٩.

إلاَّ أنَّ رسالة عين طورا لم تزل في رقيّ متواصل لِما كان المرسلون يصادفونه في تلك الجهات من إقبال الشعب على رياضاتهم وتعاليمهم ومواعظهم وذلك قبل أن تنشأ فيها المدرسة المعدَّة لتهذيب المرشَّحين للكهنوت عند الموارنة. وقد اشتهر في رسالة عين طورا عدَّة آباء أخصُّهم الأب نقولا بَزير المذكور والأب برنار كودار (B. Coudert) والأب جاك دي لا توياري (J. de la Thuillerie) والأب جان فُرسو (J. Verseau) فكانوا يصرفون قسمًا كبيرًا من السنة يتنقَّلون من قرية إلى أخرى وكانوا إذا وصلوا إلى قرية دخلوها والصليب يتقدَّمهم والأجراس تُقرع والشعب يترنَّم بالتسابيح فيدخلون الكنيسة بكلّ أبَّهة ثمَّ يدعون الأهلين باسم غبطة البطريرك والسادة الأساقفة إلى حضور الرياضات المختصَّة بكلّ طبقة من طبقات الجمهور. فكانوا لا يخرجون من القرية إلاَّ بعد أن يتلافوا كلّ أمورها ويصلحوا ما طرأ على أهلها من الخلل في إتمام واجباتهم الدينيَّة والأدبيَّة والأهليَّة لاختلاطهم بالأمم الغربية.

وعلى هذا المنوال بلغ المرسلون إلى أعالي لبنان حتّى بسكنتا وانتقلوا إلى جبل الشيخ وقراها المارونيَّة. ودخلوا أيضًا أديرة الرهبان وشرحوا لهم قوانين دعوتهم وحرَّضوهم على بلوغ الكمال الرهبانيّ.

وكان في الوقت ذاته قد رجع إلى لبنان كثير من تلامذتهم المتخرّجين في رومية تحت نظارتهم في المدرسة المارونيَّة فحذوا حذوهم في أعمالهم الرسوليَّة كما رأيت من الأثر الذي نشرناه قبل هذا للطيّب الذكر البطريرك الدويهيّ.

وممّا ساعد المرسلين اليسوعيّين في القرنين السادس عشر والسابع عشر على حسن خدمتهم للطائفة المارونيَّة ولتهذيب ناشئتها وإصلاح ما طرأ عليها من غبار الدهر وشوائب العصر وكوارث الزمان، التآليف التي وضعوها أو عرَّبوها لإنارة عقول المؤمنين وتأصيل العبادة في قلوبهم. وقد عرف ذلك

الأب إليانو سفير الحبر الأعظم إلى الموارنة ورسولهم الغيور وقد عدَّدنا ما نقله إلى العربيَّة من التآليف المفيدة ليوزّعها عليهم.

ولمَّا دخل اليسوعيُّون بصفة ثابتة كمرسلين إلى بلاد الشام رأوا في أهل حلب رغبةً في مثل هذه المصنَّفات الدينيَّة النظريَّة والعمليَّة فأجابوا إلى شوقهم وسبقوا منذ أواسط القرن السابع عشر تلك النهضة الأدبيَّة التي حصلت بين نصارى الشهباء بهمَّة جبرائيل فرحات ومكرديج الكسيح ونقولا الصائغ كما بيَّنَّا ذلك في **المشرق** (٩ [١٩٠٦]: ٦٦٩ و٦٩١) وكان المُجلّي في هذا السباق الشريف الأب إيمه شيزو (P. Aimé Chézaud) المعروف في حلب بالأب حبيب اليسوعيّ المتوفَّى سنة ١٦٦٤، فإنّ كاتب ترجمته يزعم أنَّه أَلَّف أو عرَّب نحو ٤٠٠ كتاب منها دينيَّة ومنها تعليميَّة أو لغويَّة ذهب الزمان بمعظمها. وقد اشتهر بالتأليف إخوته المرسلون الأب جان أميو (+١٦٥٣) والأب ميخائيل نو (M. Nau) (+١٦٨٣) والأب يوسف بوازو (+١٦٨٧) والأب رينه كليسون (+١٦٩٢) ولكلّهم تآليف شتَّى ذكرناها في مقالاتنا الموسومة بـ **المخطوطات العربيَّة لكتبة النصرانيَّة**.

وتقفَّى آثارهم تلامذتهم المتخرّجون في مدرسة الموارنة في رومية كالبطريرك جرجس عميرة والمطارنة سركيس الرزّي وإسحاق الشدراويّ وسركيس الجمريّ ويوحنّا الحصرونيّ وبطرس بن مخلوف والكهنة ميخائيل الحصرونيّ وبطرس المطوشيّ اليسوعيّ وجبرائيل الصهيونيّ ومنصور شلق والشمّاس إبراهيم الحاقلانيّ ولا سيَّما البطريرك العظيم إسطفانوس الدويهي والكاهن الشهير بطرس التولويّ في أواخر القرن السابع عشر.

وإذ وصلنا إلى حدود القرن السابع عشر أنجزنا ما توخّينا بيانه من أحوال الطائفة المارونيَّة وما أتاه اليسوعيُّون خدمةً لأهلها في القرنَيْن السادس عشر والسابع عشر. وقد بقي علينا أن نذكر الصِلات التي جرت بينهما في القرن الثامن عشر إلى زمن إلغاء الرهبانيَّة اليسوعيَّة نؤجّل ذلك إلى فرصة أخرى إن شاء الله.

(تمَّ)

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ج

ح

ل

م

ن

ي

فهرس تلامذة مدرسة الموارنة في رومية
في القرنين السادس عشر والسابع عشر

ت

ج

ح

د

ر

س

ص

ع

ن

ي

فهرس الموضوعات

ن

ي

فهرس المحتويات



تصميم الغلاف : **جان قرطباوي**

الصفّ والإخراج : **شركة الطّبع والنّشر اللّبنانيّة**
(خليل الديك وأولاده)

الطباعة : **مؤسّسة دكّاش للطباعة**

٩٩٤ - ١,٥ - ٢٠٠٣/٦/١٥



Eliano et Jérôme Dandini vers la fin du XVI^{e} siècle, puis, dans les différentes Missions qu'ils établirent à Alep, à Damas, à Saïda, à Tripoli et dans le Kisrouan, dès la 1ère moitié du XVIII^{e} siècle. On y trouvera pour la première fois une histoire du fameux Collège Maronite de Rome, confié par Grégoire XIII à notre Compagnie, et d'où sortirent durant près de deux siècles, une pléiade d'hommes distingués, comme les Assemani, les Ecchellensis, les Sionita. Deux documents inédits nous donnent de précieux renseignements sur ce Collège célèbre, l'un en une poésie populaire composée en 1669 par le moine Elie de Ghazir, et gracieusement communiqué par M^{gr} Abdallah Khoury, vicaire patriarcal maronite, et l'autre de la main même du Patriarche Douaïhi, contenant un fragment important de l'Histoire des élèves du Collège Maronite, et provenant de la Bibliothèque de l'Abbé ‘Abdallah Mass‘ad. Nous y avons ajouté diverses notes complémentaires.

Ce travail est un petit tribut de reconnaissance à la France, dont les Missionnaires faisaient connaître le nom et bénir la mémoire par leur travaux apostoliques et leurs sueurs fécondantes.

Trois Tables terminent l'ouvrage

Beyrouth, 10 Octobre 1923

AU LECTEUR

On sait combien sont rares les Documents relatifs à l'Histoire des Maronites avant les deux siècles derniers. C'est au Patriarche Étienne Douaïhi, mort en 1704, qu'est dûe la première ébauche d'une histoire de cette nation. Le mérite de cet écrivain est incontestable; mais confiné dans un coin du Liban, loin de tout centre intellectuel, il ne pouvait utiliser dans ses Annales qu'un nombre restreint de documents. Ceux des bibliothèques d'Europe, et en particulier du Vatican et de ses Archives lui échappaient.

Les Missionnaires des divers Ordres qui l'avaient précédé d'un siècle et demi, ont en grande partie comblé cette lacune. Ils avaient tous beaucoup écrit sur ces pays qu'ils évangélisaient; bon nombre de leurs Mémoires se retrouvent encore dans les bibliothèques de Rome et de Paris. Les Archives de la Compagnie de Jésus sont tout particulièrement riches en ces sortes de documents écrits presque au jour le jour par les anciens Jésuites de Syrie. Les Pères Louis Abougit, Pierre Martin, Antoine Rabbath, songèrent à recueillir ces matériaux et en firent tirer des copies qui forment plusieurs volumes de notre Bibliothèque Orientale. Le regretté Père Antoine Rabbath alla plus loin; il voulut exploiter ces mines précieuses et commença la publication de toutes ces pièces dans leurs langues originales. Six fascicules, dont le dernier terminé par le R. P. François Tournebize, ont déjà vu le jour et forment deux beaux volumes in-4 de près de 1300 pages sous le titre de *Documents pour servir à l'Histoire du Christianisme en Orient.*

Nous nous sommes inspirés de tous ces documents pour donner dans notre Revue arabe **al-Machriq** une esquisse de l'histoire des relations qu'eurent les Pères de la C[ie] de Jésus avec les Maronites, à commencer par les Ambassades des Pères J.-B.

LA NATION MARONITE ET LA COMPAGNIE DE JÉSUS

Aux XVI^{e} et XVII^{e} siècles

PAR

le P. LOUIS CHEIKHO S. J.

Extrait de la Revue Al-Machriq
avec Tables

Deuxième édition



DAR EL-MACHREQ SARL EDITEURS

منشورات :
دار المشرق ش.م.م
ص. ب. ٩٤٦-١١
رياض الصلح، بيروت ٢٠٦٠ ١١٠٧
لبنان

التوزيع :
المكتبة الشرقية
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت. لبنان